مكتبة
Telegram Network
2019

حارس سطح العالم

بثينة العيسى
رسوم: محمد المهنا

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

حارس سطح العالم

حارس سطح العالم

(رواية)

بثينة العيسى

رسوم: محمد المهنا

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: أيلول/سبتمبر 2019 م - 1441 ه-

ردمك 978-614-02-3768-1

جميع الحقوق محفوظة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (+961-1)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 1102-2050 – لبنان
فاكس: 786230 (+961-1) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
الكويت – الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: +96598810440
بغداد – شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: +9647811005860
الموقع الإلكتروني: www.takween.com
البريد الإلكتروني: Publishing@takween.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

تدور أحداث هذه القصة في زمنٍ ما في المستقبل، في مكانٍ لا يحدث ذكرهُ أيّ فرق، لأنه يشبه كلّ مكانٍ آخر.

«يجبُ أن نبقى دائمًا على سطحِ اللُّغة.

على سطحِ اللغة!

إيّاكَ والتورُّط في المعنى.. هل تعرفُ ما الذي يحِلُّ بأولئك الذين يَسقطون في المعنى؟ تُصيبهم لوثةٌ أَبديةٌ ولا يعودون صالحين للعيش. أنت حارسُ السطح.. مستقبل البشرية يتوقف عليك».

الرّقيب الأوّل

الفصل الأول

رجلٌ يَرقصُ في جَزيرة

1

عندما استيقظ رقيبُ الكُتبِ من نومِه ذات صباح، مُمتلئًا بكلماتِ الآخرين، وجدَ نفسه وقد تحوَّل إلى قارئ.

كان مستلقيًا على ظهرهِ، يحسُّ بتصلّبٍ مؤلمٍ في رقبته، وحين رفع رأسه قليلًا، استطاع أن يرى مئات الكتبِ التي تحاصرُ سريره؛ كتبٌ لا يذكرُ أنه أتى بها. لا يذكر كيف، لا يذكرُ متى. كان متأكدًا من كتابٍ واحدٍ أو اثنين، ثمَّ حدث هذا الشيء. الكتبُ تكاثرت في الليل؛ تبرعمت، انشطرت، أو ربما تضاجعت. تراكمت فوق بَعضها البعض، صنعت أبراجًا تحاذي الجدران، وطوّقته من كل مكان.

يتذكرُ، على نحوٍ غامض، أن الكُتب طردت زوجتهُ خارجًا. لكنه لا يدري هل حدث ذلك بالأمس، أم قبل مليون عام؟ كان مكانها في السّرير فارغًا. وفي الغبش الذي يغشي ذاكرته، يتذكرُ أنها غادرت فراشهُ وقد احمرَّ وجهها من الغيظ، بسبب كتابٍ لم تنتبه إلى وجوده تحت الغطاء، ارتطمَ به مرفقها فآلمَها. لم يكن

متأكدًا من صِحة تلك الرواية، فالأرجح أنَّ الكتاب قد عضّها.

لا يذكرُ الكثير مما حدث، وشأنهُ شأن المدمنين عندما يعودون إلى صحوِهم، كانت الليالي هي الأسوأ.

كان على اطلاعٍ، بسبب عملِه الجديد، على جُملةِ الأمراض التي تتسبب بها الكتب، وقد بدأت بعض تلك الأعراض في الظهور عليه؛ بزوغ استعارات في الرأس، قرصٌ مستمر للزندين، نشلُ الكتب اللا إراديّ، والإدمان المرضيّ للقراءة ليلًا، حتى بعد أن تنقطع الكهرباء، مستعينًا بضوءِ شمعة.

إنه يحمل في وجههِ سيماء المدمنين؛ الهالات السود حول العينين، النُّحول، الشّحوب، احمرارٌ في بياض الحدقة، الصُّداع النّصفي، آلام الكتفين والرقبة، ناهيك عن كونه مُعرّضًا، أكثر من غيره، إلى صُنوف الأفكار السّلبيةِ في عالمٍ إيجابي، وكأنه قد حُكم عليه إلى الأبد بأن ينظر إلى نِصف الكأس الفارغ. كان يعرفُ بأنه إذا بحث داخل رأسه، فسوف يجد القلق، والاكتئاب، والغضب على الواقع. إنه يعرفُ الأعراض، فقد وقّع بنفسِهِ نموذج الالتزام بإجراءات الأمن والسلامة يوم تعيينه.

لا يذكرُ الكثير مما حدث ليلة أمس. لكنه يذكرُ أن زوجته صاحت تخيّره بين الكتب وبينها؛ إمّا أنا أو هِي! ثم حملت وسادتها تحتَ إبطها، ونظرت إليه بعينين محتقنتين، تكادُ لا تصدّق أنه يقرّبُ كفّيهِ من فمهِ يهمسُ:

- لا أقدِر!

خرج صوتها يشبهُ الفحيح:

- أنتَ تفقدُ عقلك!

ثمَّ اختفت.

لا يذكرُ شيئًا بعدها. ما الذي فعله طوال الليل؟ هل نام؟ هل قرأ؟

يذكرُ صوت الباب، يوصَدُ بقوة، يتركه وحيدًا مع الكتب. كان خائفًا، ولكنه لم يشأ أن يُظهر خوفه أمام الخصم، فهو يعرفُ أشياء لا تصدِّقها زوجته، ولا يعرفها بقية الرقباء؛ أنَّ الكتب تسمع، تعضّ، تتكاثر، تتضاجع، تضع بروتوكولات شريرة لغزو العالم، لديها مشروع استيطاني؛ كلمة بعد كلمة، سوف تُسمّم العالم بالمعنى.

ولكن عليه أن يبقى دائمًا على سطح اللغة.

ظنَّ أنه قد حصل على تدريبٍ كافٍ للبقاء محصّنًا ضد مخاطر المهنة، أخذ يتذكّر كلمات الرّقيب الأول وهو يطرق بأصابعه على سطح الطاولة ويردّد؛ **اللغة كلّها سطح. ليس فيها تضاريس، وإذا ما حافظنا على سطحية اللغة، أصبحنا قادرين**

على مراقبتها.

لم يفهم شيئًا من ذلك. ما معنى لغة، وما معنى تضاريس؟ ولكنه مؤخرًا بدأ يفهم؛ صار يمضي الليالي يتسّلق جبالًا ويغوص في مستنقعات، وأحيانًا يهوي في حُفر؛ في قيعانِ العالم السرية. ما عادت اللغة سطحًا وما عادَ قادرًا على فهمها على هذا النّحو. ولكنه إذا صرّح بأفكارهِ هذه سوف يُدمغ بالمروق، وسيتّهمه الجميع بأنه يتخيّل.

حدثَ كلّ شيءٍ منذ كتابٍ واحد. ترعبه هذه الفكرة، إذ أنَّ عليهِ ألا يبدو فاقدًا للسيطرة إلى هذه الدرجة. لا يمكن لرقيبِ كتبٍ غرٍّ وحديث التعيين أن يُهزم منذ البداية. ما الذي سيقوله الناس؟ حاول أن يسترجع حلمَ ليلة الأمس، كان يشعرُ بأن الغشاء الحُلمي الرّقيق لليلة الماضية ما زال يلفّه مثل جنين. في حُلمه رأى نفسه في جزيرة، يمشي حافيًا على شاطئ الرّمل الذَّهبيّ المليء بالأصدافِ، البحر يهدرُ، ثمَّ عثر على كتابٍ مُلقى على الرّمل. رفع الكتاب بيديه، كان ثقيلًا مثل صخرةٍ بَحرية، فوجد تحته عشرات من سرطانات البحر الصغيرة التي ترفع كلّاباتها في وجهه، ثم راحت تختفي في الرَّمل واحدًا بعد الآخر، تدفنُ نفسها كأنها لم توجد قط. سرطانٌ واحدٌ قرصَهُ في قدمه، سرطانٌ واحدٌ أيقظه ليجد نفسه في غرفته التي ما عادت غرفته، وحيدًا أمام وحشٍ مؤلّفٍ من ملايين الكلمات، وحش الكتب الذي يريد ابتلاعه.

أنزل قدميهِ من على السَّرير، صار يدوسُ على أغلفةِ الكتب

التي تغطي سَطح العالم. بحث لقدميهِ عن بقعٍ من الفراغ ليطأ عليها في طريقه إلى الحمَّام. يمدُّ ساقه باتجاهِ فَراغٍ آخر، ثم يستعيد توازنهُ، فاردًا ذراعيهِ، يلوّح بهما، كأنهُ يخوضُ في مستنقع. وصلَ إلى الباب، فتحه وأطلَّ برأسه؛ زوجته غادرت إلى العمل، وأخذت الطفلة إلى المدرسة. كان مرتاحًا لفكرةِ أنه غير مُضطر لمواجهتها هذا الصباح.

هرع إلى الصُّنبور ليُريق الماء على وجهه، ويدعكَ خدّيهِ، ليُزيلَ عن مُحيّاهُ آثار الكلماتِ التي قرأها. إن هيأته تتغيّر، وقد أصبحت له سُحنة القرّاء، كأنَّ سطح وجهه قد انقلبَ إلى الداخل.

2

وصل الرَّقيبُ الجديدُ إلى مكتبِه متأخرًا، لأنه تسمّر لبرهةٍ أَمام البناءِ الهائلِ لهيئة الرَّقابة. حاولَ أن يُخمِّنَ عَدد الأَدوارِ التي يتضمَّنُها البِناء. في المصاعد الكهربائية كان قد أحصى ثلاثين طابقًا، لكنه متأكدٌ الآن، وقد وقفَ على مبعدةِ بضعة أمتارٍ من البوابة، يعدُّ الأدوار بأصبعه؛ أن هناك، على الأقل، ستة طوابق أخرى.

كان قد سمِع إشاعةً عن الطوابق السِّرية في الهيئات الحكومية؛ أنها مُخصَّصة لأعضاءِ الإدارة العليا، وأنها تمتلئ بالأجهزة اللَّوْحية، والكمبيوترات، والهواتفِ الذَّكية، وأنّهم يحصُلون فيها، بالسّر، على ما يسمى بالإنترنت. ولكنها مجرّد إشاعات، وهو يعرفُ ما يقوله المختصّون عن الإشاعات؛ أنها رواسب من الغريزة البيولوجية التي يملكها البشر لاختراع القصص، غريزةٌ بدائية من العالم القديم، جارٍ تصفيتها.

كان بناء هيئة الرقابةِ رماديًا، مكعبًا، بنوافذ صغيرة متراصّة

تطلُّ على الشارعِ العام. وإلى جانبهِ بناءٌ آخر لمواقفِ السَّيارات وبطّاريات شحنِ المركبات. في الجانبِ الأيسر، كانت الحديقةُ التي لم يكترث لوجودِها أحد؛ مجرد براحٍ عشبي، محاط بشُجيرات الجهنمية والدّفلى. زفرَ وهو يتملى المكان من مسافة؛ ما زال يجد صعوبة في تصديق سوء حظه، بعد أشهر طويلة من الانتظار، والعيش على كفافِ بدل البطالة، جاءه اتصالٌ من هيئة العمالة يفيدُ بأنه قد حصل على وظيفة رقيب كتب.

ليست هذه هي الوظيفة التي أرادها، وإذا ما قدّر لهُ أن يعمل في هيئة الرقابة، فهو يفضّل العمل في إدارة التفتيش. لكنَّ رفضَ المنصبِ الشّاغر يعني انتظارًا لشهورٍ أخرى من الكفاف، وهو ما لا يستطيع فعله لزوجته التي أُرهقت من النُّهوض وحيدةً بدورِ المعيلة. كان العاملون في الهيئة، بتلك البناطيل الكاكية والقُمصانِ المنشاةِ، يحثُّون خُطاهم إلى المدخَلِ. امتلأت الممرات بالموظفين، وانتشر ضوْعُ القهوةِ في الهواء، مع رائحة منظّفِ الأرضيات الحامِضة، وبطريقةٍ لم يفهمها، كان هناك خيطُ رائحةٍ هزيلٍ يراوغُ في المكان، لولا أن أحدًا لم ينتبه إليه سواه، وخمّن أن أحدهم قد نَسي غَسلَ جواربهِ، أو أنَّ كأسَ ماءٍ قد اندلق على سِجّادةٍ ما، أمرٌ ما حدث، وصارت تفوحُ في الهواء رائحة تشبهُ أقنان الدجاج، والملفوف المسلوق، والجوارب المبتلّة. لا يستطيع أن يذهب في الأمر أبعد، وإلا اتّهموه بأنه يتخيّل.

الأرانبُ أيضًا وصلتْ قبله.. لقد صادفَ أَرنبين في الممرات وهمَّ بركلِ أحدِهما، ولكنّها دائمًا أسرع منه. شياطين بيض! إنها

تتبرّزُ في كلِّ مكان، وقد لمحَ ثلاثَ بَعراتٍ في الممرِّ على الأقل، أفلتت من مكنسة عامل النظافة. هذه الكائنات تتعاملُ مع فضلاتها كما لو كانت عربون محبةٍ للعالم، وتتركها في كل مكان، مثل تذكاراتٍ ملعونة، لتذكّر البشر، الميّالين للنسيان بطبيعتهم، بأن أنظمتهم قابلة للاختراقِ على الدَّوام. صاح بعامِل التنظيف ليكنسَ الوسخ، سبَّ ولعن ثمّ دخل إلى غرفةِ القسم. جلس في مكانِه، وبدلًا من أن يعملَ على فحصِ كتابه، جلس واضعًا ساقًا فوق أخرى، وشرعَ يراقبُ الرُّقباء السَّبعة.

يتذكّر مجيئه إلى هذا المكان للمرة الأولى، ممسكًا بقرار تعيينِه. أنا الرّقيبُ الجديد. قال، حيّوه جميعًا بإيماءاتٍ من رؤوسهم. منذ البداية لاحظ وجود تزامنٍ غير مفهومٍ في كلّ ما يفعلونه؛ كأنهم توائم أو ما شابَه، وإذا وضعنا زيّ العملِ الموحّد جانبًا، فهم جميعًا يرتدون نظاراتٍ طبية، ويعانون من الصَّلع. بدوا مثل دُمىً خشبية، في مسرح عرائِس العالم، حيث الخُيوط في يدِ رجلٍ واحد، رجلٍ لا نرى وجهه. كانوا يُقلِّبون الصَّفحات معًا. يَرمشون معًا. يحكُّون أُنوفهم معًا. تمتدُّ أياديهم، معًا، للقبضِ على الأقلام، ثم.. يشرَعون فجأةً في الكتابة. يتناولونَ دفتر التقارير ويُدوّنون المخالفات التي وردت في الكتب. أحيانًا يعطسُ أحدهم، فيُربكُ الإيقاعَ الموحَّدَ الذي يَجمَعُ بينهم. وتساءل وقتها إِن كان سينجح يومًا في الدخول إلى ذلك الإيقاع الجَمعي، وأن يصير جزءًا من الكُل. ولكنّهُ ما زال، حتى هذه اللحظة، عاجزًا عن التَّصدي لكتابٍ واحِد.

حدّق في الجدار أمامه، في جدول المهام المرسوم. كانت

الجداول تتغيّر عدَّة مراتٍ في اليوم، إذْ ينبغي أَن يعرفَ الجَميع، في كل لحظةٍ، من يقرأ ماذا. وفكّر لحظتها بأن الأمر يشبه الدخول إلى حقلِ ألغام، أو دغلٍ مليء بالأفاعي. ينبغي تثبيتُ حبلٍ إلى ظهر كل واحدٍ منهم، تحسُّبًا لفكرةِ أنَّهُ قد ضلَّ طريقَ العَودةِ إِلى سَطحِ العالم.

كانت غرفةً كبيرة، تتسعُ لسبعةِ رقباء. كلٌ يجلسُ إلى مكتبه، وتحت قَدميهِ صُندوق مليء بالكتب التي تنتظرُ الفحص. لم يكن هناك ما يثيرُ الاهتمام في المكان، باستثناءِ الجدول على الجدار، حيث لكلّ رقيبٍ خانتان في الجدول؛ إحداهما للكتب التي أتمَّ فحصها وأُخرى للكتبِ التي كُلِّف بفحصِها. وبالنسبة إليه، كانت خانته فارغة إلا من كتابٍ واحد.

استغرق منه الأمرُ وقتًا لكي يتعرّف على الأساليب الوقائية التي يستخدمها الرُّقباء للحدِّ من تأثير الكُتب. في البدايةِ لم يفهم، وظنَّ الأمر نقصًا في المهنية، لكنه عرفَ لاحقًا بأن ثمّة سببٌ لكل شيء. فالرّقيب الأول، على سبيل المثال، يتعمّد أن يسعلَ في أوقاتٍ معينة، عندما يعمُّ الصَّمتُ في المكان. فهو يخاف على الرُّقباء الذين توغلوا في أحراش اللغة، أن يفقِدوا طريق عودتهم إلى الواقع. أحيانًا كان يعطِس، لمجرّدِ أن يردّ عليه الجميع «يرحمكم الرّب!»، وفي أحايين أخرى، كان يتأفَّفُ من حرارة الجَوِّ، وأي شيءٍ من شأنه أن يقطعَ الطريق على أفكارهم. كما أنه يشجّع كل واحدٍ من الرُّقباء على مناقشةِ ما يقرأ، وبنعومةٍ لافتة، يهشُّ على أيّةِ أفكارٍ دخيلةٍ خارج الغرفة، وأكثر سلوكٍ يتمُّ تثمينُه،

هو أن تسخر مما تقرأ؛ سواء كان الكتاب ممنوعًا، أو مُجازًا، لا فرق، فالمهم هو أن نمتلك كلنا تلك القدرة على التَّقليل من قيمة العدو.

حدث الأمرُ يوم أمس مع ديوانٍ شعريٍ.

- انظروا إلى هذا!

هتفَ الرّقيب الثاني. اسمعوا هذا:

«قالت الشمس

ضُمَّني

واسقِني ماءَ زنديكَ»

ثم مدّ ذراعهُ اليُسرى أمامه، وأخذ يدلّكُ زنده، كما لو كان يحلب ضرعًا. أغربَ الرُّقباء ضاحكين، ثم أخذوا الأمر أبعد، وقام أحدهم بحلبِ إصبع قدمه، وتظاهر آخر بصببِّ الماء من أذنه، ثمَّ عندما وصل الأمر إلى مناطق أكثر حساسية، نوّه الرقيب الأول بأن هذا لا يليق، ولا سيّما مع وجود سيدات في الإدارة. وانعطفَ الحديث بعدها إلى أن المرءَ ما عاد يفرّق بين الشِّعر والترّهات، وأن الذائقة إلى ضياع، حتى صار الجميع يتساءل؛ أي كتابٍ هذا! وبعد أن يبلغ الحوار ذلك الحدّ، يكونُ الكتابُ قد خسِر كلّ كرامته، وليس الكتاب المعنيُّ وحدَه، بل كلّ كتابٍ آخر في الغُرفة. كانوا

يعودون إلى الفحص متأفّفين، وأكثر غضبًا مما كانوا عليه قبل دقائق.

لكنّ تلك الأساليب لم تكن فعّالة معه، ولم يفهم، لماذا لم يكن في وسعه، للحظةٍ حتى، أن يكرَه الكتابَ الذي بين يديه.

3

لم يعد الشخص نفسه منذ ذلك الكتاب.

قبل أن يقرأ، كان يريد أن يكونَ مفتّشًا على المكتبات. إذ أنّه سمعَ أَنَّ المفتّشين يعيشون حياةَ الأحلام، فهم يحصلون على امتيازات السِّلك العسكري، ويرتدون زيًا أزرق أنيقًا، وينتسبون إلى أندية الجيش والشُّرطة، وهو ما يعني امتيازات ترفيهية لطفلته، وحسومات في معظم المتاجر، كما أنهم يحصلون على زيادة بنسبة 1% في حصّتهم من الكهرباء، والأهم أنّه ليس لديهم سجلٌّ حضورٍ وانصراف، وكل ما عليهم فِعله، بعد أن يأتيهم بلاغٌ ما، بشأن كتابٍ ما، هو أن يذهبوا إلى المكتبةِ المشبوهة للقبضِ على الكتاب، وإذا ما عثرَ المفتّش على كتبٍ أخرى، موبوءة، بوسعه أن يعيش إثارة إغلاق مكتبةٍ أُخرى، أن يطلبَ الشُّرطة، ويرى أبوابَ المكتبة وهي تُغلق بالشّمعِ الأحمر، والأصفاد وهي توضعُ على يدِ بائعِ الكتب.

ترى سياسة الهيئة أن المفتّش معرّضٌ للخطر أكثر من

الرقيب، لاضطراره للتعامل المباشر مع الورّاقين والكتبيين ومهرّبي الكتب وقراصنة النشر والقرّاء، وهؤلاء كما يشاع، كائنات شرسة وغير مطواعة، لا تحترم القانون، ولا سيّما إذا كان أحدهم ينتسبُ إلى تلك الخلايا السرطانية التي تسمّى أيضًا؛ المعارضة. يقال إن دماء سلالات المثقفين من العالم القديم تجري في عروقهم، وإنهم فلول الحضارة البائدة، وأعداء المستقبل.

الرُّقباءُ السَّبعة يكرهون المفتّشين، لأنهم يحصُلون على المجدِ كلّه، يحصُدون ثمرة ساعاتٍ طويلة من فحصِ الكتب، ويتمُّ تكريمهم في النِّهاية لأنهم ساهموا بشكلٍ ملموس في حمايةِ المجتمع من شرٍ مُحدق. ماذا عن صُنوف المخاطر التي يستوجب على رقيبِ الكتب أن يجابهها وحيدًا؟ ماذا لو ابتلعه كتاب؟ ماذا عن تعرّضه المستمر للأفكار السامّة؟ ماذا لو علِقَ في شَرَكِ روايةٍ ولم يعد صالحًا للعيش في الواقع؟

المشكلة أنه لا يعرفُ شخصًا يعرفُ شخصًا يعرفُ آخر.. يستطيع تعيينه في إدارة التفتيش. أمورٌ مثل هذه تحتاج إلى العلاقات، وهو.. غريرٌ وأعزل. لطالما أحسَّ بنفسه غريرًا وأعزل، ممتلئًا بالمرارة لمجردِ التفكير بأنَّ عليهِ أن يعمل، على هذا النَّحو، خمسةَ أيامٍ في الأسبوع، سبع ساعاتٍ في اليوم، وأن يقضي الوقتَ كله في قبضةِ هذه الكائناتِ الشيطانيةِ، بسطحِها الزّلِق، وفِخاخها الأبدية.

.. والأسوأ من أي شيءٍ هو الأرانب. لماذا تمتلئ الإدارة

بالأرانب؟ في أول مرةٍ ظهر له أرنب أشار إليه بسبابته وصاح: أرنب! أرنب! فضحك عليه الرقباء؛ ماذا ستفعل لو رأيت أسدًا؟ لكنه لم يفهم. لماذا يسمحون بدخول الأرانب هنا؟ اليوم أرنب وغدًا، الرَّبُّ وحدَه يعلم، قد تقتحمُ الإدارة أتانًا أو بقرة. هذا ما ينقُصنا! كيف دخل إلى هنا؟ صاحَ غاضبًا. أشارَ الرُّقباء إلى النافذة؛ إنّها تأتي من الحديقةِ المجاورة. ولم يفهم لماذا لا تفعل الحكومة شيئًا بهذا الشأن. ماذا لو نشرت أنفلونزا من نوعٍ ما؟ إنه من ذلك الصنف المحافظ من البشر، الذي يؤمن بأن هناكَ مكانين اثنين للأرانب في هذا العالم؛ في حظائرِ شركاتِ التَّغذِية، وفي المرق.

في تلك اللحظةِ، حملَ الرُّقباء السَّبعة أقلامهم، وقذفوا بها الأرنبَ الواقفَ قبالة البابِ نصفِ الموارب. عندما انهالت الأقلامُ على الأرنبِ وقف على قائمتيه للحظة، ثم استدار مغادرًا، وقبل أن يختفي.. كان متأكدًا بأنه حدّق في عينيهِ على نحوٍ خاص، كأنه يتوعّدهُ، لكنّ بقية الرقباء قالوا إنه يتخيّل.

بأصابع مُرتعشة فتحَ الكتاب ثانية ليقرأ. كان متأكدًا من أنه قرأ هذه الصفحة عشرَ مراتٍ على الأقل، لا يدري لماذا علِق بها إلى هذا الحد. الرّقيبُ الأوّل يتنحنح ويسأله:

- ألم تُنجز تقريرك بعد؟ رئيس القسم بدأ يقلق.

وجد نفسه يراوغ:

- لقد بدأتُ الكتابةَ بالفعل، ولكنني لا أريد أن أغفلَ سطرًا.

- لقد تأخرت كثيرًا.

- سأسلّم تقريري في نهايةِ اليوم.

لقد بدأ في إثارة الشبهات، والكلُّ يتساءلُ إذا ما كان قادرًا على العودةِ من ذلك الكتاب دون أضرار. آثار الكلمات التي قرأها تبدو واضحة على وجهه، كدماتٌ ورضوضٌ غير مرئية، لكنها مؤلمة.

فتح دفتر التقارير وتظاهرَ بالكتابة. لكنه وجدَ نفسه يكتبُ سطورًا يحفظها من الكتاب، كما لو أنه يحاولُ فهمها. يتخيّل نفسه جالسًا على الشاطئ، ورجل ضخمٌ يتربّعُ أمامه، مثل السِّندباد البحري، يسأله؛ «**مرحبًا يا أخي، هل لكَ روح؟**». هزَّ رأسه. رمشَ عدّة مرات. من الخطر أن يكون معرّضًا للرؤى، ولا سيّما هنا. الرؤى، مثل أساطير الخلق القديمة، والحكايات الشعبية، وأحلام اليقظة، والخيالات الجنسية وغير الجنسية، كلها من مخلفات العالم القديم. هذه أشياء تعلّمها في أيام تدريبه، عندما كان الرّقيب الأوّل يشرحُ له طبيعة عمله. وقتها عرفَ بأن اللغة هي سطح العالم، وأنها صقيلة ومستوية، وأنَّه ما مِن قاعٍ يترسّبُ فيه المعنى، وأنَّ مسئولية الرقباء هي الحد من نزعة البشرِ إلى التخيّل.

سمع أحد الرقباء يتنهّد. لقد عثرتُ على خمس عشرة مخالفة في ثلاث صفحات. كم أنتَ محظوظ! يبحث الرُّقباء السبعة عن المخالفات كمن ينقّبُ عن الماسِ في المناجم. في البداية لم يفهم؛ ما سبب الاحتفال؟ إذ تكفي مخالفةٌ واحدةٌ لمنعِ الكتاب وتنتهي المشكلة. لكنهم أبلغوه بأنه إذا حصلَ على ألف مخالفةٍ في السنة، فسيحصلُ على علاوة الامتياز، أي ما يعادل زيادةً بنسبة 5% من حصّة الكهرباء لشهرين. كان متأكدًا من أنَّ الكتابَ في يدهِ سيمنحه مئات المخالفات، لكنه ليس متأكدًا من الأمر بعد. أو بالأحرى، ليس قادرًا عليه.

عاود الكتابة في دفتر التقارير ثانيةً، مُصممًا أن يُنجز الأمر بالطريقة الصحيحة. الصفحة السابعة عشرة بعد المائة السَّطر السادس عشر: منافٍ للآداب العامّة. ينتقل إلى السطر اللاحق. ليس صعبًا. ظل يردّدُ على نفسهِ، ليس صعبًا أبدًا. لولا أنه، بصفتهِ حارسًا للسطح، يزعجه أن يقرأ بأن «**لكل شيء في هذا العالم معنى خفي..**». يرشحُ العرقِ من جبينه ويحسُّ بجفافٍ مفاجئ في فمه، إذ يعثرُ بسطرٍ يخالفُ، بصراحةٍ فجة، فلسفة هيئة الرقابة. لا يعرف أيهما يصدّق، الرواية في يدِه، أم الحكومة.

ربما كان الرقيب الأول على حق. لقد قرأ قبل أن يحصلَ على تدريبٍ كافٍ. رغم أنه درَسَ «**دليل القراءة الصحيحة**» عدّة مرات. كان متأكدًا من أنه يفهم كل ما وردَ فيه. ولكن ثمة أمر ما.. يُفلت. إن اللغة ليست سطحًا صقيلًا، بل هي إسفنجة، لكن لا أحد هنا يشاطرهُ الرأي، فما لا يوجد على السطح، لا يوجد على

الإطلاق، وعندما ينكرُ النظام وجود فكرةٍ ما، فهذا لأنها غير موجودة.

«**العبرة في الملافظ والمباني، وليست في الأفكار والمعاني**». يقول دليل القراءة الصحيحة. وكل ما عليهِ فعله هو أن يرصَّ في دفتر التقارير مئات السطور المخالفة. السُّطور التي سقطت في الثالوث المحرّم؛ الرَّب، الحُكومة، الجنس. إن جميع المحاذير تصبُّ في هذا الثالوث.

هذا سهل! فكّر لحظتها بأن الرُّقباء يُمعنون في المبالغة، أنهم يحاولون منح أهمية خارقة لعملٍ سهل.

- هل أقرأ؟

سأل الرقيب الأول بعد أن اجتاز امتحانًا سريعًا لما ورد في الدليل. أعطوه قائمة بمجموعة من الأسطر المنتقاةِ من أكثر من كتاب، وطلبوا منه تبيّن فيما إذا كانت سطورًا مخالفة. نجح في الاختبار، وصار رقيبًا مبتدئًا تحت التدريب، أعطوه عشرة كتبٍ للفحص.

سار كل شيءٍ على ما يُرام حتى اصطدم بكتابٍ واحد..

نموذج (1.1) اختبار رقيب كتب مبتدئ مستوى أوّل

بيّن وجه المخالفة في الأسطر الواردة بالجدول أدناه، إن وجدت.

م	السطر	المصدر	مخالف / غير مخالف	نوع المخالفة
1	إذا اتفق للأطفال أن يتألموا في هذا العالم، فلا يمكن أن يكون ذلك إلا بذنب آبائهم الذين أكلوا التفاحة من أجل أن يكفّروا عن تلك الخطيئة.	الإخوة كارامازوف - دويستوفيسكي	**مخالف**	**إحالة إلى عقائد قديمة غير معتمدة من قبل الرقابة الشرعية**
2	عندما استيقظ غريغوري سامسا من نومه ذات صباح، بعد أحلام مزعجة، وجد نفسه وقد تحوّل في فراشه إلى حشرة عملاقة.	التحوّل - كافكا	**مخالف**	**منافٍ للمنطق**
3	الوطن العربي هو مصطلح جغرافي-سياسي يطلق على منطقة جغرافية ذات تاريخ ولغة وثقافة مشتركة..	جغرافيا الوطن العربي	**مخالف**	**تاريخ العالم القديم**
4	أجاب الشيطان: لكنك يا صانعي تمقتني وتزدريني أنا مخلوقك الذي أنت مرتبط به بروابط لا	فرانشكتاين ماري شيلي	**مخالف**	**مساس بالذات الإلهية**

	يفصمها إلا موت أحدنا..			
5	لقد أصبحت جميع الوظائف تتم من خلال تطبيقات وأنظمة معلوماتية على الانترنت..	مستقبل النظم المعلوماتية. د. غوران غوتشل	**مخالف**	**ورود لفظة انترنت.**
6	وثديًا مثل حقّ العاج رخصًا حصانًا من أكفّ اللامسينا	عمرو بن كلثوم	**مخالف**	**منافٍ للآداب العامة**
7	لا يمكن استئصال غرائز الإنسان القتالية، لذلك لا يمكن تصوّر حالة من السلام المطلق.	كارل يونغ النازية في ضوء علم النفس	**مخالف**	**مخالف لمختبرات الحكومة.**
8	ابتعـد أيـها الشيطـان فأنـت مجـرد من كـل شـيء، ليس لك هنـا شـيء، و خاصـة مع هذه الـروح المـقدسة الطـاهرة.	كتاب الصلوات الميسّر	**مخالف**	**صيغة الدعاء غير معتمدة من قبل الرقابة الشرعية.**
9	إن الاعتذارات التي يقدمها أصحابها مفتقدة إلى العاطفة الصادقة أو غير نابعة من القلب لهي أسوأ من عدم تقديم الاعتذار	المحاضرة الأخيرة - راندي بوتش	**غير مخالف**	---------

	مطلقًا			
10	«الديمقراطية عملية تمكن الناس من اختيار الرجل الذي ينال اللوم.»	برتراند رسل - مقالات	**مخالف**	**قلب النظام العام**

اجتاز الاختبار بنجاح

توقيع مشرف الاختبار

الرقيب الأول

4

أعطوهُ في البداية كتبًا سهلة.

كانت العناوين كلها على شاكلة «دموع أنثى» و«قلبك لي» و«لأنني أحبك» وأشياء أُخرى سبّبت له حُموضةً في المعدة، وتساءل إن كان الأجدر به أَن يحمي البشرية من المللِ أيضًا، وأن يتصدّى لطوفان العواطف الجياش الذي يجتاح العالم في غفلةٍ من الجميع. صار يحكُّ ويهرش في كل مرة يقرأ فيها كلمة «بوح» أو «نبض»، أو «شذرة». وقد توصّل إلى نظريةٍ معقولة، وهي أنَّ على النظام ألا يتحمل وزر العُشّاقِ المكسورين، وأنَّ مشاكلَ التواصل بين المحبّين ينبغي أن تُعالج فيما بينهم، أو في إدارة الإصلاح الأسري، ولكن ليس على الملأ، لأن الأمر غير لائق، ناهيك عن كونه غير مسلٍّ. ثمَّ.. ورغم أنه لم يكن يومًا مهتمًا بقضايا البيئة، إلا أنه أصبح غاضبًا فجأة لأجل كل تلك الأشجار التي تتحوّل إلى كتب، أكثر من حزنه على الأشجار التي تتحول إلى ورقِ مراحيض.

بَحلَقَ في الصَّفحات، آملًا العثور على سطرٍ واحدٍ خادشٍ للحياء، شيء من شأنهِ أن يُبرّر المنع، ولم يجد شيئًا، فعاودَ النَّظر ثانيةً، وعثر على سَطرٍ واحدٍ هزيل، لكنه لم يكن متأكدًا من كونهِ كافيًا لمنع الكتاب. توجّهَ إلى مكتب الرَّقيب الأوّل وسبّابتهُ على السَّطر: «أتوقُ إليك في كل خلية من جسدي». سأل:

- هل تجد إيحاءً جِنسيًا في هذا السطر؟

هزَّ الآخر رأسه هزة العارف.

- **لا؛ العبرة في الملافظ والمباني.**

- ولكن الخلايا، إنها في كل مكان، هنا.. وهنا.. و..

نظر وراءه ليتأكد من أن الزملاء غير منتبهين له.

- وهنا!

ضحك الرَّقيبُ الأوّل؛

- **نحن لا نُؤوّل.**

مطَّ شفتيه. هل هذا ما يعنيه الأمر، أن تكون حارس السَّطح؟ كان يظنُّ أنّ المهمة أكثر تشويقًا. إذ ما معنى حراسة السَّطح إذا

كان العالم كلّهُ سطح؟ زفر، عاد إلى المكتب وكتب في دفتر التقارير قرار الإجازة. كتبٌ أخرى صالحة للتداول. يا للعار.

ثم قرأ كُتبًا أخرى وجدها جديرة بالمنع دون أن يتمكّن من منعِها. كتبًا تتمحور حول النجاحِ، والمال، والحُب، والسَّعادة، وأشياء يحققها المرء من خلال أفكارهِ. وجد الأمر مستفزًا، أن يخبره كتابٌ ما بأنه ليس صنيعة ظروفه، وأن ظروفه هي صنيعته، وأن كل ما عليه فعلهُ لكي يغيّر حياته هو أن يصدّق بأنها تغيرت. هذا هُراء! نهض من مكانه يجادلُ الرقيب الأوّل. إن هذه الكتب تزوّر الحقائق، وتزعم أن الشيء ليس هو، وأن العالم هو محصّلة أفكارنا. ولكن الحقيقة أننا بلا أفكار، فإذا فكرنا كلنا، ما الذي سيتبقى للحكومة؟!

خلع الرقيب الأول نظارتيه، ودعك عينيه، ثم أسند ذقنه إلى كفّه، وأمطره بالأسئلة وهو يشير بأصابعه المكتنزة إلى اللائحة:

- هل تدعو هذِه الكُتب إلى الثَّورات، أو قلبِ النِّظام السِّياسي والاقتصادي والاجتماعي؟ هل تدعو إلى التَّشكيك في القرارات الإدارية، أو تهدّد وضع العملة المحلية، أو تسبب اضطرابًا في سوق المال؟ هل تسبب شرخًا في النسيجِ الاجتماعي، والتقسيم الطبقي، وكل هذه الأمور؟

هزّ الرقيب رأسه نافيًا:

- على العَكس، إنها تخبرك بأن عليك أن تكون سعيدًا، وأن العالم جميل، رغم أنه..

قاطعه الرقيب الأول:

- بالضبط. هذه كتب جيدة، ويجب أن نملأ بها المكتبات، إنها كتبٌ في خدمة النظام.

زفرَ، عاد إلى مكتبهِ وكتب في التقرير قرار الإجازة. كتبٌ أخرى لعينة صالحة للتداول.

ابتسم الرَّقيبُ الأول: ها أنت تتعلم، أنا مسرور من أسئلتك. هل أنهيتَ عملك اليوم؟ لقد أنهى عمله دون أن يمنع كتابًا واحدًا. كان غارقًا في الخِزي حتى أذنيه، وكلما سَمِعَ أحدَ الرُّقباء يهتفُ بأنه عثر على «عشرين مخالفة في صفحةٍ واحدة» كان يموتُ من الحسد. لماذا لا يعطونه كتبًا من هذا النوع؟ كتبًا يستطيع منعها؟

سَلَّمَ التقارير للرَّقيبِ الأوّل، اعتمدَها الآخر ورفعها إلى رئيس القسم. سأله:

- ألن تقرأها أيضًا؟

- سبق وقرأتُها، كان هذا مجرد اختبار.

- وهل نجحتُ في الاختبار؟

- كانت كتبًا سهلة..

- أعطِني كتابًا صعبًا.

- أنتَ لست مستعدًا.

سلّمه الرَّقيبُ الأوَّل مجموعةَ كتبٍ أُخرى.

- لا مزيد من الخواطر أرجوك..

- يجبُ على رقيبِ الكتبِ ألا يستمتع بما يقرأ.

- وهل عليَّ أن أُمضي ستَّ ساعاتٍ في اليومِ في قِراءة كتبٍ أكرهُها؟

ردَّ عليه الرقيبُ الثاني، من المكتبِ القصصيّ:

- كلّما كرهتَ الكتاب أكثر، كان أفضل.

في ذلك اليوم، لم يفهم خطورة الأمر. إذ يمكن للمرء أن يقرأ أشياء مُسلية، مليئة بالإثارة والألفاظ النابية والشذوذ الفكري، ثمَّ

يكتب تقريره بحسب ما يحصده من سطورٍ مخالفة. ما المانع؟ إنَّ رقباء الكتب ميّالون إلى التهويل، ولكن الرقيب الثاني كان قد مال بجذعهِ إلى الأمام، واضعًا كفّه قريبًا من فمِه ومبالغًا في تحريك شفتيه:

- لكيلا يحدثَ لكَ ما حدثَ للسِّكرتير!

- وماذا حدث للسكرتير؟

همسَ الآخر:

- لقد أحبَّ الكتب، وخسِرَ شارته.

ارتفع حاجباه؛ معقول؟ أومأ الآخر واستطرد؛ لم يشأ رئيس القسم طرده، أحالوه إلى العمل الإداري، ولكنه، قبلَ سنةٍ واحدةٍ فقط، كان يجلسُ في مكانك هذا، ثمَّ أصابته لوثة القراءة، وما عاد قادرًا على التمييز بين الكتب والعالم، صار يكلّمُ الهواء، ويرى أشياء لا نراها، ويلاحق الأرانب. لقد جنّنته الكُتب، وعندها تمّت مراجعة تقاريره، وأحيل للتحقيق بتهمة إجازةِ كتبٍ ممنوعة. هل تعرف كيف كان يرد على أسئلة المحققين؟ مطَّ عنقه أكثر وفحَّ هامسًا:

- لقد سقطَ في التأويل!

هزَّ الرقباء رؤوسهم أسفًا؛ آه. وا أسفاه. يا لها من خاتِمة مروّعة.

التأويل جحيم الرّقباء، إنه آخر مكان يجدرُ برقيب الكتبِ أن يكون فيه. وهو يسمع هذه الكلمة للمرة الأولى في حياته.

- ثمّ ماذا؟

- أشفق عليهِ رئيسُ القِسم لِكبر سنّه، تمَّ حفظُ القضيَّة، وبدلًا من السِّجن والطّردِ فقد حصل على وظيفةِ سكرتير القِسم، وقد وقّع في المحكمةِ الإدارية على تعهّد بألا يعودَ إلى القراءة. تُرى، كيف يمكن أن يحدث له كل ذلك، لو لم يجد متعة فيما يقرأ؟ من الضَّروري أن نكره ما نقرأ.

ثمّ مدّ يده يناوله دفعةً جديدة من الكُتب، وفي اللحظةِ التي حاول فيها التقاطها، دخل سكرتير القِسم إلى المكتب..

تحنّطت وجوه الرقباء. عادوا جميعًا للتحديق في الصفحات، وأخذوا وضعية التماثيل، حتى أن أرنبًا قد دخل إلى الغرفة دون أن يهشَّ عليه أحد.

كان السكرتير مبتهجًا على نحوٍ غير مفهوم بالنسبة لرقيبِ كتبٍ سابق تمرّغ في العار حتى أذنيه. صباحُ الخير! قال، وكان يبتسم. فكّر الرَّقيب الجديد بأنه لو كان موصومًا بالردّة وشبهة

خيانة النظام لما ابتسم طوال حياتِه. لا بدَّ وأنه مخبول، أو أنه شريرٌ حقيقي.

أحسَّ بالنّفورِ من العجوز، حتى أخذت عضلات زنديه تتشنّج، لم يستطع للحظة، أن يُخرج من رأسه فكرة أنه موجودٌ في الغرفة نفسها مع خائن. بحلقَ في وجههِ مليًا، على أمل أن يجدَ فيه علامات التوبة. كان راغبًا بأن يغفرَ له ما فعل، لو أنه دخلَ الغرفة مطأطئًا، على وجهه لطخة النّدم، وغير متبوعٍ بأرنبٍ أبيض. ولكن المجرمين الحقيقيين لا يستحون. وجد نفسه يفكّرُ في زوجته وابنته، كيف خاطرَ هذا العجوز اللعين بسلامتهما عندما أجاز كتبًا مسمومة. لن يكون الأمر أسوأ، لو أنه صرّح بتداول دواءٍ منتهي الصلاحية، أو لحومَ حمير. انتابته رغبة عارمة بأن يلكم السكرتير في وجهه. وأخذ يحدّق فيه مرتابًا فيما يدنو الآخر من مكتب الرقيب الأول ويسلّمه كتابًا جديدًا.

- هذا كتابٌ للفحص.

نظر الرَّقيبُ الأول إلى العنوان:

- هذا ممنوع.

- إنها طبعة جديدة، بترجمة جديدة.

- لقد منعنا هذا الكتاب بثلاث طبعات..

- إنه القانون.

تأفّف الرَّقيب الأوّل.

- إنهم يضيعون وقتنا بهذه الألاعيب، ترجمة جديدة، طبعة جديدة، دار نشر جديدة، وفي كل مرة علينا أن نقرأ الشيء اللعين من جديد. وأن نصدّر قرارًا جديدًا..

- أنا سأقرأه!

هتفَ الرَّقيب الجديد من مكانه. لا يعرفُ بالضَّبط ما الذي انتابهُ لكي يتطوّع لتلك المهمة. كل ما أرادهُ وقتها هو أن يمنعَ كتابًا، نكايةً بالعجوزِ الخائن، ولمجرد إغاظته. لقد أمضى الأيام الماضية في فسح كتبٍ مليئة بالهراء. يريد أن يجرّب شعور الرَّقيب الذي يمنعُ كتابًا خطرًا، الرَّقيب الذي يحمي المجتمع من خطرٍ حقيقي! مدّ يديه بسرعة وقبض على الكتاب، ثم عاد إلى مكتبه مسرورًا، ها قد حصل على كتابٍ صعب، كتابٍ سيعود له الفضل بمنعهِ إلى الأبد.

ابتسم السكرتير على نحوٍ غامض. كان هزيلًا، أشيبَ الشعر، تفيض التجاعيد من جلده، وتتكاثر على جانبيّ فمِه. يرتدي

نظارتين مستديرتين بإطارٍ ذهبي. كأنهُ في المليون من عمره.

هزَّ الرقيب الأوّلُ رأسه رافضًا.

- أنتَ لستَ مُستعدًا.

- كم من الوقت لديَّ حتى تسليم التقرير؟

- لا يمكنكَ قراءة هذا الكتاب.

- كم من الوقت؟

زفر الرَّقيب الأول، ثم أخرجَ آلةً حاسِبة من الدُّرج. كم عدد الصفحات؟ ثلاثمائة وستّ وتسعون، إذا قرأت مائة وعشرين صفحة في اليوم، يمكنك أن تسلمني التقرير خلال ثلاثة أيام ونصف، ولكنني سأمنحك خمسة أيام. ليكُن! رد متحمسًا.

ضحك سكرتير القسم، غمغمَ وهو يغادر، متبوعًا بالأرنب الأبيض:

- لا يمكنك أن تقرأ زوربا في خمسة أيام!

5

في غرفتي دولاب، في الدّولاب ذئبٌ، في بطنِ الذئبِ جدّة، في بطنِ الجدّة حكاياتٌ كثيرة..

تقولُ الطفلة منذ الأمس.

تشدُّه من يدِه إلى غرفتها، تفتح باب دولاب الملابس الخشبيّ وتُشير إلى الفراغ في الداخل؛ هل تراه يا بابا؟ هل تراه؟ عندما بلغ حالها هذا الحدّ، اغرورقت عينا زوجته. صرَّ على أسنانه وهمس: «لا تهوّلي الأمر»، ثمّ داعب رأس الصغيرة، والتصقت براحته رائحة بودرة الأطفال. هل نذهب الآن؟ سأل الصغيرة، فشحب وجهها فجأة. تقوّس فمها إلى الأسفل. ثم اندسّت في الدّولاب وأقفلت على نفسها الباب؛ وحيدة مع ذئب افتراضي افترسَ جدةً افتراضية.

كانت المدرسة تخيفها أكثر من الذئاب.

حاولت زوجته إخراج الطفلة من الدّولاب بالقوة، فأخذت

ترفُس. الأمر الذي يحدثُ كل يومٍ تقريبًا؛ دموع وركلات وشهقات. الصَّغيرة ترفض مغادرة غرفتها لأنها تريد أن تلعب مع «الذِّئب في الدولاب»، وهي تسرقُ مكعبات السكّر من المطبخ لتعطيها للحصان المجنّح وحيد القرن، تحسبًا لظهوره. زوجته بدأت تقلق، لأن الصَّغيرة تبدو غير مهتمة باللَّعب مع بقية الأطفال، إنها تتحدَّث مع الدُّمى المحشوّة والأشجار وخيوط النملِ والجنيّات والعناكب والبقّ والقِطط السَّائبة والحساسين والذئابِ الافتراضية. ليست لديها مُشكلة في التعاملِ مع جميع المخلوقات؛ حقيقية أو متخيّلة. المهم ألا يكونوا بشرًا.

همست زوجته:

- أليس الأمر واضحًا لك؟

- ما هو؟

- ابنتنا.. إنها..

أخفضت صوتها أكثر:

- إنها تتخيّل!

حافظ على ملامِحه ثابتة، من الضروري ألا يبدو فاقد

السيطرة.

- هذا شيءٌ عابر، مثل الأنفلونزا.

- إنَّ حالتها تتفاقم..

- سوف يزول الأمرُ من تلقاءِ نفسه.

ضمَّ الصغيرة إلى صدره وغطّى عينيها براحتِه، كما يفعل مع كل نوبة هلعٍ تنتابها. هدأت الطفلة، توقف الصراخ، بدأ البكاء المكتوم. أحسَّ بها هزيلة وهشة، مثل عودِ أسنان، طقة واحدةٌ وتنكسرُ بين ذراعيه. إنَّ رقتها تبثُّ في قلبهِ الرّوع، وتلكما العينان الصغيرتان، والعنق النحيل الذي يكادُ يطوّقهُ بين إبهامه وسبّابته. كيف تصمدُ طفلةٌ مثلها في الواقع؟

كانت تكرهُ المدرسة، ولكنها تحبُّ تقريبًا كل مكانٍ آخر؛ الشَّاطئ، الحديقة العامة، البيت. وكان أكثر مكانٍ ترتاحُ فيه هو دولاب الملابس الخشبيّ، بطلائه الأبيض، والنقوشِ المحفورة أعلاه. لقد جنّنت أمها بأفكارها. إذ قرّرت مرة، أنَّ على دولابِ الملابس أن يكون ورديًا، وبدأت تطليه بالورديّ الفاتح، مستخدمةً طلاء أظافر أمها. كانت بالكاد قد طلت مساحة أربعة سنتيمتراتٍ من سَطحِهِ عندما نفد الطّلاء وراحت الطّفلة تصيحُ وتشهق. في مكانٍ ما، في رأسها، كان يُفترض بالطِّلاء الورديِّ أن يتدفّقَ إلى

الأبد من تلك الزُّجاجة الصَّغيرة، لأنها كانت زُجاجة سِحرية. غضِبَت زوجتهُ من اللَّطخة الورديَّةِ على طِلاء الدُّولاب، ولكن، لم يفعل أحدٌ شيئًا بهذا الشأن.

عندما حدث ذلك، كان مشغولًا بقراءة زوربا.

«إنها مختلفة عن بقية الأطفال». قالت زوجتهُ قبل أيام، وهي تُفلتُ يدَ الطفلة في الحديقة العامة، لتركض إلى سربٍ من الحمام، حطّ عند سطلٍ من الماء وكثير من الرزّ المسكوب على البلاط. طار الحمامُ مذعورًا، فضربت الصغيرة الأرض بقدميها وراحت تبكي، واضطر لأن يحملها على كتفهِ وأن يُغلق عينيها براحتهِ حتى تهدأ. تقنية بسيطة تعلّمها بالتجربة والخطأ كلما دخلت الطفلة في نوبةٍ مثل هذه، وكانت النَّوبات تتكرّرُ في مناسباتٍ غريبة. أصبح يعرفُ الآن مثلًا، أنها يمكنُ أن تدخل في نوبة هلع إذا ما كان القمرُ بدرًا. إذا ما شاهدت ناطحة سَحابٍ عملاقة، أو رأت جدارية الرئيس المصنوعة من الفسيفساء. بالتأكيد، لا ينبغي أن يعرف أحدٌ بأنها تخافُ من صور الرئيس، الصور كبيرة الحجم تحديدًا، من شأن ذلك أن يسبب لهم المتاعِب. لقد اكتشف تلك الحيلة صدفةً؛ أنه إذا ما وضع راحتهُ على عينيها فستهدأ على الفور. وتذكّر الحسُّون الذي اشتراهُ له والده في «عيد التطهير». أخبره أبوه أن عليهِ أن يغطّي القَفصَ بقِماشٍ أسود ليحمي العُصفورَ من نوباتِ هلعه، وقالَ إنّه إذا ما أبصَرَ النّور، فسوفَ يَضربُ جَسَدَهُ بقُضبان القَفصِ حتى يموت.

كانت يده هي تلك القماشة السوداء، وكانت الطفلة تشبهُ الحسّون الذي انتحر ضاربًا جسده بالقضبان، لأن الطفل الذي كانه، لم يصدّق بأن النور يمكن أن يجعل عصفورًا يرغب بقتل نفسه.

لا يفهم كيف طرأت الفكرة على رأسه. كيف تذكّر الطائر القتيل في قفصهِ من فرط ما خبط بأضلاعه القضبان. كانت الصَّغيرة وقتها تضربُ رأسها بالجدار وتصيح لأنها لا تريد الذهاب إلى المدرسة. اقتربَ منها على مهلٍ، وأراح كفّيه على عينيها. خلال دقائق كانت قد كفت عن البكاء. كيف فعلتَ ذلك؟ سألتهُ زوجته، هزّ كتفيه حائرًا. حتى هو لا يدري.

كانت الصَّغيرة تخيفه، إنها تُظهر أعراضًا مُقلقة، وكل شيءٍ تقوله، تقريبًا، هو هراء. في إحدى المرات سألها ما أكثر شيءٍ تتمناه في الدنيا، فقالت إنّها تريد شيئين اثنين فقط؛ ألا تخاف منها الحيوانات، وأن تطير أعلى من ارتفاع البيت، لأن هذا هو ما توصّلت إلى تحقيقه إلى الآن، بمعونة من بودرة الأطفال التي هي في الحقيقة غُبار جنيّات. وفكّر بأنَّ عليهِ أن يفعل شيئًا قبل أن تكبر الصغيرة بكل تلك المخيّلة. لكنه طمأن نفسه بأنها بمجرد أن تبدأ تعليمها الابتدائي، ستصبح أكثر قدرة على رؤية الواقع، لأن المدارس مصمَّمة لقتل المخيلة، أو هكذا يفترض.

انتهت النزهة في الحديقة بسرعةٍ، عندما دخلت الطفلةُ في نوبةٍ بسبب الحمام الذي طار بعيدًا عنها، حملها قريبًا من صدره

وهو يُطبق على عينيها براحتِه، وسار بهدوء إلى البيت.

صباح الأمس، قالت الطفلة إنّها كانت تطيرُ في السَّماء طوال الليل مع جنيةٍ بحجم عُقلة الإصبع. كانت زوجته قد بدأت تضيقُ بتلك القصص، ولم يفهم أحدٌ من أين كانت تأتي بها.

لما حاولت الزوجة انتزاع الطفلةِ من سريرها شرعت في البكاء، وراحت ترفسُ الهواء، ثم توعّدت والديها بأنها ستغادر المنزل إلى الأبد.. وفي لحظةٍ ركضَت إلى مِنضدة الزّينة وتناولت علبة بودرة الأطفال ورشّت منها على رأسها وهي تردد أنّ «غبار الجنيات» هذا سوف يُعيد إليها القدرة على الطيران، وعندها ستخرج من تلك النافذة مثل كل الأطفال الذين لا يكبرون، ولن تُضطر للذهاب إلى المدرسة أبدًا.

في نهايةِ الأمر، ذهبت إلى المدرسة وقد ابيضَّ شعرُها، واحمرت عيناها من البكاء، ولم تهدأ إلا عندما سَمحت لها أمها بارتداء حذائها الأحمر البرّاق بدلًا من حِذاء الحضانة الأسود. حذاءٌ يفترض أن يعني شيئًا ما، في قصةٍ ما، لأنه اشتراه في عيد التطهير الماضي، من أحد الأكشاك التي تبيع تذكارات العالم القديم، مع دزينة من التنانير المكشكشة وأزياء الأميرات رديئة الصُّنع.

كان عليهِ أن يُوصِل الطِّفلة بنفسهِ، لأن زوجته لفّت عنقها بوشاحِها، وقد تضوَّعَت من جِلدها رائحة الدَّهان مُرخّي

العضلات. كانت قد عصبت رأسها أيضًا بقماشةٍ بيضاء، وتمدَّدت على أريكة غرفةِ الجلوس وهي تئنُّ مما لا يدري؛ رأسها؟ رقبتها؟ قلبها المكسور؟ إنها تفعلُ ذلك كلَّ صباح، كي تعاقبه، ففي نهاية الأمر، هو الذي سَمَحَ لتلك الكتب بأن تعتلي سريره، وتستحوذ على مكان امرأته، وأن تعضّها، ورغم كل المفاجآت السارة التي حدثت في الأيام الأخيرة، منذ شرع في قراءة زوربا، في كل مرة كان ينتزعها من المطبخ، أو غرفة الغسيل، لكي يمارسا الحُب، كانت ما تزال تشعر بالغيرة، خاصة بعد أن سمعته يردد أسماء نساءٍ في أحلامه. **من هي آنا كارنينا؟! ها!** سألته مرة إن كان يخونُها مع امرأة أخرى، وللحظة تساءل إن كان يفعل.

خُذ الصَّغيرة إلى الحضانة اليوم، فأنا لم أنم، لا أستطيع أن أنام مُرتاحة في سريرِ الطفلة، إنه صغير جدًا. كان يومئ مُهمهمًا، وهو يفتحُ علبة حبوب الإفطار ويسكبُ منها في إناءِ الصغيرة، وكانت الصغيرة تخبره بأن إناءها أصغر من إناء الدِّببة الثلاث جميعها، فتساءل بأيّ شيءٍ عساها تهذي؟ اختلس نظرة إلى زوجته، كانت قد وضعت ساعدها فوق عينيها المعصوبتين. أراد إخبارها بأنه لم ينم جيدًا بدورِه، لكنه لم يجرؤ.

6

سكرتير القِسم على حق.

لا يمكنك أن تقرأ زوربا في خمسة أيام. وإذا قرأته، فلن تعود الشخص نفسه أبدًا. ربما لا ينبغي للجميع أن يقرؤوا شيئًا كهذا؟ وربما يجب على النَّاس أن يستحقّوا الكتاب قبل أن ينالوا حق قراءته؟ ما بِه يتفوّه بالهرطقات! هل ارتدّ؟ يضع خطًا تحت أحد الأسطر ويدوّن بالقلم الرّصاص نوع المخالفة. يستجمع شجاعته ويقرّر أن يستمر على هذه الشاكلة، سطرًا بعد آخر، سوف يحمي سطح العالم من المعنى.

لديهِ عباراتٌ مخالفة بما يكفي لمنعِ الكِتاب، خدشٌ ومساسٌ وتجديف وكل صُنوف المحرّمات، ولكِن فكرة ألا يقرأ النّاس زوربا، لسببٍ غير مفهوم، تكسرُ قلبه.

.. يتذكّر سكرتير القسم، رقيب الكتب السّابق الذي أحبَّ الكتب وسقط في هاويةِ التأويل. لماذا كل هذه الخسائر، ولأجل أي شيء؟ لديك بيتٌ وزوجة وطفلة، هل تتمنى هذا الشيء لابنتك؟ أن

تتورّط في المعنى؟ نهضَ من مكانهِ وغادر القسم، سارَ حتى النّافذة في نهاية الممرِّ الرُّخامي، أطلَّ على الحديقةِ المجاورة. ما الدّاعي لوجودِ حديقةٍ هنا، إنها مرتعٌ لتكاثر الأرانب في هذا العالم. رأى أرنبًا أبيض. والأرنب أيضًا رآه، لأنه كفَّ فجأة عن مَضغِ العشب، وقف على قائمتينِ وأخذ يحدِّقُ في عينيه على نحوٍ خاص. عيناه دامِيتان، مروّعتان، وأذناه ببطانتهما الوبرية الوردية، وشعره الغزير. لماذا يشعر دائمًا بأن ثمة أرنب في انتظاره؟ أحسَّ بالدماء تتجمد في عروقه. ابتعد عن النّافذة وعادَ إلى المكتب. إنه لن يخونَ النظام، لن يرتدَّ مهما حصل، ولن يصبح سكرتير السكرتير بصدقةٍ من رئيس القسم. وبالتأكيد سيكون عليه أن يحمي الآخرين من قراءة هذا الكتاب الملعون. رجلٌ ماجن، يتسلل إلى أسرّة النساء بدافع الواجب، يلعن الزواج، لا يؤمن بالرّب ولا بالشيطان. كافر بالوطن، ومشكك في كل الأنظمة. اللعنة على زوربا.

أرنبٌ أبيض يدخلُ القِسم فجأة. يقترب من مكتبهِ ويقفُ على قائمتيه. الاختلاجات التي تنتابُ خطمه مع اهتزازات شواربه، والفراء النابت من الأذنينِ الطويلتين، وعيناه الزجاجيتان الحمراوان، القادرتان على تدويخِه على نحوٍ مروّع.. إنه لم يحبّ الأرانب في حياته، حتى عندما كان طفلًا. شتم، ضحك الرقباء. فأحسَّ بدمِه يفور، التقطَ مِمحاةً وقذفَ بها الأرنب، ولكن الحيوانَ تراجعَ خُطوةً إلى الخَلفِ فسقطت الممحاة أمامه مباشرة، ثم راح يتشمّمها، وعاد ينتصبُ على قائمتيه. نهض الرَّقيب الجديد من مكانهِ ليركلَ الأرنب، ولكنَّ الأرنب وثبَ حتى باب القسم. وفكّر

لحظتها بأنه إذا نجح في قتل أرنبٍ واحد فسوف تكفُّ الأرانب عن الظهور. وسيحصل على مرق الأرانب على العشاء.

سار وراءه، أخذ الأرنب يثبُ بسرعة، وصار بدورهِ يعدو ويشتم تعال إلى هنا! تعال! انعطف الأرنبُ يمينًا إلى أحد المكاتب. أين عساه اختفى؟ تسمّر الرَّقيب الجَديد في مكانه. يكاد لا يصدق ما يراه؛ كان قد وصل إلى مكتب السكرتير، ليجدَ العجوز جاثيًا على ركبةٍ واحدة، يدني من الأرنب ورقة خس، وكان الأرنبُ اللعين يأكلُ من يدِه.

لم يصدّق ما رآه، هذا الخائن، محبُّ الكتب، رقيب الكتب السابق الذي سقط في التأويل، إنه يطعم الأرانب!

- ماذا تريد؟

- أريد أن..

لم يستطع أن يكمل؛ أريد أن أصطاد هذا الأرنب. انتابه الخجل..

- لا تُطعم الأرانب، إنها تملأ الإدارة وتبعر في الممرات.

- لا يمكنك أن تمنعَ الأرانبَ من المجيء.

- ما الذي تقوله؟ طبعًا يمكنني ذلك.

- إنها ستظهر دائمًا، فهذا ما تفعله.

ولم يفهم، لماذا أحسَّ بأنَّ الكلام سهلٌ مع هذا العجوز. سأله: هل أعرفك؟

ضحك العجوز مجيبًا:

- ومن أين لي أن أعرف؟

من أين يأتيهِ هذا الشعور الغريب بأنه يعرفُ هذا الشيخ؟

- كم عمرك؟

- أنت تسأل أسئلة غريبة.

قال العجوز ثمَّ ربّت على رأس الأرنب، وانتصب واقفًا.

- هل قرأتَ زوربا؟

- ماذا تقصد؟ طبعًا قرأته.

- لم يصِلني التقرير..

- كنتُ أوشكُ على إتمامه عندما ظهرَ هذا الشيء..

كان الأرنب وقتها يثبُ خارج المكتب، يمضغُ نتفة الخسِّ في فمِه. بدا سعيدًا على نحوٍ غريب بالنسبة لحيوان، كأنه أتمَّ مهمته.

جلسَ السِّكرتير على سطحِ مكتبهِ وخلع نظارتيه، وراح يدعكُ عينيه. فكّر الرّقيب الجديد وقتها بأن الغضون على وجهِ هذا الشيخ أبديّة. سأله العجوز: وماذا وجدت؟

- ماذا تعني؟

- في زوربا..

- أوه! مساسٌ بالرَّب، خدشٌ للآداب العامة، تهديدُ النظام العام، كلّ شيء.

ضحك السكرتير.

- وهل أحببته؟

رفع العجوز حاجبه الأيسر فجأة. أحسَّ الرَّقيب بخفقةٍ غريبةٍ

في قلبه، وشعر بتشنجاتٍ مفاجئة في شفتيه.

- أنتَ تسأل أسئلة غريبة.

ثم أدار ظهره وخرجَ من المكتب. إنه لن يتحدّث مع هذا الخائن، سوف يجتذبه إِلى حَضيض القرّاء، ثمَّ ومن حيثُ لا يشعر، سوف يستيقظ يومًا ليجد نفسه وقد سقط في التَّأويل.. أيًا كان ما يعنيه ذلك!

القرار الإداري (1.3) للسنة الثانية

بعد الثورة

دليل رقيب الكتب إلى القراءة الصحيحة

1) الشيء هو هو، والكلمة تعني نفسها، ولكل كلمة معنى واحد فقط، هو المعنى المعتمد من قبل هيئة الرقابة.

2) العبرة في الملافظ والمباني، وليس في الأفكار والمعاني.

3) يبحث رقيب الكتب عن وحول ثلاث كلمات: «**الرّب**»، و«**الحكومة**»، و«**الجنس**». يفحص هذه الكلمات، والكلماتِ التي تحيطُ بها.

4) لا يسمح لرقيب الكتب أن يستغرق وقتًا أطول من المهلة الممنوحة له من قبل الرقيب الأول، إلا بطلب استثناء.

5) يمنع رقيب الكتب كل الكتب التي تتناول العلوم المحرّمة مثل الفلسفة، والسيميائيات، وعلم اللغة، والتأويل، وعلم الاجتماع، والكتب السياسية، وغيرها من العلوم غير

النافعة.

6) تمنع كتب التنجيم، والأبراج، وكتب الشعوذة والسحر، والكتب التي تتضمن معلومات ضارة بالعامة، مثل كيفية صناعة الحشيش والمسكِرات ونحوه.

7) تُمنع الكتب التي تحرّض على العنف ولو لم تقع جريمة.

8) تُمنع الكتب العلمية التي تذيع أبحاثًا لا تتوافق نتائجها مع نتائج أبحاث مختبرات الحكومة.

9) تُمنع الكتب التي تخالف المنطق السليم أو تكذب بشأن الواقع، مثل الكتب التي تجعل الحيوانات تتكلم، أو قطعة سجاد تطير، وتشيع الخرافات.

10) تمنع الدواوين الشعرية والروايات وكافة المصنفات الأدبية غير الملتزمة بمبادئ حزب الحركة الشعبية للواقعية الإيجابية.

أولًا: محظورات الرّب.

- يُمنع تداول الكتب المقدسة بين العامّة، إلا في صيغتها الميسرة المعتمدة من قِبل لجنة الرقابة الشرعية، كما تمنع كتب التفاسير، وكتب الصلوات والأدعية غير المعتمدة من لجنة الرقابة الشرعية.

- تُحال الكتب الدينية إلى لجنة الرقابة الشرعية للتحقق من توافقها مع العقيدة الصحيحة المعتمدة من الهيئة الشرعية العليا بعد صدور القرار الإداري (10.5) بشأن الإصلاحات الدينية.

- تُمنع الكتب التي تستخدم كلمات مجازية في سياق عقائدي مثل «ملاك» أو «جن» أو «عفريت»، أو «شيطان»، وغيرها.

- تُحال الكتب التي تستخدم ألفاظًا دينية في سياقاتٍ أدبية إلى لجنة الرقابة الشرعية في الهيئة لاعتماد صلاحيتها للتداول.

- تُمنع الكتب التي تتناول الغيبيات (الجنة، الجحيم، القيامة، التناسخ، الكارما، الروح).

ثانيًا: محظورات الحكومة

- تُمنع الكتب التي تزعزع النظام العام وتتعرّض للرموز السياسية والحزب والحكومة ورئيس الحكومة، أو تشكك في النظام السياسي والإداري للبلد، أو تهدد العملة المحلية، أو الوضع الاقتصادي.

- تُحال الكتب التي تتناول الشأن العام أو القضايا السياسية أو الذات الرئاسية، بما لا يتعارض مع مصلحة النظام، قبل إجازتها إلى مقر القيادة الحزبية للتثبت من صلاحيتها للتداول.

- يمنع رقيب الكتب أي كتاب يتضمن كلمات مثل: ديموقراطية، برلمان، انترنت، ثورة معلوماتية، تويتر، فيسبوك، تطبيق ذكي، كمبيوتر، تداول سلمي للسلطة، صندوق انتخاب، اقتراع، تصويت، اعتصام، مظاهرات، مسيرة، مقاومة سلمية، إصلاح سياسي، انقلاب، السلطة، العسكر، فساد، اختلاسات، ونحوها من المفردات التي تنتمي إلى العالم القديم.

- تُمنع كتب التاريخ التي تتناول العالم القديم وفترات ما قبل الثورة.

- تُمنع كتب التاريخ التي تتناول تاريخ الحركة الشعبية

للواقعية الإيجابية إلا الصادرة من هيئة الرقابة.

ثالثًا: الجنس

- تُمنع الكتب التي تستخدم كلمات تثير الغرائز وتدعو للفاحشة أو تستخدم ألفاظًا خادشة للحياء العام مثل «قُبلة»، أو «نهد» أو «فخذ» وغيرها من أجزاء الجسد على نحوٍ غير لائق.

- تمنع الكتب التي تتحدث عن الغلمان والشذوذ الجنسي والعلاقات غير الشرعية، كما تمنع الكتب التي تتعرض للعلاقات الجنسية إلا في شكلها المعتمد من قبل الحكومة، وهو الزواج بين ذكر وأنثى.

7

.. ولكن، عليهِ أن يعترف لنفسه على الأقل، أنَّ أشياء كثيرة تغيرت في حياتهِ منذ ذلك الكتاب. أشياء لا يجرؤ على ذِكرها أمام أحد، فآخر شيءٍ يحتاجه رقيب الكتبِ هو أن يعترف بفضائلِ خصمه. ولكن، لماذا صار للخبز طعم الخبز، ولماذا صار الهواء حلوًا هكذا؟ لقد خرجت الأشياء من كُمونِها. إنها على الأرجح واحدةٌ من حِيل الخصم لاستدراجه، وهذا الشيء يحدث، بحسب خبرته المتواضعة، عندما ينقلبُ سطح العالم على قفاه.

في اليومِ الذي قرأ فيه «**عليَّ أن أملأ روحي بالجسد**»، انتزع زوجته من المطبخ وحمَلها إلى سريره، وأخذ يمرّرُ راحته على كلّ شبرٍ منها، وكأنه يعيد اكتشافه. لا، لم يكن يعيد اكتشافَ العالم، كان يخلُقُه. وتساءل لحظتها إن كان هذا ما شعر به الإنسان الأوّل، عندما تعرّف إلى هذه الإسفنجة العظيمة التي يسمونها اللُّغة.

كان يعرفُ أنَّ زوربا حيوانٌ داعر، لكنَّه لم يفهم لماذا كان

قادرًا على أن يحبَّ هذا الحيوان. ذكّر نفسهُ بكل خطايا الرجل التي لا تُغتفر، كان قادرًا على كرهه أحيانًا، لكنه ما يلبث أن يعود مَكسورًا إلى محبّته، لأنه، رغم كل شيء، كان صعلوكًا ونبيلًا في الوقت نفسه. يلعبُ زوربا معه لعبة المطاردة، كلما ألصقَ به صفة كان يعود وينقضها. وكلما وضعه على رفٍ شاغبهُ وقفز إلى رفٍ آخر. وفكّر بأن هذه أيضًا من حِيل الخصم. ولكن كيف يسعه أن يطلق على الرجل حكمًا نهائيًا وهو بهذا التحوّل المستمر؟

كانت الأسطر تلتصق بذاكرتهِ، كأنها دبقٌ أو ما شابه. لقد كان قادرًا في أحيانٍ كثيرة، على أن يسترجع فقراتٍ كاملة، وكأنّه قرأ الكتاب طوال عمره. ثمَّ، كيف يفسِّر أن العالم أصبح جديدًا أمام عينيه، وأنه بات يعيد تسمية الأشياء؟ قبل زوربا، كانت الأشجار في الشوارع بلا أسماء، ولكنه راح يخترع لها الأسماء التي تعلمها في الكتاب. أشجار التين البري، والطرفاء، وأجمة القصب، ونباتات آذان الدب. يُعيد العالمُ خلقَ نفسِهِ أمامه، كما لو أنَّ الانفجار العظيم قد حَدَثَ للتوّ، وعليهِ أن يكون الإنسانَ الأول، الذي يكتشفُ أسماءَ الأشياء. لولا أنه يعرف بأن الحكومة قد أنجزت هذه المهمة منذ زمنٍ طويل. وأنّهُ عالقٌ في حلقِ كلمةٍ لن تقوله، ولن يقولها أبدًا.

في الأيام الأخيرة، ظهرت عليه أعراض المرض بوضوح. صار يجد نفسه مجذوبًا إلى كتبٍ بعينها. ينشلها من الأكياسِ والعُلبِ المرصوصةِ بمحاذاة جُدران الممرات في الهيئة، يركضُ بها إلى سيارته ويعود بها إلى البيت. كتبٌ يحسُّ بأنه معنيٌ

بقراءتها على نحوٍ خاص. كتبٌ تريده هو. تناديه. ماذا لو أوكلوا المهمة لرقيبٍ آخر؟ لا، هذه الكتب اختارته، ملأت خزائنه وسريره وطردت زوجته خارجًا. لقد تحققت معه نبوءة الكتاب؛ فقد أصبح شخصًا آخر.

قرأ في الكتابِ بأن زوربا قد «كسَرَ صَدفةَ الحَياة»، ودخلَ مُباشرةً إلى جوهرها. وخطر له أن أشياء كثيرة تفوته بسبب وجوده على سطح العالم. الأسوأ كان هو الأسطر التي تتحدث عن القاع. «**متى ستُفتحُ آذان الناس، أيَّها الرئيس؟ متى ستُفتح أعيننا كي نرى؟**» لكنه لم يكن متأكدًا مما رآه، فتحتَ القشرةِ الرَّقيقة من اللغةِ المتورطة في المساس والخدش والتجديف وقلب الأنظمة ومتوالية من الاتهامات، كان ثمة عالم طريٌ، وكان يتوقُ إلى لمسِه.

إنه يعرفُ بأن الكتاب يمتلئ بالسُّموم، وأن عليهِ أن يحافظ على العالم مُعقَّمًا من الأفكار الدَّخيلة. أن الأمر هو بالضبط كما قرأ؛ «**مياه مقطَّرة.. دون جراثيم، ولكنها أيضًا دون حياة**». وفي تلك اللحظة لم يعد يعرفُ ما الذي ينبغي عليهِ أن يفعله. هل يجيزُ كتابًا مليئًا بالجراثيم والفيتامينات، أم يترك البشرية تموت من العَطش؟

ولكن من عساهُ سيشعرُ بغيابِ كتابٍ كهذا، فمن لا يأكل لا يجوع، وعليهِ أن يَضمَن تحقُّق ذلك. ألا يجوع أحدٌ إلى الكتب. عليه أن يملأ المكتبات بالهراء، لكي يسدَّ شهية الجميع إلى القراءة. هذا

ما توصّل إلى فهمه متأخرًا؛ إنهم لا يحاربون الكتب، بقدر ما يحاربون القراءة. القراءة عادة سيئة، لكنك لا تستطيع أن تمنع الناس منها، مثلما أنك لا تستطيع أن تمنعهم من التدخين والجنس، وكل ما يسعك فعله هو أن تقنّن الخيارات المتاحة؛ توهمهم بأن ما يوضع لهم على الطاولة، هو الخيار الوحيد المتاح. سوف يعزفون عن الكتب تلقائيًا، ولن يضطر هو وبقية الرُّقباء، في المستقبلِ، إلى منع الكتب، لأن أحدًا لن يقرأها. كان قادرًا على رؤية مستقبل البشرية من بلورة كريستالية موجودة داخل رأسه.

نعم، يجب أن يُمنع الكتاب. إذ كيف يضعُ كِتابًا كهذا في يدِ المجتمع؟ كتابٌ يسخرُ من كلِّ الأشياء التي تجب علينا حمايتها. ماذا لو قرأ شخصٌ هذا الكتاب ثم شرع بالتجديف بالرّب في السماء، أو أصبح معارضًا للحكومة، وراح يردد مثل زوربا «**لستُ وطنيًا، ولن أكون، مهما كلفني الأمر!**». ماذا سيحدث لمؤسسات الدولة إذا انتشرت فكرة كهذه؛ الجيش، الشُّرطة، الحَرس الخاص، وقنوات الإِعلام..؟ ماذا لو امتلأت الميادين بالمتظاهرين؟ وقامت ثورة ضد الثورة، ومات المزيد من الناس في الشوارع؟. أو ماذا لو صدّق كل رجلٍ يقرأ هذا الكتاب ما قاله زوربا بأن الخطيئة، كل الخطيئة، هي أن تنام امرأة وحيدة، وامتلأ العالم بأبناء الزنا؟

ومع ذلك، شيءٌ واحد فقط حيّره. سطرٌ واحد بدا له أنه يغفرُ لزوربا جميع خطاياه؛ «**كتبك تلك أبصقُ عليها! فليس كل ما هو موجود، موجودٌ في كتبك**». كيف يسعه أن يمنع كتابًا يبصقُ على

الكُتب؟ هذه المخلوقات الشريرة التي تطردهُ خارج العالم الذي يعرفه حيث لا يعود الشيء هو هو لقد تعِب، وأحسَّ على نحوٍ غامض بأن أحدًا لا يفهمه. لا زوجته، ولا الرُّقباء الآخرون. وحده زوربا يفهمه، وحده يعرفُ ما يمكن للكتبِ أن تفعله. أحسَّ أنه مدينٌ له بهذا القدر. لقد اتفقا معًا على أنَّ الكتب ملعونة. وإذا كان لقاؤهما مستحيلًا خارج صفحاتِ كتاب، فهذا لا يجعل الأمر أقل سوءًا. هذا كتابٌ ملعون، ولكنّه على الأقل كتابٌ يلعنُ نفسه بنفسه.

كان قد أنجز تقريره، مدوّنًا ملاحظاته حتى آخر سطرٍ مخالفٍ من الرِّواية. وقد خُيّل إليه أحيانًا بأن السَّماء سوفَ تقع على رأسِهِ من هَوْلِ ما يقرأ. لكنه بعد أن انتهى، سرحَ ينظرُ إلى الجدارِ أمامه. إلى جدول المهام المرسومِ على الحائط. قريبًا سوفَ يَمحي الرقيب الأول اسم زوربا من خانةِ الكتب «قيد الفحص». أحسَّ أنه يفارقُ قطعةً من روحه. كان حزينًا، مثل رجلٍ يلوّحُ في الميناء لصديقه الذي يغادره إلى النصف الآخر من الكرة الأرضية، وتساءل إن كان يمكنه، بين حينٍ وآخر، أن يختلس نظرة أخرى لتلك الصفحات، لكي يرى الجزيرة ويشمَّ البحر. فهو، في نهاية الأمر، مجرد رقيب كتبٍ وحيد في هذا العالم.

التقط القلم ثانية وأضاف سطرًا أخيرًا على تقريره:

«رغم أنَّ الكتاب يتضمَّن الكثير من الأسطر المخالفة، إلا أنه في الحقيقة كتابٌ يحتقرُ الكتب، ويُمعن في التقليل مِنها، وأعتقدُ بأنه، من هذه الناحية، يصبُّ في مصلحةِ النظام، وعليهِ فإننا

نوصي بإجازةِ الكتاب، وِفقَ ما تقتضيه المصلحة العامة».

8

كل البيوت متشابهة، إنها مُكعَّبة، بيض، بنوافذ صغيرة متراصّة. الشوارع ضيقة، وفي هذه الساعة المبكرة من اليوم، كانت الطرق تختنق بسياراتٍ رماديةٍ صغيرة، يقودُها أشخاصٌ مثله؛ يرتدون البنطال الكاكي، والقميص البيج.

كان قادرًا على رؤية انعكاسٍ غريبٍ له في كلِّ شخصٍ يراه، ومع ذلك، كان يشعرُ بوحدةٍ غير مفهومة. وكأنَّ أحدًا من ملايين النُّسخِ البشريّة الموجودةِ في العالم، لا يشبهه. وتساءلَ إن كان ما يزال واقفًا على سطحِ العالم، قابضًا على رُمحهِ، متوثبًا لإطلاقه على أرنب أبيض. أم أنه، كما يشعرُ في أعماقه، قد تعبَ فعلًا، وكل ما يريده هو أن يجلس قليلًا، ويأسف لغياب زوربا. كان متعبًا إلى حدّ أنه لم يتدخّل لمنعِ ابنته من أن تقيم حوارًا افتراضيًا مع قطٍ سائب، تزعم أنها رأته يعبر الشارع عندما كانت الإشارة حمراء، وأنه ذاهبٌ إلى السوق لشراء زوجٍ من الأحذية.

يقوم واجبه، كأبٍ صالح، على إعادة الطِّفلةِ إلى جادّةِ

الحقيقة؛ «**إلى ما يمكن البرهنة عليهِ في المختبر**»، على حد تعبير الرّقيب الأول. إذ يولد كل طفلٍ جديد بشيء من مُخلّفات العالم القديم. أشياء عالقة في ذاكرة البشرية منذ آلاف السنين، تنتمي إلى عوالم بائدة وحضارات أخفقت في التصدي للزمن. قصص وخرافات وأوهام. تُخصِّصُ هيئة التوجيه والإرشاد ميزانية طائلة كل سنة لحملاتٍ توعوية من قبيل: **هل يعاني طفلك من المخيّلة؟ لا تتردَّد في طلب المساعدة. لا تتركهم يعانون. أنت لست وحدك، نحن معك.** رسائل يحفظها جيدًا، يؤمنُ بها حتى، ويعرفُ بأن ابنته تبدو متأخرة بالنسبة لأقرانِها، ولكنَّهُ اليوم متعَب. في آخر مرّةٍ أخذ فيها ابنته إلى المستوصف لأخذ لقاحاتها، كان يرى لوحاتٍ إعلانية عن مشاكل التبوّل اللا إرادي، وصورة لطفلٍ يبدو في الرابعة من عمره، وحيدٍ في غرفته مع وحوش كبيرة من صنعهِ تحاول افتراسه، ويبدو خائفًا جدًا. **تضخّم المخيّلة ليست مشكلة بلا علاج.** ورقم الخط الساخن الذي يفترض به الاتصال به للإبلاغ عن حالةِ الطفلة. في إحدى المواد الإعلانية كانت هناك قائمة بالأعراض التي يتبيّن فيها الوالدين إصابة الطفل من عدمِها؛ **كوابيس أو أحلام حادة الوضوح. أصدقاء افتراضيون. قصصٌ لا يُعرف مصدرها..** لم يكن بحاجة لأن يقرأ أكثر.

عندما وصلَ إلى مبنى المدرسة، أحسَّ بأنه يراه للمرة الأولى، رغم أنه كان كما عرفه دائمًا. بناءٌ مربع، يشبه كل بناءٍ في المدينة. لقد سَمحوا للحضانات ورياض الأطفال بأن تطلي جدرانها بالأصفر الباهت، ولكن مع التعليم الابتدائي سوف تتغير الأمور،

سوف تصبح الواجهات كاكية، وسيبدأ الطلبة في تعلّم المبادئ الإيجابية الواقعية، وسيأخذ شكل العالم صبغتهُ المنطقية.

الوجود الإنساني شقاء.

أصل الشقاء هو الرغبة.

أصل الرغبة هو المخيّلة.

ثلاثة مبادئ بسيطة طالما بدت له قادرةً على تفسير كل شيء. فقد اكتشف المؤسسون الأوائل، بعد سقوط الديموقراطيات، وتقنين

لا تترك طفلك
يعاني وحيداً
لا تقلق
الخيال
عند الأطفال
مشكلة لها
حل !
كائنات
خرافية
الأمير الصغير
الحملة الوطنية لمكافحة الخيال عند الأطفال

التقنية، والثورة ضد الثورة المعلوماتية، ودراسة مستفيضة لتاريخ الحضارات البائدة؛ أن الطريقة الوحيدة لصناعة مدينة سعيدة، هي بتفريغ سكّانها من رغباتهم، إلا تلك الضرورية لاستمرار النّوع. قرَّروا أن المخيّلة هي سبب كل ما حدث؛ كل قطرة دمٍ أريقت، كل إضراب، كل أداة تعذيب، كل اختراعٍ بشري بلا طائل، كل الأفلام الإباحية وأفلام الشذوذ الجنسي، كلٍ الأمراض النفسية والعصبية، وكل علاقة زوجية فاشلة. إنَّ كل فكرة تعيسة لاحقها إنسانٌ ما في لحظةٍ من حياته، كانت في الحقيقة إفرازًا لا داعي له من مخيّلته.

وعليه فقد أصبح هدف النظام، منذ ذلك الحين، هو خلق إنسان قادرٍ على العودة إلى بيته، بعد يومٍ طويل من العمل، غير راغبٍ إلا بالعودة إلى بيته. كانت تلك هي ذروة الكمال الإنساني. شيءٌ فشل في تحقيقه على مستوى شخصي، فهو يعود إلى بيته كل ليلة، تنهشهُ الرغبة بقراءة الروايات. كيف يفترض بمدمنٍ ضعيف الإرادة مثله أن يبرع في تنشئة طفلة؟

نظر الرقيب الجديد إلى طفلته، بدت مثل مخلوقٍ بدائي عاجز عن المواكبة. فهي بمجرد أن لمحت واجهة الحضانة حتّى تكوّرت على نفسها في الكرسيّ الخلفي وبدأت في البكاء. وعندما شرعت في الصُّراخ والرَّفس، أطبق على عينيها براحته وحملها على كتفهِ ليسلّمها للمشرفة الواقفة على مدخل الحضانة. كانت الطفلة تواصل الرفس وهي تناديه؛ بابا! أنقذني! كأنّها في طريقها إلى الجحيم، رغم أنه يعرف، مثل جميع سكان البلاد، بأن الجحيم

غير موجود.

9

بمجرد أن وصلَ الرَّقيبُ الجديدُ إلى القِسم، وقبل أن يجلس إلى مكتبهِ حتى، أبلغه الرّقيبُ الأوّل بأن رئيسَ القِسمِ قد سأل عنه. قالها وهو يزمُّ شفتيهِ معاتبًا، فعرف بأن الأمر يتعلق بالتَّوصية التي أرفقها في نهاية تقريره. رنَّ هاتفُ الرَّقيب الأوَّل: نعم، لقد وصلَ للتوّ، حاضِر. أومأ له للذهابِ إلى مكتبِ الرئيس. كان بقية الرقباء يهزون رؤوسهم أسفًا على شبابه الذي ضاع، وكأنه محكومٌ بالإعدام في طريقه إلى المقصلة، على عربةٍ خشبية تسوقها جيادٌ مريضة، مليئة بالمحكومين بالنّفي من سطحِ العالم. كانت نظراتهم تلاحقهُ، حتى أنه تعمَّد أن يُسقط قلمًا، لينحني ويلتقطه، ويرى تلك النظرات تنزلُ إلى الأرضِ معه. تنحنحَ الرّقيب الأول، فعاد الرقباء السَّبعةُ إلى التنقيبِ عن المخالفات، في الكتب المشرّعة على سُطوح المكاتبِ أمامهم. مثبّتة بالأيدي، مثل أرانب دُقّت أطرافها بالمسامير، وفُتحت بطونها، من أجل درس التشريح. عندما تذكّر الأرانب لمح بعرةً في الممرِّ الرُّخامي الذي يأخذه إلى مكتب السِّكرتير، ثم وجد نفسه واقفًا أمامه.

فزَّ العجوزُ من مقعدهِ بمجرد أن رآه وهمس؛ «ما هذا الذي فعلته؟ هل جُننت؟!» ولم يدرِ وقتها بماذا يرد. كان يشعر بجفافٍ في حلقه. لا بدَّ وأن هذه هي اللحظات الأخيرة في مسيرته العملية التي ابتدأت للتو. تجاسر وسأل: «هل الأمر فعلًا بهذا السوء؟» خلع العجوز نظارتيهِ ومسح العدسة بطرفِ قميصه. «لا أدري». ثم رفع إليه عينيه وارتسم على شفتيه طيف ابتسامة. لا يمكنك أن تُجيز كتابًا سبق منعه ثلاث مرات، في المرة القادمة، إذا أردتَ أن تُجيزَ كتابًا..

وقبل أن يُتم السِّكرتير كلامه، كان باب مكتب رئيس القسم قد فُتح. سعُل السِّكرتير، وقد احمرَّ وجهه فجأة. كان رئيس القسم ينظرُ إلى الرَّقيب الجديد متفحّصًا. بدا في الخامسة والأربعين، بملامح وسيمة لا تخلو من خشونة، له شاربان أسودان كثّان، عينان سوداوان، وبشرة لوحتها الشمس. شيءٌ ما في ذلك الوجه جعل الرَّقيب الجديد يبتلعُ ريقه، العينان. فكّر الرقيب الجديد، العينُ بعينِها.

سأله رئيس القسم:

- أنت الرّقيب الجديد؟

- نعم.

أومأ له رئيس القسم للدخول، ولم يفهم لماذا شعر بحاجةٍ

غريبة إلى تأدية التَّحية العسكرية. خاصَّة مع ذلك المعطف الكاكي الذي أبرز امتلاء كتفيه، ضاغطًا على عضلات زنديه العظيمين، وصدره الشاسع.

تسمّر الرّقيب الجديد في مكانه مأخوذًا بالمكتبةِ التي تمتدُّ من الجدار إلى الجدار. حبسَ أنفاسه، تمنّى أن يشهَق، لكنَّه لم يجرؤ. كانت مكتبةً من الخشبِ الصّلب، مع سلّمٍ خشبيٍ بعجلات، امتلأت بكل الكتبِ التي رغبَ سرًا بقراءتها، حتى كاد قلبه ينخلع من مكانه. سأله رئيس القسم:

- هل تعجبك المكتبة؟

- إنها ضخمة..

رد باقتضاب. لأنك لا تستطيع أن تمتدح جمال مكتبة في هيئة رقابة الكتب وإلا دُمغتَ بانخفاض منسوب الولاء. ابتسم الرئيس، أردف:

- ثلاثون سنة من العملِ في رقابة الكتب، إنها أهم إنجازاتي.

- هل قرأت كلَّ هذه الكتب؟

- ومنعتُها أيضًا.

فغرَ الرقيب الجديد فاه:

- كلّ هذه كتبٌ ممنوعة؟

مطَّ رئيس القسم شفتيه:

- إنها لم تعد كتبًا طالما أنها لا تُقرأ.. لقد حوّلتُها إلى تذكارات.

وجد الفِكرة مخيفة. مثل صيادٍ يجمع رؤوس الغزلان ويثبّتها على جدران بيتِه. إنها ليست مكتبة، بقدر ما هي مقبرة، وهي موجودة لغرض التباهي، وإثارة الرُّعب في قلوب الرقباء المبتدئين أمثاله.

فتح رئيس القسم أحد الأدراج واستخرج منه حزمة أوراق، ميّزَ فيها الرَّقيبُ الجديدُ التَّقرير الذي كتبه. «عملك يتميز بالدقة، هذا أمرٌ جيد». قال رئيس القسم. «أنت لم تفوّت سَطرًا واحدًا هنا..»، ثم نظر إليه بطرفِ عينه، محاولًا أن يبتسم، فانتهى به الأمر إلى تكشيرةٍ غريبة ليس لها معنى. أحس الرقيب الجديد بالثقة تعاوِده. وشعر بأنه عاد يلتقط أنفاسه براحةٍ لأول مرة منذ الصباح. «أشكرك على جهدك الواضح». تلعثم الرقيب الجديد؛ «آه، حقًا.. لا داعي، هذا.. واجبي!».

أردف رئيس القسم: «أعتقدُ بأن لك مستقبلًا حقيقيًا هنا»، ولم يكن الرقيب الجديد ليصدق ما يسمع. مستقبل حقيقي؟ ما معنى هذا؟ ترقية مثلًا، أن يصير كبير رقباء، أو.. من يدري، مفتّشًا على المكتبات؟ راتبٌ أعلى، حصة أكبر من الكهرباء، لكي يقرأ ليلًا؟ كان

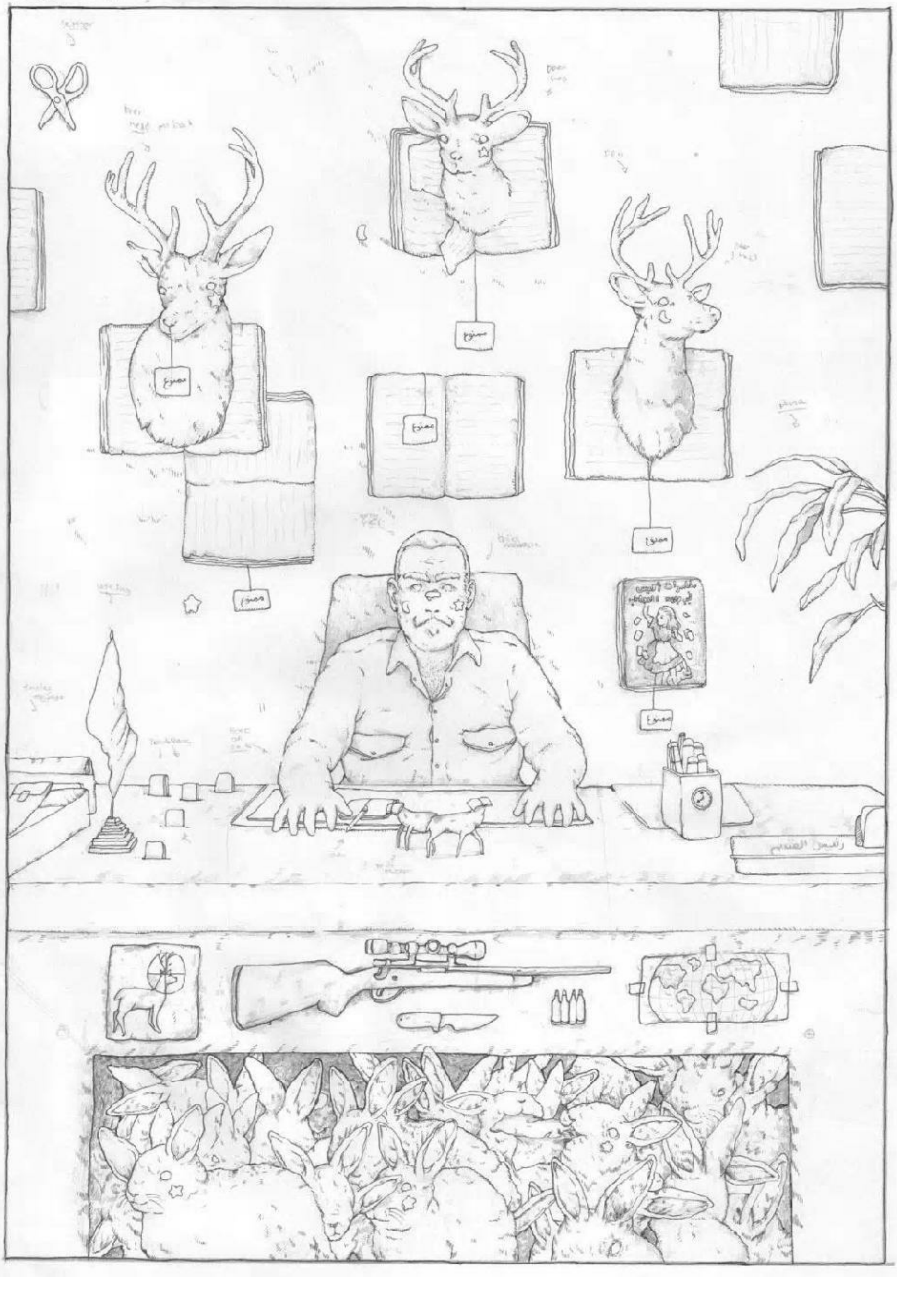

ممنوع
ممنوع
ممنوع
ممنوع
ممنوع
ممنوع
ممنوع

على وشكِ أن يستطرد في أحلام يقظته عندما سأله رئيس القسم:

- هل أنت مرتاحٌ في عملك؟

- آه.. نعم.. نعـ ..

- هل ثمة ما يزعجك؟

- حسنًا، إنها الأرانب.

ابتسم رئيس القسم، أو هكذا كان يفترض أن يحدث. اعتلت وجهه تلك التكشيرة ثانية. زمّ فمه وهو ينظرُ عميقًا في عينيه.

- إنها من الأعراض الجانبية للعمل هنا.

أومأ الرقيب الجديد.

- نعم..

وهو يشعر بشيءٍ من الخيبة.

- ولكن بشأن التوصية..

- نعم.

- لقد أوصيتَ بإجازة الكتاب.

- نعم..

- لقد كنتَ تفكر بما فيه صالح النظام، إنني أفهم ذلك، ولكن..

طأطأ الرّقيب الجديد. زفرَ:

- كان عليَّ ألا أفكّر.

- بالضبط.

- يجب على رقيب الكتب ألا يسقط في التأويل.

- نعم.

- وأنتَ.. أنتَ أفرطت في التأويل.

أحسَّ بحرارةٍ مفاجئة تجتاحُ وجنتيه. وبدأت راحتاه في التعرّق. تمنى لو أنه يستطيع أن يمسحَ نفسه من سطح العالم في

تلك اللحظة. كان صغيرًا وتافهًا، أمام كلمات الرئيس، وتلك الابتسامة الغريبة التي علت وجهه، ابتسامة ساخرة تحاكِمُ فشله، ليس بصفته رقيبًا، بل بصفته قارئًا حتى.

إنه لم يسمع بجريمة «التأويل» قبل تعيينه رقيبًا، ولم يفهم قطُّ ما تنطوي عليهِ تلك الجريمة حقًا. ثمّ، عندما سأل الرَّقيب الأول، قال بأنَّ التأويل في حقيقتهِ لعبة من العالم القديم، حين اعتقد القرّاء أنهم شركاء للنُّصوص في خلق المعنى. ولكنَّنا غير مضطرين للتعامل مع مُشكلة من هذا النوع، لأن المعنى الوحيد لحياتك هو ذاك الذي تمنحه لك الحكومة.. إن واجبنا، كرقباء على الكتب، هو أن نسدَّ منافذ التأويل.

قاطع أفكاره صوت رئيس القسم يخبره:

- التأويل من اختصاص السُلطة.

- مفهوم.

ردّ بسرعة، رغم أنه فوجئ بما سمع، إلا أن الأمر منطقيٌ تمامًا. لكنه لم يفكّر بذلك من قبل. كان يعتقدُ بأن التأويل جَريمة. اليوم عرف بأنها مسألة اختصاصات. وعلى جهةٍ ما أن تضطلع بتلك المهمة، ولكن حتمًا ليس هو، القارئ الغرير.

10

جلسَ مُتخشِّبًا طيلة اليوم، عاجزًا عن القراءة. حاولَ أن يُلقي نظرة على الكتب الموضوعةِ على سطحِ المكتب، لكنه لم يرغب بقراءة أيٍ منها. وتساءل لماذا لا يُعطونه رواية أخرى، ففي نهاية الأمر، الكلُّ يعرفُ بأنه قد كتب تقريرًا ممتازًا، لولا التَّوْصية الأخيرة.

ما الذي قاله رئيس القسم؟

«**لقد أفرطتَ في التأويل**».

كان يضحكُ عليه، فحتى لو أردتَ أن تسقُطَ في الجرم المشهود، ينبغي عليك ألا تبالغ في الأمر. أحسَّ بأن الأمر يجرحه على نحوٍ خاص، أنه كان أخرق تمامًا عندما عبّر عن رأيهِ. وكان الأفضل لو أنه كتب ببساطة؛ نعم، زوربا هذا ابن حرام، ولكنني أحبه ولا أريد أن يُمنع. أراح رأسهُ على سطح المكتب وهو يسترجع لقاءه مع الرئيس. فكّر في تلك المكتبة الهائلة، المصنوعة من الخشب الداكن؛ مقبرة الكتب الممنوعة، رؤوس الغزلان المثبتة

على جُدران غرفةِ الصياد. وفكّر لحظتها؛ إذا كان رئيس القسم يحتفظ بجثث ضحاياه، فلماذا لا يستطيع الاحتفاظ بنسختهِ من زوربا؟ إنه يفتقده بشدة، يشعر بأنه خسر صديقًا، ويكاد يسمع هدير الموج، وحفيف العشبِ، ونداءات العجوز صاحبة النزل في الرّواية، بتلك الشامة على وجنتها، المغطاة بالشّعر مثل.. مثل ماذا؟ مثل وبر خنزير. لقد تبسّمَ مليًا وهو يقرأ تلك الاستعارة وتظاهر لاحقًا بأن الأمر لم يعجبه، لأنه ليس من الأخلاق في شيءٍ أن تسخر من شامات العجائز. ولكن أين هو زوربا؟ أغمض عينيه، وسرعان ما وجد نفسه في الجزيرة، يتربع أمامه رجل يشبه السندباد البحري ويخبره: «**أنت شخصٌ جيد، لا شيء يعوزك، لا شيء سوى أمر واحد؛ الحماقة**»، ثم لكزه في كتفهِ فاستيقظ هلعًا، رفع رأسه فإذا بالرُّقباء يتضاحكون. كان خيطٌ من ريق يسيل من زاوية فمه ويلطخ سطح المكتب. كم مرَّ عليه من الوقت وهو نائم؟ اللطخة الحمراء في خده، والألم الفظيع في مؤخرة عنقه. كأنه قضى ليلة بطولِها. التفتَ إلى الرقيب الأول. ابتسم الآخر ساخرًا، وأردف:

- صباح الخير!

- أنا.. لم أنتبهِ، إنني..

- ما الذي قاله رئيس القسم؟

انتبه لحظتها أن الفضول يكاد يقتلهم لمعرفة ما حدث. تنحنح وأردف؛ قال بأنه تقرير ممتاز. وقد ارتسمت على فمه ابتسامة متباهية. حدّق الرقباء السبعة فيه بارتياب، ليس هذا ما توقعوا سماعه. شبك أصابعه وراء رأسه، وأمال ظهره إلى الوراء مُطقطقًا عظامه. أضاف بحبور:

- قال إنّ لي مستقبلًا حقيقيًّا هنا.

- الرئيس قال ذلك؟

- نعم..

- هذا جيّد.

تلعثمَ الرقيب الأول، وافتعل الرُّقباء السبعة ابتسامة مجاملة. قبل أن تطول المحادثة أكثر، نهض من مكانه وخرج يذرع الممرّ الهزيل، وهو يشتمُ البعراتِ التي تركتها الأرانب بطول الطريق، من مكتب الرُّقباء إلى مكتب السّكرتير. لديهِ شيء يقوله لهذا الرَّجل الغريب، الرَّجل القديم الذي تلاحقه الأرانب.

عندما وقفَ على مدخل الغرفة، فوجئ بحركةٍ غريبةٍ في يدِ السكرتير أسفل سطح المكتب. كان قد وجهه قد احمرَّ مرة ثانية.

إنهُ يعرفُ هذا الصوت، ولا يمكن أن يخطئه؛ لقد كان صوتَ إغلاق كتاب.

سرّهُ الأمر، في وسعه الآن أن يبتزَّ العجوز ويهدّد بفضحه. لقد وقَّعَ تعهدًا بألا يقرأ، وها هو يقرأ في الخفاء. اللعنة على هذا الخائن. باغته بسؤاله: ماذا تقرأ؟ لا شيء. أين الرئيس؟ لقد غادَر. لقد كنتَ تقرأ خلسة. وبدلا من أن يرتبك العجوز نظر إليه بطرف عينه وابتسم؛ وماذا ستفعل بهذا الشأن؟ تساءل لحظتها لماذا لا يبدو الوغد خائفًا.

- ربما أبلغ الرئيس..

- لن تفعل ذلك.

- وما الذي يمنعني؟

- القارئ لا يخون قارئًا مثله.

احمرَّ وجهُ الرّقيب الجديد؛ ما هذه الهرطقة؟ غمزه السكرتير؛ نحن القرّاء نفهم بعضنا. أراد أن يقول: أنا لستُ قارئًا. وهو ما يعني أيضًا؛ أنا لستُ خائنًا. لكن لسانه ثقل فجأة. همهم: إنك خرِف. ما الذي تريده الآن؟ أريد الرواية. أية رواية؟ زوربا! أريد النسخة التي فحصتُها. رفع العجوز حاجبيه الأشيبين. افترَّ

ثغرهُ يبتسم.

- لماذا؟

- أريد الاحتفاظ بها. أنا الذي فحصها ويحقُّ لي..

هزَّ العجوز رأسه:

- لا يحق لك شيء، إنها ملكٌ للحكومة.

- ولكن رئيس القسم.. تلك المكتبة، كل تلك الكتب..

ابتسم السكرتير: نعم، إنها مكتبة رائعة. لم يجتهد لإخفاء غيرته: أريد مكتبة خاصَّة بي أنا أيضًا. هذا غير ممكن. إذا لم تُعد إليّ كتابي سأفضحك وسيتم فصلك. حدّق العجوزُ في عينيه:

- لن تجرؤ.

بادلهُ الرّقيب التحديق:

- جرّبني!

ولما تأكد العجوز من جدّية التهديد، تنهّد عميقًا، خلع نظارتيه، دعك عينيه وهو يهزُّ رأسه آسفًا.

- عُد إلى مكتبك الآن، سأرى ما يمكنني فعله.

- ليس قبل أن أعرف..

- تعرف ماذا؟

- ماذا الذي كنت تقرأه؟

ضحك العجوز، أخرج الكتاب الذي يخفيه من تحت المنضدة..

الفصل الثاني

إِلى بلادِ العَجائِب

1

إمّا أنّ الحُلمَ كان شديدَ العُمق، أو أنَّ رقيبَ الكتبِ كان يسقط ببطءٍ شديد. انتبه أثناء سقوطِه أنَّ لديه ما يكفي من الوقت لينظرَ حولهُ ويتساءل عمّا يحدث، وتفحّص جُدران الحُلم، ولاحظ أنها مكسوّةٌ برفوفِ الكتب. أوَليسَت لهذه السَّقطة من نهاية على الإطلاق؟ وفكّر بأنه على مقربةٍ من مركز الأرض، وأنه سيعبرُ قريبًا إلى نصفِ الكرة الأرضية الآخر، إلى المكان الذي ذهبَ إليه زوربا. حينَها، **طق!** هوى فوق كومةٍ من الكتب، استيقظ وانتهت سقطته.

تذكّر الرّقيب بعد استيقاظه ما فكّرت به ألِس، وتساءل إن كانت هذه فعلًا فكرتها، أم أنها سَرَقت منه فكرته، أو أنها بشكلٍ ما تسلّلت إلى رأسه وسرقت صوته حتى أصبحا شيئًا واحدًا. كان يتساءل عما سيجدهُ إذا وصلَ إلى نصف الكرة الأرضية الآخر؛ **أناسٌ توجد أقدامهم حيث رؤوسهم، وكل شيءٍ مقلوب رأسًا على عقب**. هذا شيءٌ لن يتسامح معه النظام، لأن الشيء يجب أن يكون هو.

كان يعرفُ، طبعًا، أنه كتابٌ ممنوع، صَدَرَ قرارٌ بشأنه منذ سنواتٍ طويلة. كان ممنوعًا في جميع ترجماته، وجميع طبعاته. وتساءل وقتها إن كان قد قرأ الترجمة الأفضل، لقد وجدها ممتازة، ولكن من هو ليحكم؟ لقد بدأ خطواته الأولى كقارئ منذ كتابٍ واحد، وها هو يفكّر مثل الخونة.

لم يكن مُضطرًا لقراءة كتابٍ صدَر قرارٌ بشأنه، وهذا يعني أنّه قد قرأ، عن عمدٍ، كتابًا ممنوعًا. لقد ارتكبَ جريمته الأولى، وقرّر أنها جريمة صغيرة، لا تُذكر، مثل كذبة بيضاء. لم يستطع منع نفسه من التفكير بكل الرِّوايات التي لا يجدرُ به قراءتها؛ كيف سيفوّتُ على نفسه كل هذا؟ ولأول مرة، تمنى لو أنه كان موجودًا عندما عُرضت تلك الكتب للفحصِ لأول مرة. لا بدَّ وأنه كان عامًا حافلًا فعلًا، لأنه كان على الحكومة الجديدة أن تُعيد النَّظر في كلّ شيء، وكان على رقباء الكتب أن يقرؤوا كل الكتب التي كتبها الإنسان ليبتّوا بشأنها. كما لو أن العالم قد وُلد للتو. وأنّ الإنسان الأوّل ذاهبٌ في رحلةٍ ممتعةٍ لتسمية الأشياء بأسمائِها.

أحسَّ بالغبن، عندما أوكلوا له مُهمة حراسة سطح العالم، لم يتخيّل أنه سيظلُّ على الضِّفافِ طوال حياته، وأنَّ آخرين، أكثر حظًّا منه، سوف يمخرون العُباب بقدر ما يشاؤون. وهو يريد أن يعبر البحر، حرفيًا، وأن يعود إلى تلك الجزيرة. ولكنَّ بلاد العجائب جنَّنته. إنها تبعث إليه بالأرانب طوال الوقت، وهو اعتاد أن يكره الأرانب، لكنه ما عادَ يعرِف.

لا يدري ما الذي اعتراه ذلك اليوم، ولماذا انتزع الرواية من يديّ السكرتير، وقبض عليها مثل رهينة: «حتى تعيدَ إليَّ زوربا!»، قال مهدّدًا، وأدار ظهره مغادرًا. لم يفهم لماذا كان الرجل يضحك.

- انتبِه، هذه النُّسخة من مكتبةِ الرئيس! إذا لاحظ اختفاءها سوفَ..

التفت إلى العجوز ثانية:

- حريٌ بكَ إِذن أن تعيد زوربا بسرعة.

كان يتوقع من السكرتير أن يعابثه؛ ماذا جرى لك؟ هل أحببت الكتب؟ لكنّه تصرّف كما لو أن رغبته في الاحتفاظ بالرواية هي أكثر الأمور منطقية على الإطلاق. سأحاوِل، قال. ثمَّ مرّ أسبوع ولم يحدُث شيء، لم يعيدوا إليه زوربا، ولم ينتبه رئيسُ القسم، حتى اليوم، إلى غيابِ أَلِس، لكن الرَّقيب الجديد أصبح يعرفُ المكان الذي تأتي منهُ الأرانب. إنها ليست الحديقة المجاورة، بل بلادَ العجائب.

طوال أسبوع، وقبل تلك السَّقطةِ الطَّويلة في الحُلم حتى مركز الأرض، كان يرى السكرتير في أحلامِهِ، وكان يقول له الشيء نفسه في كل مرة: **اتبع الأرنب الأبيض**. لكنه لم يستلطف الرجل قط. إنه مشبوه ومجعّد، طاعنٌ في السن وكأن الموتَ قد

نسِيه، ويبتسم بلا مبرر، مثل أكثر البشر سعادة. إنه، على ما يبدو، لا يمانع تحويله من رقيب كتبٍ إلى سكرتير، إذ بمجرد أن يغادر رئيسَ القِسم مكتبه، كان الخائن يتسلّل إِلى تلك المكتبة، ويختلسُ منها كتابًا، والأكيد أنّهُ قرأ تلك الكتب عشرات المرّات، في غفلةٍ من القضاء الإداري ومسؤولي الهيئة ورئيس القسم بعينيه المخيفتين وتكشيرته المريبة. ما ظنّه رئيس القسم مقبرة كتب، اتضح أنه مكتبةٌ حية. لا يعرف لماذا وجد عزاءً في تلك الفكرة.

منذ ذلك اليوم، منذ أن وصلَ إلى بلادِ العجائب، تصالح رقيب الكتب الجديد، تقريبًا، مع جرائمه الصغيرة. صار يقرأ كتبًا في السّر، وأخرى في العَلن. كان يجلس إلى مكتبه ويكتبُ التقارير عن الكتب التي توكل إليه. لكنه بمجرد أن يفرغَ من مهامه، كان يتسلّل إلى غرفة الأرشيف، بين العلب والأكياس المغبرة، وملفّات الحضورِ والانصرافِ والتقارير الإداريةِ وسِجلِّ الصّادرِ والواردِ وكل ما تملكه الإدارة من مراسلات.. في ذلك المكان، كان في وسعِ أن يقرأ. وإذا ما دخل أحد الرقباء أو الإداريين إلى الغرفة لسببٍ ما، كان يستطيع أن يبرر وجوده بأنه جاء للبحث عن نموذج الاستئذان، وأن الكتاب موجودٌ في يدهِ بقوة المصادفة، التقطه من إحدى العُلب وأخذ يتصفّحه. لا شيء خطير. «**يجب أن تفهم طبيعة عملك جيدًا. فهذه الأشياء التي نقومُ على فحصِها أشدُّ خطورة من المخدّرات، والأسلحة، والحُب. إنها كتب!**». صوتُ الرقيب الأوّل يدوّي في رأسهِ كل مرة يلتقط فيها كتابًا، نبضات قلبهِ تتسارع على نحوٍ لم يختبره في حياتِه، لقد أحبَّ الجنون الذي يعتري جسدَهُ حتى

صار يستحضر كلماتِ الرّقيب الأول، عامدًا، لمجرد أن يشعر بنشوة الدماء تتدفق حارّةً في عُروقه.

لقد جاءت ألِس لكي تجننه. ليس في الكتاب سطرٌ واحد مخالف، ولكنّه ببساطة كتابٌ يسمح بكل ما تريده المخيّلة. تساءل لحظتها، كيف تسنى للهيئة منعه؟ **فالعبرة في الملافظ والمباني، وليست في الأفكار والمعاني.** كان أنفه قادرًا على تمييز تلك الرائحة؛ رائحة التأويل، إنها ممنوعةٌ على الرقباء الجدد على ما يبدو، ولكنها مشروعة للرقباء القدامى، وإلا، من عساه يقصد، رئيس القسم، عندما قال بأن التأويلَ هو من اختصاص السلطة؟

عندما سأل الرَّقيبَ الأوَّلَ عن الأمر، أبلغه بأن هناك لجنة مكوّنة من خمسة أشخاص، تبتُّ بشأن الكتب التي لا غبار على سطوحِها، لكنَّ في أحشائها سمومًا وديدانًا. كانت تلك أوّل مرة يعترف فيها الرقيب الأول بما يوجد تحت سطحِ اللغة. لقد كان مُحقًا منذ البداية، اللغة ليست سطحًا، بل إسفنجة، وفي ثقوبها الصغيرة توجد تلك السرطانات. لقد رآها بعينيه ولم يصدّقه أحد. وجد عزاءً غريبًا في كلمات الرَّقيب الأوَّل، أنه في لحظةٍ ما، يجب علينا أن نؤوّل. وعرف بأن هناك دليل آخر يُمنح للرقباء الذين تتم ترقيتهم إلى رتبة رقيب أول. **دليل التأويل!** عندما طلب نسخة للاطلاع أخبره الرَّقيب الأول بأنَّه لا يملك صلاحيات الاطلاع على الدليل، وأنه سيطّلع عليه، في أحسن الحالات، بعد عشر سنواتٍ، عندما يحصل على الترقية، إذا قام بعملهِ على نحوٍ جيد.

في تلك اللحظة نهض الرَّقيب الجديد من مكانه وذهب إلى مكتب السكرتير، نظر عميقًا في عيني العجوز وهمس؛ **أعطِني دليل التأويل**. وذلك الشيخ المجعّد اللَّعين، لم يمانع. أخرج الدَّليل من الدُّرج ودفعه على سطحِ المكتب ببساطة، حتى أنه نهض من كرسيه وأقفل الباب ليتسنى للرَّقيب الجديدِ أن يقرأ الدَّليل دون أن يُضبط بالجُرم المشهود. لكنه لم يكن مضطرًا لقراءة الكثير. لقد وجد فيه ما توقّعه بالضبط؛ **إذا اضطر الرَّقيب الأول للتأويل، وفي حال تعدد التأويلات، يُعمل بقاعدة سدّ الذرائع، ويتم إرساء المعنى على النحو الذي يكون في خدمة النظام، سواء بالمنع أو الإجازة.**

- أ لهذا مُنعت أَلِس؟

ابتسم السكرتير.

- لا داعي لأن تبلغَ الأمور هذا المبلغ.

- أي مبلغ؟

- مبلغ التأويل..

نظر إلى وجه العجوز يستحثّه على الشرح.

- الكتاب مخالِف لأن فيه قطٌ يتكلم وأرنب يحمل ساعة جيب،

ويرقة تسأل أسئلة وجودية وتدخّن النارجيلة.

كاد ينسى ذلك. لقد منعوا أَلِس في بلاد العجائب، لأنه كتابٌ يخالف «المنطق السليم». ولكن الكتاب صار أقوى بعد منعه، حتى راح يضخُّ الأرانب البيض في غُرف وممرات الهيئة. تجيء كل يوم لكي تنادي الرُّقباء للسُّقوط في حُفرة الكتب.

- ومتى تبلغُ الأمور مبلغَ التأويل؟

- يندرُ أن يحدث ذلك. فالكتب لا تنجو من «دليل القراءة الصحيحة» على أية حال..

- ولماذا وُجِد دليل التأويل إذن؟

- أعتقدُ بأنه وجد من باب درء المفاسِد، تحسّبًا لحدوث أمرٍ ما، ولكنه لم يُستخدم قط. لنقل بأن الهيئة ليست بحاجة إلى التأويل أبدًا..

أولى العجوز ظهره، في تلك اللحظة، وغادر بسرعة.

تجلسُ مع هذا السكرتير اللّعين لدقيقتين ويبدأ من فوره في مشروع إفسادِك. إنه خليةٌ فاسدة، سرطانٌ حقيقي، ولا يستطيع أن يفهم الأمر كما هو، وهو أنّ الرَّقيبَ الجديدَ غير منزعج لأن

الكتابَ ممنوع، فالأحمق وحده يظنُّ أنَّ النِّظام مخطئ، لكنه أراد أن يحصُلَ على الكتب قبل منعِها، أن يمنعَها بنفسه. كان مثل شخصٍ لم يتلقَّ بطاقة دعوةٍ إلى أروعِ حفلةٍ في العالم. وعرفَ بأنَّه، طالما بقي رقيبًا مبتدئًا في قاعِ الهَرم الإداري، فلن يتسنى له أبدًا أن يقرأ الروايات، وأنَّ هذه المسرّات هي حكرٌ على القدامى، وحدهم يحق لهم الاقتراب من الشجرة المحرّمة.

عندما فتحت زوجتهُ باب الغرفةِ، كان ما يزال على الأرض بعد تلك السَّقطة الطويلة جدًا، البطيئة جدًا، في الحلم الذي صُنعت جُدرانه من رفوف الكتب. كان مُمدّدًا فوق الكتب، وكانت تزعج ظهره، رقبته، وكاحليهِ أيضًا، لكنه مع ذلك لم يجد في نفسه القدرة على النهوض. أطلقت زوجته زفرة ضيق؛ حلمٌ آخر؟ اكتفى بأن يومئ، وهو يمدُّ لها ذراعه لتساعده على النهوض. جلسَ على حافّة السَّرير وبقيت زوجته واقفة، تفرك أصابعها مليًا. هذا ما كانت تفعله عندما تشعرُ بالخوف، تفرك أصابعها أو تمعن في غسل الصحون مرة بعد مرة.

- إنه عيد الثورة..

- أعرف.

- الصغيرة لا تريد الذهاب إلى المدرسة.

طبعًا. قال متململًا. لا يكاد المرء يشعرُ بمجيء الأعياد، عندما يكون موظفًا في الحكومة. سوف يلاحظ، طبعًا، صور الرئيس على الجدران، وفي الشوارع، وبضعة أعلامٍ إضافية. ربما سيسمع في الراديو شيئًا من السرد التاريخي عن انتصار الحركة الشعبية للواقعية الإيجابية ومبادئ الحزب، وسقوط الديموقراطيات بعد حربٍ دموية وكثير من الخسائر. لكن الأمر يتوقف عند هذا الحد. أما في المدارس، فهم يأخذون تلك المناسبات بجديةٍ مفرطة، يتدرّبون لأسبوع، يعطلون الدراسة ويتفرغون لتصميم رقصاتٍ على مسرح يحضره وجهاء الحزب ورئيس الحكومة.

أردفت زوجته:

- ربما لا يجدرُ بها الذهاب..

- وكيف ذلك؟

- ماذا سيحدث إذا ذهبت إلى المدرسة ورأت صورة كبيرة للرئيس معلَّقة في الساحة؟ السنة الماضية كانت فضيحة، إنها تخافُ من الصورة..

دُفن وجهه بين كفّيه، مُسندًا مرفقيه إلى فخذيه. تخيّل، رغمًا عنه، الطفلة تصرخ في ساحة العلمِ مشيرة إلى الصورة، وما من معلّمة في تلك المدرسة لديها الحكمة الكافية لكي تحتضن الصغيرة

وتُطبق على عينيها براحتيها. زفر قائلًا:

- يجب أن يتوقّف ذلك.

تحشرج صوت زوجته:

- لا يمكنني إيقافه!

- ستظلُّ الصورة معلقة هناك لأسبوع. أنتِ تعرفين ذلك. لا يمكنها التغيّب عن المدرسة كل هذا الوقت.

- وماذا لو ضحكوا عليها؟ ماذا لو أطلقوا عليها ألقابًا. أو أسوأ، ماذا لو قدموا بلاغًا للخدمة الاجتماعية بأننا لا نقوم بتربيتها على نحوٍ صحيح؟ هل تعرف ماذا يحدث للأطفال الذين يُظهرون أعراضًا كهذه؟ هل تعرف ماذا يحدث لآبائهم وأمهاتهم؟

نعم يعرف.

مراكز إعادة التأهيل.

.. وليست للطفل وحده، بل للأبوين أيضًا. جلساتٌ طويلة من التنويم المغناطيسي، والبرمجة العصبية؛ دورة مكثفة في تاريخ النظام، وفلسفة الحزب، ومبادئ المواطنة، حتى يصبح المرء

منتميًا بالكامل، لكنه لم ينظر إلى نفسه قط، كشخصٍ غير منتمٍ، والحكومة غير مضطرة للقلق بشأنه، وحتى كذباته البيضاوات، إنها لا تضرُّ أحدًا، فليس الأمر أنه قد شرع في إجازة الكتب! لكن، الطّفلة.. إنها لن تصمد في ذلك المكان. سوف يقتلها. وسوفَ يُسأل مليًا؛ لماذا لم تقدم بلاغًا بشأن طفلتك في وقتٍ أبكر؟ لماذا لم تعرضها للفحص؟ ولن يعرف بماذا يجيب.

طأطأ. أنا مُتعَب! زفر وهو يدفن وجهه في راحته. جلست زوجتهُ إلى جانبه، أحسَّ بحرارة جسدها قريبة من زندِه، وشمَّ فيها رائحة حُلوة. وفكّر بأنه، قبل زوربا، لم يكن يشمّ تلك الرائحة. أراد أن يريح رأسه على كتفها ولكنها كانت تمعن في فركِ أصابعها، وكان صوتها يرتجف:

- ربما يجدر بنا أخذها إلى الطبيب، الحصول على تشخيص، أي شيءٍ يفسّر هذا الخوف، وعندها لن نبدو كالفاشلين، أو كالخونة..

- إذا ذهبنا إلى الطبيب سيوصي بها لمركز إعادة التأهيل..

- قبل أن يبلغ الأمر هذا الحد، سوف يجرّبون العلاج المنزلي، يجب أن نطلب البرنامج.

- أنتِ تعرفين أنها لا تخافُ من الرئيس، بل من صورتِه،

وهي تخافُ من أشياء بلا حد؛ ناطحات السحاب، قمر منتصف الشهر، الأعلام.. في أحد الأيام أخذتها إلى مشتل وصرخت لأنّها وجدت تكتّلات سود غريبة خلف ورقة سرخس. إنَّ هذا لا يمكنُ أن يكون جريمة.

سكت برهة ثم أردفَ وهو يقطّع الكلمات في فمهِ مليًا:

- إنها.. ليست.. مريضة.

- بل هي مريضة.

- إنها مصابة بالمخيّلة، كل الأطفال مصابون بالمخيّلة، إنها من مخلّفات العالم القديم، مثل عظمة العصعص. هل ترين بشرًا يمشون في الشوارع مجرجرين أذيالهم؟ لقد انتهى كل ذلك الآن، وستزول الأعراض تدريجيًا مع التعليم الابتدائي. إنَّ هذا هو كل ما يفعلونه هناك.

- وماذا عن عيد الثورة؟

- أبلغي المدرسة بأنها مصابة بالجُدري أو ما شابه..

كانت زوجته على وشكِ أن تنهض، عندما دخلت الطفلة، مرتدية زيَّ الأميرات الوردي، وحذاءها الأحمر اللمّاع، كما لو

أنها ما زالت في عيد التطهير. كانت تحتضن دُمية الذئبِ المحشوّة قريبًا من صدرها، وعلى شعرها مسحوق أبيض من بودرة الأطفال التي ما زالت تصرُّ بأنها غبار جنيّات. بدت له، تمامًا، مثل قردةٍ بذيل طويلٍ، عاجزة تمامًا عن التطوّر، وكانت المشكلة هي أنه يحبُّ تلك القردة كثيرًا.

- بابا؟

أحسَّ بألم غريبٍ في صدره، إن كل ما تفعله يخيفه. وكل شيءٍ فعله ليساعدها على الوجود في العالم الحقيقي، أخفق تمامًا. كان يقف في نصفِ الكرة الآخر؛ حيث الشيء هو هو. وأحسَّ بأنها ترفضه، ترفض عالمه، تريد أن تعبر إلى النِّصفِ الآخر من الأرض؛ حيث أقدام البشر في رؤوسهم، والشيء هو مقلوبه. افتعل ابتسامة وهو يضع الطفلة على ركبتِه ويقبّل رأسها، قرصَ خدّها برفقٍ وسألها:

- هل أنتِ سعيدة لأنك ستحصلين على إجازة؟

هزّت الطفلة رأسها. كانت سعيدة، لأنها تجلس على ركبته ولأن أمها راحت تمسّد شعرها، ثم أجفلت يد الأم فجأة، وفزَّت من مكانها..

- من سيبقى معها طوال أسبوع؟

- ماذا تعنين؟

- لقد نفدَ رصيدي من الإجازات..

- ليس عندي رصيد إجازات، أنتِ تعرفين ذلك، أنا موظفٌ جديد ولم أتمّ بعد عامي الأوّل.

- ماذا سنفعل؟

2

إنَّ هذا هو أسوأ ما يُمكن أن تؤولَ إليه الأمور فعلًا، وهو لا يستطيع أن يتخيّل لنفسهِ ظرفًا أسوأ.

رغم أن التَّخيّل ممنوع، لم يستطع منع نفسه من تخيّل ابنته تذرع ممرّات الهيئة، مثل شخصيةٍ هاربة من كتابٍ مُصَوّر. إنها مزيج من كل شخصيةٍ متخيّلة مُمكنة، وهو لم يفهم قط من أين لها أن تعرفَ كلّ تلك الحكايات، حكايات لم يقصُّها عليها، لا يتذكّرها تمامًا، ولكنه يألفها على نحوٍ غامض. ثم توصّل إلى أنَّ التفسير المنطقي الوحيد للأمر هو أنها قامت بتأليفِها بنفسِها، وأنها هي التي قصّت عليه تلك القصص؛ الصبيُّ الذي يطير، غبار الجنيات، الحذاء السحري والساحرة الشريرة، التفاحة المسمومة أيضًا. بدت الصغيرة مثل بيتٍ مسكونٍ بالأرواح، البوابة الأخيرة المشرَعة على الماضي. وتساءل إن كانت بلاد العجائب، أو أيًا كان المكان الذي تأتي منه الحكايات، قد جنّد طفلته لمآرب انقلابية. وأنه يستخدمها للعودةِ إلى الواقع، مثل مَجاز. ربما كانت الطفلة مصنوعة من تلك المادة السوداء التي تملأ الفضاء، تلك التي جنَّنت

البَشرية بفكرة السَّفر عبر الزمن. لا يمكننا السفر عبر الزمن إلا من خلال القصص، لقد أصبح يعرفُ ذلك الآن، لكنه لا يريد لطفلته أن تكون شهيدة المخيّلة. وفكّر بأن الكتب تنتقمُ منه فعلًا، ليس لأنه يعمل على منعِها، فهي لا تكترث لذلك على الإطلاق، بل لأنه قرأها.

لكنه متورط في الأمرِ الآن. سوف تُثارُ حوله الشبهات، إذ ينبغي على رُقباء الكتب، أكثر من غيرهم، أن يبقوا محصَّنين ضِدَّ المخيِّلة.

الطفلة ترفض أن يزيل من شعرها «غبار الجنيات» وأن ينتزع من قدميها ذلكَ الحِذاء الأحمر اللماع، تقولُ إنها إذا خلعت حذاءها لن تجد طريقها إلى مدينة الزمرد، وهي عندما تتفوه بهرطقاتٍ كهذه تصيبه بالهلع. يجب أن تبدو طبيعية، وأن ترتدي زيّ المدرسة الكاكيّ حتى يبدو الأمر مثل استئذانٍ عارض، شيءٌ يحدث في جميع البيوت، وليس تهربًا مشبوهًا من احتفالات عيد الثورة. ولكنَّ الوقتَ تأخر، والصَّغيرة ما زالت على الأرض ترفسُ وتصرخُ، وهو غير قادرٍ على السَّيطرةِ عليها، وإذا لم يصل في الموعد المحدد سيحصل على غرامة التأخير. إنها مثل قردة بذيل طويل، في حين ولد بقية أطفال العالم بالكادِ مع عظمة عصعص. كان متأكدًا بأن الجميع سيرى ذلك الذيل غير المرئي بمجرد أن تدخل معه إلى مكتب الرُّقباء السبعة، وليس لديه أدنى فكرة عن كيفية إخفاء شيء بقوة الاستعارات.

يجب أن ترافقه لهذا اليوم، على الأقل، حتى تنجح زوجته في الحصول على عذرٍ للتغيّب بقية الأسبوع، أخذ العرقُ يتصبّبُ من جسده غزيرًا وهو يقود السَّيارة، شاخصًا، يحدّقُ في الطريق، غير مصدّقٍ أن كلَّ سوء الحظ الموجود في العالم قد صار من نصيبِه.

قاد سيارته بين الأبراج العالية وناطحات السحاب الهائلة،

وهو يطلبُ من الصَّغيرة أن تُغمض عينيها كيلا تداهمها نوبة أخرى. هل يمكن أن يقدّم أحدٌ بلاغًا بشأن الطفلة؟ ربما موظفة الاستقبال، أو البوّاب، أو الرّقيب الأول! سوف يتّصلُ بالخطِّ السَّاخِن للحالاتِ الطارئة ويبلغ عن طفلة تُظهر أعراض «الإهمال الأُسري». ستأتي هيئة حماية الطفولة لأخذها إلى مركز إعادة التأهيل، المكان الذي لا ينجو منه أي طفل. لديه ابن عمٍ بعيد، فقدَ طفلته أيضًا، حدث ذلك قبل سنوات. أُدخِلت إلى المركز ولم تخرُج منه قط. قالوا إنها كانت حالة متقدمة جدًا ولم تنجُ، لم ينفعها العلاج، ثم أعطوه مجموعةً من التَّعليمات حول ما يمكنه فِعلُه لتجاوزِ الألم والعودة إلى جادة الواقعية الإيجابية، قالوا إنّ الإنجابَ هو الحلُّ الأسرع والأكثر فاعلية لألم الفقد، كما نصَحوهُ بأن يُسجل اسمه في أنشطة تطوّعية، وأن يضاعف من ساعاتِ عمله. الآن صار لابن عمّه أربعة أطفال يرتدون الكاكي ويحبّون المدرسة ويشاركون في أنديةِ الكشافة. أطفالٌ مثاليون، مستقبليون، بلا أذيال.

لم يشكّك في الأمر لحظة. كل تلك الأخبار التي أُذيعت عن النَّجاح الاستثنائي الذي أحرزته مُختبرات الدَّولة في مجال علم التطوّر؛ المخيّلة بدأت تضمر فعلًا، لأنك إذا تحكّمتَ بالظروف المحيطةِ بالبشر يمكنك أن تدفع التطوّر في اتجاهٍ بعينه، في اتجاه الإنسان الجديد؛ إنسان بلا مخيّلة، وبرغباتٍ محدودة جدًا، بلا فوائض وجودية.

يصعب على المرء ألا يحبَّ الحكومة عندما يراها تسعى كل

هذا السَّعي من أجل إسعاده. وفي نهاية الأمر، من هو ليخالف النّظام؟ لطالما آمنَ بأن النظام يعرفُ ما يفعل. أنه موجودٌ من أجلِه، وهو متأكد بأنَّ عقله فارغ من شوائب العالم القديم والأفكار الانقلابية أيًا كانت. إنه لم يُعجب بالديموقراطية قط، ولا بالثورة المعلوماتية على حدّ علمه، لقد كان ذلك زمنًا تمّ فيه تصدير الحماقة على نحوٍ واسع. الحماقة والحمقى. كانت المعرفة ملكٌ للجميع، وعليهِ فقد كانت السُّلطة في يدِ الجميع. لا يريد العودة إلى ذلك الزمن، العالم هكذا أبسط، لكنه لن يحتمل فقدان طفلته. إنها لا يمكن أن تكون واحدة من «الخلايا السَّرطانية» التي تحذّر منها الحكومة. إنها في الخامسةِ فقط، وسوف تتعلّم كيف تعيش بشكلٍ صحيح، فليمهِلوه بعض الوقت.

بلع ريقه بصعوبة. إنه لم يشعر بخوفٍ كهذا طوال حياتِه، حتى أنه لم يكترث عندما شاهدَ رجلًا مجنونًا يرقُص حافيًا على الرَّصيف. كانت الطّفلة في المقعد الخلفي تتحدّث مع ذئبها المحشو عن الجدة التي أكلَها، وكان الذئب يخبرها بأنها كانت لذيذةً جدًا، لأنها كانت تعرفُ الكثير من الحكايات. قرّر الأب أن يقاطع هذا الحوار غير المعقول ويبدأ بتحضيرها للقادم. يحتاجُ بابا أن تساعديهِ في بعض الأمور، قال..

- إذا سألك أحد لماذا تغيّبتِ عن المدرسة اليوم، أخبريهم أن بطنك تؤلمك.

- لكنها لا تؤلمني.

- تخيّلي ذلك.

يكاد لا يصدّق أنه يطلب من طفلته أن تتخيّل ألمًا في معدتها! أي نوعٍ من الآباء هو؟ أحسَّ بالعرق البارد يرشح من جبينه وظهره وإبطيه. إنه في ورطةٍ حقيقية، والتخيُّل في الأصل خطيئة. غمغمت الصغيرة:

- الجدة في بطني ترفس.

- نعم، نعم.. لكن إياك قول شيءٍ كهذا أمام أحد، وإذا سألكِ أحد لماذا ترتدين زيّ الأميرات وترشين البودرة على رأسك..

- غبار الجنيّات.

- أخبريهم أن ملابسكِ الجيّدة في الغسّالة، وأن ماما لم تغسلها بالأمس لأنها كانت مريضة..

- ولماذا لم تغسلها أنت يا بابا؟

- لأن الغسالة تعاني من عُطل.

هزت الطفلة رأسها، وغطّى الوجوم وجهها فجأة.

- كنتُ أظنُّ أنك تعملُ في مكانٍ مُمتع.

- من أين جاءتكِ هذه الفكرة؟

- إنه المكان الذي تذهب إليه القصص.

- من قال لكِ ذلك؟

- الأرنب..

إنها تهذي، لا بدَّ وأنها تهذي. بالأمس أخبرها قطٌّ ما أن تلقي دجاجة مشوية كاملة في القمامة، وقبله كانت تتحدث مع الحمام. وقبله كانت تحاول تدجين دعسوقة. الأرانب لم تظهر في بيتِه بعد، إنها تتخيّل وحسب، وسيخفُّ ذلك تدريجيًا ونتخلص من ذيل القردة السخيف إلى الأبد.

3

أخذَ العرقُ يتصبّب منه، وهو يدلفُ مَدخل الهيئة ممسكًا بيدِ ابنته. كان في وسعهِ أن يقرأ الذُّعر في أعين الموظّفين، كما لو كانت الصغيرة تمشي بين الناس ملوثة بمخاط أنفها. نظراتُ إدانة، ابتسامات متشنّجة. حتى عامل النظافة حيّاه متحفّظًا، لأنه أبٌ فاشل، يهدّدُ النسيج الاجتماعي برمّتِهِ. تمنّى في تلك اللحظة لو كانت الطفلةُ، فعلًا، تتمتع بقدراتٍ خارقة ويمكنها الاختفاء، يمكن لذلك أن يحلَّ مشكلته جذريًا، ولكن الواقع جدارٌ أصم. وإذا كان الواقع بهذه السَّماكة، لماذا لا يسعُها أن تراه؟

أحسَّ بوهنٍ في ركبتيهِ وقد تعرّقت أصابعُه القابضة على ساعدِ الصَّغيرة، لكنه قرّر أن يُواصل المشي، وأن يحييهم جميعًا، وأن يبتسم كما لم يفعل قطّ، حتى أنه تذكّر السِّكرتير ولعنه في سرّه. يجب أن يجعلهم جميعًا أصدقاءه، لأن أي واحدٍ منهم يستطيع في دقيقةٍ أن يلتقط هاتفه ويقدّم بلاغًا ضدَّ الطفلةِ القردة.

لم يسبق له أن دسَّ إكرامية في يدِ عامل النظافة، ولم يخبر

موظفة الاستقبال من قبل بأن إطار نظارتيها البنّي يناسب لون عينيها، وموظف الشؤون الإدارية الذي تقاطع معه في الممر، لم يكن ليسمح له بالمرور قبل أن يخبره أنه يبدو وكأنه خسِر خمسة أرطالٍ على الأقل، رغم أن الرَّجل كان بحجم الماموث. كان يتملّقهم جميعًا، شاقًا طريقه بصعوبةٍ إلى القِسم، والطِّفلة تريدُ أن تركضَ، في الممرِّ الطويل، لأنها رأت أرنبًا في نهايته، لكنه جرّها من يدِه إلى غرفةِ الرقباء؛ سبع دمى خشبية لعينة ترفع رأسها عن الكتب فجأة وتحدّق في ابنته. لم يمتلك أيٌّ منهم ما يكفي من اللِّباقة لكي يطرفَ بعينيه. وأحسَّ بأنه مجسَّمٌ لإنسان نياندرتال، هاربٌ من متحف التاريخ الطبيعي، كائنٌ نسي أن ينقرض مع الديناصورات. لكنه مع ذلك ابتسم، ومثل السّكرتير الوغد أظهر على ملامحه بهجة مضاعفة وقال؛ صباح الخير! شيءٌ لم يسبق له قوله منذ تعيينه. هل هي ابنتك؟ سألَ الرقيب الثاني. لا شيء أكثر. لم يجرؤ أحدٌ منهم على قول؛ إنها لطيفة، ماذا ترتدين يا صغيرة، ولماذا لستِ في المدرسة، أو أي شيءٍ آخر. كانوا جميعًا ينظرون إلى ذيلِ القردة الطويل، رغم أنه مجرد استعارة. قرر أن يستغلَّ وقع الصَّدمة عليهم، ويسيطرَ على الأمر من البداية. همهمَ معتذرًا:

- آسف لتأخري، إنها ابنتي، كانت تشكو من بطنِها هذا الصباح، وأمّها في العمل، كان عليّ أن..

هزَّ الرقيب الأول رأسه.

- وكيف تشعرُ الطفلة الآن؟

- آه.. إنها أفضل قليلًا، كما أظن. لدينا مراجعة للطبيب بعد الظهر، لكن..

- هل ستلازِمك بقية اليوم؟

- أظن ذلك، إنها لن تسبب أية متاعِب، يمكن أن أعطيها كتبًا مصوّرة تبقيها منشغلة، أليس لدينا كتب للأطفال هنا؟ من الذي يقوم بفحصها؟

- رقابة كتب الأطفال في الطابق الرابع.

- شكرًا!

قبضَ على يدِ الصَّغيرة وخرج. تنفّس الصُّعداء. لقد سيطر على الأمر، ولم يسمَح لهم بطرحِ المزيدِ من الأسئلة. أحسَّ أنه محظوظ. مسح على رأسها فخورًا؛ «أنتِ فتاة شاطِرة! لنذهب ونبحث لكِ عن بعض القصص».

سار خطواتٍ في الممر باتجاه المصعدِ الكهربائي. لم يسبق له أن غادر الطابق الأول، ولم تسنح له الفرصة للتجوّل في جميع أقسام الهيئة، ولعله اليوم المثالي ليتوغّل في هذه العين العملاقة

التي تراقب الكتب والأفلام والمسلسلات والمسرحيات والوثائق والصحف والمجلات وألعاب الفيديو، تُخضع كل ما ينتجه الإنسان للمعيارِ الصارم الذي يسعى في المحصلة لسعادته العظمى. إن شعارات الدولة، مثلها مثل كلمات ألس وزوربا، تملأ رأسه.

لكن الصَّغيرة أفلتت يدها فجأة وأشارت إلى نهاية الممر تهتف؛ بابا! الأرنب! ها هو! وطفقت تركُضُ خلفه، تُطقطقُ بحذائها الأحمر على الأرضية الرُّخامية. كان متأكدًا من أنها داست على بعرةٍ أو بعرتينِ في الطريق. لا! تعالي! صاح بها، لكنها لم تسمع، وهو يعرفُ المكان الذي تنتهي إليه الأرانب؛ مكتب السكرتير، ومن ثمَّ؛ مكتب رئيس القسم! لا يمكن للأمور أن تكون أسوأ. اللعنة على هذا العجوز، اللعنة عليهِ وعلى أرانبه! هرولَ وراء الطفلة مادًّا ساعديه في الهواء؛ تعالي حبيبتي، تعالي، الركض ممنوع، سوف تسقطين.. لكنَّ الطفلة كانت قد انعطفت يمينًا، وكان الرقيب الجديد يعرفُ، تقريبًا، أنها ستجد العجوز جاثيًا على ركبةٍ واحدة، يطعم أرنبًا ورقة خس.

عندما لحِق الرقيبُ الجديدُ بابنته، كانت واقفةً، تعضُّ طرفَ ضفيرتها وتضحك للسكرتير الذي، كما توقّع بالضَّبط، كان يُطعم أرنبًا ورقة خس. أخذ السكرتير ينظرُ إلى الطفلة بطرفِ عينهِ، وابتسامة غامضة تعتلي شفتيه، كأنه كان في انتظارها هي، وليس الأرنب. من لدينا هنا يا أرنب؟ همهمَ، كركرت الصغيرة. أنا أعرفكِ! قال العجوز، وهو يقتربُ من الطفلة، يجثو على ركبته ويخلع نظارتيه. لقد عرفتكِ من الحذاء. كركرت الطفلة ثانيةً. إذن،

أخبريني، هل وجدتِها بعد؟ من؟ سأل رقيب الكتبِ، مقاطعًا الرّجل. نظر إليه العجوز مندهشًا؛ ومن غيرها؟ ساحرة الغربِ الشريرة، اسأل ابنتك، إنها تعرِف! أومأت الصغيرة. لقد ماتت. قرص العجوز خدَّ الصغيرة؛ هذا خبر رائع، يمكننا الآن أن ننعم بالسلام، إن ثيابك جميلة جدًا، وأنتِ أميرة حقيقية، حتى لو وضعنا حبة فول تحت أربعين فراشًا، سوف تعرفين بأمرها، أليس كذلك؟ هزّت الطفلة رأسها وقد تورّد خداها. إذن، ما الذي جاء بكِ؟ هل تبعتِ الأرنب؟ أحسَّ الرقيب الجديد بالدماء تتجمد في عروقهِ، وهو يرى الافتتان في عينِ ابنته التي تحدّق في العجوز غير مصدّقة، أن أحدًا في هذا العالم يستطيع أن يفهمها إلى هذا الحد. أنتِ فتاةٌ جيدة، الأطفال رائعون، إنهم يعرفون ما ينبغي فعله دائمًا، وهم يتبعون الأرانب دون عناد. قال جملته الأخيرة ثمَّ نظر بطرفِ عينهِ إلى الرقيب الجديد، معاتبًا. بدأ وجه الصغيرة يضيء ولمعت عيناها. أنا أيضًا أعرفك. قالت، هزَّ العجوز رأسه وقال؛ أعرف، أعرف، أنا رجلٌ مشهور.

ثمَّ رفع السّكرتير عينيه إلى الرّقيب الجديد.

- ماذا سنفعل؟

- وما شأنك؟

- سيأتي رئيس القِسم في أيّة لحظة.

أحسَّ الرَّقيب الجديد بجفافٍ مفاجئ في فمِه.

- كنا ذاهبيْن إلى الطابق الرابع..

- لأجل كتبِ الأطفال؟

- نعم.

زفرَ العجوز وأردف:

- لن تجد كتابًا واحدًا صالحًا للقراءة.

- ماذا تعني؟

- إنهم ما عادوا يفحصونَ كتبَ الأطفال، لقد قرّروا أن عليهم منع استيراد كتب الأطفال بالمجمَل، لأنها تتضمن قيمًا هدّامة والكثير من مُخلفات عالم ما قبل الثورة، وصار من واجب الإدارة، عوضًا عن فحص الكتب، أن تكتبها مباشرة! وصاروا يعيّنون كتّابًا ورسّامين من أجل إنتاج كتب للأطفال تتحدث غالبًا عن..

- الثورة..

- بالضبط.

- وهل تتضمن رسوماتٍ لـ..

- تمامًا.

نظر السكرتير إلى الطفلة وابتسم.

- أنتَ في ورطة.

- ماذا سنفعل؟

4

عندما عادَ الرَّقيبُ الجَديدُ إلى مكتبِ الرُّقباء السبعة، وبمجرّد أن دَلَف إِلى الدّاخل، التزمَ الجميع الصَّمت، وعرفَ بأنه كان موضوع النّقاش لذلك النهار. لكنه وضع على وجهه ابتسامةً هائلة، تشبه ابتسامة قط الشيشاير الذي ظهر لألِس.. وامتلأ رأسه بالأصوات..

- **من فضلك، هلا قلتَ لي أي طريق أسلكُ للرّحيل عن هذا المكان؟**

- **ذلك يعتمد على المكان الذي تود الذهاب إليه.**

- **لا يهم المكان.**

- **في هذه الحالة، لا يهم الطريق.**

.. كانت حروف الرواية تطفو في رأسه، وتسطو على

عالمِه، وصار يعرفُ الآن بأن الخيال يعثر دائمًا على مسامٍ صغيرة جدًا في بشرة الحقيقة الرقيقة، وأنه يجد طريقه للظهور ببساطة، وحاول أن يتجاهل حقيقة أنه قد جاء لتوّه باستعارة مجنونة، ثم تذكّر كلام القط؛ **كلنا مجانين هنا.** جلس إلى مكتبه وتناول كتابًا ليفحصه. كان في مزاجٍ انتقامي، وراغبًا في منع مائة كتاب.

حاول الرُّقباء السَّبعة أن يتصرفوا بلطفٍ، الحدّ المقبول من اللُّطف الذي يحتاجه أبٌ يعاني من تربية ابنة مُعاقة. آه، هذا أنت! ابتسم الرَّقيب الأول كما لم يفعل قط. وفكّر الرَّقيب الجديد؛ «**نحنُ لا نملكُ خيارًا في الأمر، وأيًا يكون الطريق الذي نسلكه، فإننا سوف نجد أنفسنا بين أناسٍ مجانين**». وتساءل مرة أخرى إن كانت هذه أفكاره، أم تراها أفكار ألِس، أم قطّ الشيشاير؟

أين هي الصَّغيرة؟ سأله الرَّقيب الأوَّل، وكان على وشكِ أن يقول إنها في صُحبةِ السِّكرتير، لولا أنه خاف أن تُنتزعَ منه وصمة «الأب المسكين» وتستبدل بشيءٍ من قبيل «الأب المهمِل» على أقل تقدير، و«الخائن» إن شئنا تسمية الأشياء بمسمّياتها. ما الذي كنتُ أفكّر به؟ كيفَ سمحتُ بأن تبقى معه، وهو.. مرة أخرى أحسَّ بالعرَق البارد يتفصد من جسدهِ.

- إنها تقرأ كتبًا في الطابق الرابع، مع إحدى الزميلات.

أجاب. هز الرَّقيب الأول رأسه؛ هذا جيّد. إنهم يفكرون على

الأرجح بأن تلك الكتب الجديدة قد تكون قادرة على إصلاحها. ساد صمتُ لدقيقة، وتظاهروا جميعًا بالعودةِ إلى فَحصِ الكُتب، ولأوّلِ مرّةٍ منذ تعيينه، أحسَّ بأنه جزءٌ من الإيقاع الكلي الذي يشدُّ الرُّقباء إلى بعضهم البعض. زملاء المهنة، معًا نواجه وحوش المخيّلة ونحرسُ سَطح العالم من المعنى!

ثم تساءل إن كان قد خاطر بسلامة الطفلة عندما تركها مع السّكرتير، في المخزن، مع الكثير من الكتبِ المصوّرة التي احتفظ بها العجوز اللَّعين بشكلٍ ما، لأنه ينجح دائمًا في اختراق النظام. إنه خليّة سرطانية حقيقية وهو يُسمِّمُ رأس ابنته بقصّةِ حبّةِ الفول وساحرة الغرب الشريرة. ماذا لو لمسها؟ ماذا لو.. أحسَّ ببرودة تتسلل إلى أطرافِه وغامت عيناه. لم يكن قادرًا على قراءة سطرٍ واحد، ولكن عليه أن يقلب الصَّفحة الآن وإلا عرف الجميع بشأنه. لا يمكن أن يكون قد فوّت سطرًا هامًا، فالكتاب يتحدث عن مهارات الحوار بين الزوجين، أحد الأمور التي لا يقلق النظام بشأنها كثيرًا، لحسن الحظ. لكن هل يجدر به أن يذهب إلى المخزن، ولو لدقيقة، كي يطمئن على الصغيرة؟

كان على وشكِ أن ينهض عندما بدأ الرقيب الأول عرضًا تمثيليًا مع الرَّقيب الثاني، وكان عليهِ أن يكون الجمهور. الأطفال، إنهم رائعون، أليس كذلك؟ آه، نعم. إنهم الأفضل. ليس سهلًا أن تكون أبًا. لا، بكل تأكيد. يحتاج ذلك إلى خبرة. إن الطفل الثاني دائمًا أسهل من الأول، فأنت تعرف ما عليك فعله. معك حق. كان لأخي طفلة.. كانت شديدة الحساسية، وأظهرت أعراضًا مقلقة،

أصدقاء افتراضيين وكل هذه الأمور، لكنه عالج الأمر تمامًا. أحقًا؟ هل أخذها إلى مركز إعادة التأهيل؟ لا، لا داعي لأن تصل الأمور إلى هذا الحد. لقد كانت العائلة تجتمع كل ليلة أمام التلفزيون وتتفرج على الوثائقيات التي تنتجها الهيئة. إنها برامج مفيدة جدًا وتستطيع تصحيح مسار الكثير من الأفكار الخاطئة. هل يمكن حقًا علاج المخيلة هكذا؟ إذا رأيتها اليوم، لن تعرف بأنها كانت مريضة في يوم. إن تأثيرها لا يصدّق.

لم يستطع سماع كلمةٍ أخرى. كانت أوصاله قد بدأت تنتفض وتبخرت من وجهه ابتسامة قط الشيشاير، وأراد أن يصرخ بصوتٍ عالٍ؛ **كلنا مجانين هنا!** لكنه عوضًا عن ذلك نهض من مكانه؛ المعذرة، أحتاج الذهاب إلى دورة المياه. وذهب ليبحث عن ابنته.

عندما وصلَ إلى المخزن، سمع كركرات الصغيرة من بعيد، ورأى العجوز يلصق أذنه ببطنها مردّدًا؛ إنها ترفسُ كثيرًا! أخبرتك بأنها ترفس، إنها لا تنام أبدًا. مثل الجِديان السبعة في بطن الذئب، إنها ترفس أيضًا. كانت عشرات الكتب المصورة تملأ الأرض؛ صور ساحرات، تنانين، أكواخ من حلوى وسكاكر، غابات وذئاب. عندما انتبهت الصَّغيرة إلى ظهور أبيها ركضت باتجاهه واحتضنته؛ بابا! وكأنه غادر دهرًا. احتضنها غير مصدّق أنه يلمسها، أنَّ الكتب لم تبتلعها وأنها لم تتحوّل إلى فكرة في رأسه. هل اشتقتِ إلي؟

- لقد عدتَ بسرعة، كم كتابًا منعتَ في نصفِ ساعة؟

سأل السكرتير. أجاب باقتضاب:

- جئتُ لآخذَ الطفلة.

- إلى القسم؟ هل أنت مجنون؟

- إنك تلوّث عقلها.

- إنها الشيء الوحيد غير الملوّث في هذا المكان..

- إنك تتحدّث كالخونة.

ابتسم العجوز، خلع نظارتيهِ وضغطَ جفنيه بأصبعيه. غمغم: «ليس عندي ما أخسره». وكانت تلك المرة الأولى التي لا يبدو فيها العجوز سعيدًا سعادته غير المبرّرة. إنه غير مكترث، ويمكن القول إنّه مكتئب، وقد وجد الرقيب الجديد عزاءً في ذلك. حتى أنّه قرر أن يبتزّه.. فأردفَ:

- ستخسر الكتب، مكتبة رئيس القسم.. لا توجد كتبٌ كهذه في السجن. أنت تعرف ذلك.

حدّقَ فيه العجوز بعينين باردتين، وابتسم نصف ابتسامة. همس:

- إن كل شيء أفعله هو لأجلها.

- الطفلة؟

- المكتبة..

- أنت مجنون.

- كلنا مجانين هنا..

5

لم تكن الطفلة راغبة في الذهاب إلى أي مكانٍ، حتى وجد الرّقيبُ الجديدُ نفسَه جالِسًا على الأرضِ، يُحدّق في عشراتِ الكُتُبِ المصوّرة التي ملأت المكان. كانت الطِّفلة قد تمدَّدتْ على بطنها، تُراقِصُ ساقيها في الهواء، أمام أحد الكتب؛ تحدق في رسمٍ لدميةٍ خشبية تمشي في الشوارع مع جدجدٍ أنيق.

- من أين جئتَ بكل هذا؟

لم يستطع منعَ نفسهِ من السؤال. إذا كانت الهيئة قد أوقفت استيراد كتب الأطفال بالمجمل، فمن أين جاءت كل هذه الكتب؟ خلعَ العجوزُ نظّارتيه، وأخذَ يُنظف العدستينِ الزُجاجيّتين بطرفِ قميصه. «أستطيعُ تعليمك كلَّ ما أعرفه». قال.

سألَ الرقيب الجديد:

- ماذا تعني؟

- أين تعثرُ على الكتب، أين تُخفيها، كيف تَمحي آثارها من الأرشيف، كأنها لم تُكتب قط. أستطيع أن أكونَ دليلك في كرنفال الجنون هذا..

قاطعه الرّقيب ثانية:

- إنك لم تُجِب على سُؤالي.

- لقد أنقذتُها.

- ماذا تعني؟

- إنها كتبٌ محكومةٌ بالإعدام.

- لا أفهم.

في تلك اللحظة ندِم على كثرةِ أسئلته. فُضوله الذي يذهبُ به إلى أكثر مجاهل العالمِ ظلمة، حيث تحدثُ أمورٌ لا ينبغي أن يعرف بشأنها أحد. ولأن التَّخيُّل ممنوع، لم يتخيّل أحدٌ ما كان يحدث في تلك السَّراديب. إنهم يَقتلون الكتب، ومرَّةً أخرى، تسارعت وتيرةُ أنفاسِهِ وكان على وشكِ أن يختنق. في تلك اللحظة تخيّل زوربا، لكنه عوضًا عن أن يرقصَ على شاطئ الجزيرة

حافيًا وفاردًا ذراعيه أمامَ البحر، كان مكبَّل اليدين، تحملُهُ عربةٌ خشبية عتيقة يجرُّها حصانٌ عجوزٌ إلى المقصلة. «**كانَ ذلك أحسَن الأزمانِ، وكان أسوأ الأزمان. كان أوان النُّور وكان أوانَ الظَّلام. كان ربيعَ الأملِ وكان شتاءَ القُنوط. كنّا جميعنا في طريقنا إلى الجنَّة، وكنا في طريقنا إلى جهنَّم مباشرة**». كلمات قديمة تطفو في رأسِهِ. كان ذلك كتابًا آخر قرأه خِلسة، عثر على النُّسخة في صناديق الكتب الممنوعة. بدت قديمة جدًا، بورقٍ أصفر يمكن أن يتفتّت بين يديك في أي لحظة. ولأنه صار يميّز تلك الأمور، فهو يتذكر، على نحوٍ جيد، أن تلك الرواية التي تتحدث عن مقصلة ومحكومين في أحسن وأسوأ الأزمان، لا تُصدِرُ صوتًا عندما يقلب صفحةً جديدة، وليس ذلك بالضَّرورة لأن الورق مهترئ، بل لأنّهُ كتابٌ خائف، ولا يريد أن ينتبه أحدٌ إلى وجوده. فإعدامه يعني إعدام الذين نجوا في الحكاية، وهذا يعني أن أحدًا لن يتذكر الذين ماتوا. تحدثُ اختلالاتٌ مروّعة في توازنات العالم عندما تتمُّ مصادرة حكاية، كما لو أن المكان يُظلِمُ أكثر.

تساءل في تلك اللحظة: هل يعقل أن تكون هذه أفكاره؟ إنه لم يسمع صوت أَلِس في رأسِهِ، ولا حتى زوربا.

همس العجوز:

- ماذا ظننت أنهم يفعلون بالكتب التي تُمنع؟

أشاح بعينيه.

- لا أستطيع أن أتخيّل.

- لا ريب!

- لا أريد أن أعرف..

- إنهم يسوقونَها إلى المحرقة.

ولم يدر لماذا يهمس. هل يخافُ على الصَّغيرة أن تسمع شيئًا كهذا؟ حتى هو لم يكن خائفًا عليها. إنها تواجه تنانين افتراضية ولديها ذئبٌ في الدولاب. إنها لن تخافَ من محرقة كتب، ولكنَّ قلبه يرتعشُ في صدره..

- لماذا تهمس؟

- لا داعي لأن تعرف.

- الطفلة؟

- الكُتب.

ضحكَ الرَّقيبُ الجديدُ غير مصدِّق. قال:

- الكُتب تعرفُ كل شيء.

- كل شيء تقريبًا، ولكنَّ هذه الكتب.. إنها مجرد كتب أطفال.

- فيها تنانين وساحرات شمطاوات..

- والخير ينتصرُ في النهاية.

- ألا ينتصر الخير؟

زفر العجوز مجيبًا:

- نحن محبوسان في غرفة الأرشيف مع طفلة لكي نقرأ قصَّة ذات القُّبعة الحمراء. لقد هُزم الخير في هذا العالم منذ زمن طويل.

تلفَّت حوله. كادَ أن ينسى كم هو الأمر خطير. إنه لا يقفُ وحيدًا ممسكًا بكتابٍ التقطهُ من العُلبِ صُدفة. إنه يجالس عجوزًا متهمًا بخيانة النِّظام، طفلة ترتدي حذاءً أحمر لمّاعًا وتلطخ شعرها بغبار جنيات، ذئبًا محشوًا، جدة ترفس في البَطن، وعشرات الكتب المصوّرة التي كان يفترض أن تُحرق. إذا..

أخذ قلبه يضرب بجنون وسألَ العجوز:

- ماذا لو رآنا أحد؟

- لقد دفعتُ لعامل النظافة إكرامية لا يحلمُ بها ليحرسَ البوابة.

- وهل يعرفُ ما الذي نفعله هنا؟

- لا يريد أن يعرف.

- وهل تثق به؟

- أثق بقوّة أموالي، إنها سحرية.

وغمز العجوز، فتساءلَ الرقيب الجديد كيف يتسنى له أن يكون رائق المزاج هكذا، ويتحدّث في الوقت نفسه عن هزيمة الخير النكراء التي لم ينتبه لها أحد. في تلك اللَّحظة، تجاسرَ وسأل الرَّجل ذلك السؤال الذي ما انفك يُؤجِّلُه من فرطِ إحساسِه بالهلع.

- هل أحرقوا زوربا؟

6

لا، لم يَحرقوا زوربا..

ليس بعدُ على الأقل. إِنّهم يُحدِّدون يومًا واحدًا في السَّنةِ لحرقِ الكُتب، ما تعرفونه جميعًا بعيد التطهير، ولم يأتِ هذا اليوم بعد. زوربا مدفونٌ في مكانٍ ما، في تلك العُلبِ الملقاة في المخازن المؤقتة، وسيتم ترحيله قريبًا إلى المستودَع.

لم يكن الرّقيب الجديدُ ليصدّق ما يسمع. المحرقة، التطهير، وماذا يكون هذا المستودع؟ في تلك اللحظة أخذ يفكّرُ في الجحيم، رغم أن الجحيم غير موجود، وتساءل إن كان ذلك قصورًا في عقلهِ، أن يتمكن من تخيّل شيءٍ ليس له وجود، ولكن حقيقة وجود محرقة، وتلك الكلمات التي قالها كتابٌ خائف عن أحسن الأزمان وأسوأ الأزمان، كل شيءٍ يحيل إلى كلمةٍ ليس لها مرادفٌ واقعي. وبدلًا من أن يُفضي بأفكاره، وكان قد تحقق لأوّل مرةٍ تقريبًا بأنها أفكاره هو، غمغمَ ببساطةٍ بأنه لا يفهم.

تأفّف العجوز، وأخذ يدلّكُ حاجبيه بضيق. ما الذي لا يمكنك

فهمه؟ الأمر، للأسفِ الشديد، واقعي جدًا، إنها مشكلة عملية، وتحتاج إلى حلٍ عملي، فلا يمكن لأيِّ نظام أن يحتفظ بنسخة من كل كتابٍ قام بمنعِه. سيحتاجون إلى آلاف الفدادين من المساحات لتخزين كل تلك الكتب، هل كنت تتخيّل فعلًا أن الحكومة ستحتفظ بكل تلك العناوين للذكرى؟ صَه! قال رقيب الكتب. لا تذكر الحكومة! ابتسم العجوز؛ أنتَ تتعلّم بسرعة بالنسبة لسرطانٍ جديد. أنا لستُ سرطانًا. ليكُن. وهذا يعني؟ هذا يعني أن عليهم إخلاء تلك المساحات ومنحها للكتب الجديدة التي تُمنع، سجناء جدد في مُعسكرِ الاعتقال، لديهم سنة واحدة ليعيشوها، لكن الكتب الأخرى، الأقدم.. عجائز الكتب، هؤلاء يُحرقون أولًا.

لم يستطع منع سؤاله:

- ماذا عن مكتبة رئيس القِسم؟ لماذا يحقّ له الاحتفاظ بالكتب التي منَعها؟

- لأنه رئيس القسم، وحدهم الذين يضعون اللوائح يحقُّ لهم كسرها.

هذا ليس عدلًا. تمتم. حكَّ العجوز حاجبه مبتسمًا:

- إنه يحتاج إلى تلك المكتبة لتحفيز بقية الرقباء، هذا على الأقل ما يقوله.

- وهل تصدّقه؟

- أنا وهو متفاهمان على بعض الأمور، كلانا يريد تلك المكتبة لسببٍ مختلف، لذا، لستُ مضطرًا لفهمه.

- ولماذا تدخّل لإنقاذك من السجن؟

- إن بيننا تاريخًا مشتركًا.

سادت دقيقة صمت. طأطأ الرّقيب، ثم استجمع شجاعته ليسأل:

- كم كتابًا يُحرق كل سنة؟

- كم كتاب؟ الأمر يتوقف على عدد القادمين الجدد..

أحسَّ الرّقيب الجديد بالظلام يطبق على قلبِه، ولأول مرةٍ فكّر بأنه لا يريد العيش في هذا العالم. إنه يخيفه. ورغم أنَّ الكتب تمثلت له مرارًا في صورة كائنات شريرة تخطِّطُ للسَّيطرة على العالم، ورغم أنّها تكاد تطرده من بيتِه تقريبًا، ناهيك عن كونها عضّت زوجته، إلا أنه لم يحتمل فكرة حرقها. كان يظنُّ المنع عقوبةً كافية، وهي كائنات مشاغبة بالفعل، مليئة بالسرطانات الصغيرة التي تدس أجسادها في الرمل، يعرفُ ذلك، يعرفه جيدًا،

ولكن المحرقة تبدو أكثر مما يمكنه احتمالُه. وتخيّل، رغمًا عنه، ما تحسُّ به كل تلك الكتب المعتقلة في المستودع، وهي تنتظر عيد التطهير. الأحاديث الجانبية التي تقتل بها الوقت، كيلا تفكّر في المحرقة. كانت، بكل تأكيد، ستتكئ على بعضها البعض، لتهدئة رعشاتها، في تلك العربة الخشبية التي يجرها حصانٌ عجوزٌ إلى الموت. **كان ذلك أسوأ الأزمان بكل تأكيد، ولم يكن معنا أي شيء.**

نظر إلى الكتب الملقاة على الأرض من حوله، إلى كوخِ السَّكاكر وحبَّةِ الفول والفاصوليا السِّحرية وبلاد العمالقة. كان قلبه يرتعشُ مرة أخرى، مثل عصفورٍ مبتل..

- إذن، فهذه الكتب هي الوحيدة النّاجية من المحرقة؟

ابتسم العجوز يجيبه:

- لا طبعًا.

- هل أنقذت كتبًا أخرى؟

- بالتأكيد.

- وأين تخفيها؟

- سبق وقلت لك، أستطيع تعليمك كل ما أعرفه، كيف تخترق النظام، كيف تنقذ الكتب..

- لماذا تعلّمني كل هذا؟

- أنا عجوزٌ جدًا.. أخشى أن أموت قريبًا.

- وإذا مت؟

- سأترك ورائي آلاف الأيتامِ من الكتب.

- وتريد مني أن..

- أن تكون حارس المكتبة.

7

«من أنا؟ أفصِحوا لي عمّن أكون؟ وإذا راقَ لي أن أكون ذلك الشَّخص، عندها سَأخرج من الحُفرة، وإلا فَلَسوف أبقى هنا إِلى أَن أَصير شخصًا آخر..

هل تمّ تغييري أثناء الليل؟ لنفكِّر في الأمر؛ هل كنتُ أنا نفسي حينما استيقظتُ هذا الصباح؟ أتذكّر إِحساسي جيدًا بأني صرتُ مختلفًا بعض الشيء عنّي أمس، وقبل أمس حتى، قبل ذلك الكتاب. لكن إذا لم أكن أنا نفسي، فيجب التساؤل إذن؛ من أكون؟

أعرفُ من كنتهُ عندما استيقظتُ هذا الصباح، لكن أظن أني تحوّلتُ عدّة مرّات منذ ذلك الحين»..

ثمَّ أحسَّ بيدِ زوجته تهزّه برفق. «أنتَ تتكلم في منامِك». قالت.

عادت تتمدَّدُ بِجانبهِ وتلفُّ ذراعه حول وسطِها. هل يمكنكَ أن تحلُمَ بِصمت؟ إنها ليلتُها الأولى معَه، في السَّرير، منذ أن

عضَّها كتاب. لقد عرفتْ أخيرًا بأن الكُتُب لن تذهبَ إلى أيِّ مكانٍ في المستقبلِ القريب. وعندما بدأ، في الأيام الأخيرة، يُظهر أعراضًا مُقلقة في اللَّيل؛ الصُّراخ، الضَّحك، المشي أثناء النوم، والرَّقص حتّى.. عرفت بأن عليها أن تكون إلى جانِبِهِ تحسُّبًا لحدوثِ أمر. وأنَّ على الكتب بدورِها أن تقبل وجودها بصفتها واقعًا. الواقع شيءٌ لا يمكن إزاحته، ولا بمليون كتاب. كانت زوجته تؤمن بذلك، ولكنه ما عاد متأكدًا من الأمر.

لم يكن يتحدث في نومِه، كان يقرأ! يقرأ سطورًا وسطورًا تضخها أَلِس في رأسهِ وتجعلُها شيئًا يخصّه هو. من أكون؟ أخذ يد زوجته وضغطها بقوّة على صدرِه. كان يتساءل إن كانت قادرةً على إخماد هذا الشيء اللعين الذي يستيقظُ في داخلِه، وهي ظنّت أنه يريد أن.. لا. ليس الآن. نامي. أراحت رأسها على صدره. هذا أفضل. الرأس أثقل، وهو يحتاج إلى الثقل، شيءٌ يشدّه إلى الأرض لأنه بات يطفو، يطفو طويلًا في تلك الحُفرة الطويلة جدًا. تساءل لماذا لا يمكنه أن يستمتع بما يقرأه وحسب؟ لماذا عليهِ أن يأخذَ كلَّ سَطرٍ من تلك الكُتب، عَميقًا إلى حياته، إلى نوباتِ هَلعِهِ، وسريره، وطفلته حتى.. أنتَ بخير؟ سمعها تهمس. ما زالت امرأتهُ مستيقظة. ضمّها إليه أكثر. كان ممتنًا لعودَتها، وأحسَّ أن في صدره ثقبًا هائلاً عليها أن تملأه. لكنها لم تكن كافية لذلك الثقب، إنه سيبتلعها أيضًا ويذهب بها إلى مجاهل بعيدة، وهو لا يريد أن يقلق بشأنها أيضًا.

اعتادت عيناهُ على ظلام الغرفة وأخذَ ينظر إلى أعمدة الكتبِ

المتطاولة أمامَه. حدّق في الكتب، والكتبُ أيضًا حدّقت به، كانت تسأله؛ ماذا تنتظر؟ وكان ينتظر أن يعرف من هو. كان يعرف من هو، قبل ذلك الكتاب، لكنه ما عاد يعرِف شيئًا؛ رقيبَ كُتبٍ أم قارئ؟ حارسُ السَّطحِ أم حارسُ المكتبة؟ كان عليهِ أن يختار، وأن يُبلغ السِّكرتير بقراره.

منذ حوارهما الأخير وهو يتحاشاه، رغم أن الطفلة تذكرهُ، كل يومٍ تقريبًا، وتتوسّل إليه كلَّ صباح أن يأخذها «إلى المكان الذي تذهب إليه القصص»، وكان العجوز، بحسبِ زعمها، يحفظ حكاياتٍ أكثر من الجدة في بطنِ الذئب. لعلّه كان الشخص الوحيد الذي لم يعاقبها على اختلافها. بالأحرى، كافأها عليهِ، وعندما انتهت ساعاتُ العَملِ في ذلك اليوم، وكان على وشكِ أن يغادر، لمح في عينِ العجوز خوفًا حقيقيًا. احرسها جيّدًا. قال له، هل كان يعني المكتبة، أم الطفلة؟ إنها في خطر هنا. أحسَّ بقلبه ينقبض. كان يعرف ذلك، ولكن ماذا عساهُ أن يفعل، وأين يفلتُ بها وهي مرئية إلى هذه الدرجة؛ مُختلفة، مُلوَّنة، ساطِعة، مليئة بالقصص، متبوعة إلى الأبد بكائنات المخيّلة. أنت لا تستطيع الاستمرار هكذا، سوف يُفتضح أمرك. زفرَ ونكّس رأسه. سوف تتحسَّنُ الأمور، سوف تتكيّف. صعّر العجوز خدّه وطأطأ. زمَّ شفتيه: إن أسوأ ما يمكن أن يحدث لطفلةٍ كهذه هو أن تتكيّف. قال ذلك ثم قرص خدّ الصغيرة برفقٍ. انتظر ربع ساعة، ثم غادِر المخزن. يجب ألا يرانا أحدٌ معًا. أومأ. إنها فكرة سديدة. افترقا، وهو يتحاشاهُ منذ ذلك اليوم. لأنه ما عاد يعرفُ مكانه؛ من يفصح له عمن يكون؟ إذا

أغمض عينيه، وسقط في حفرة الحلم، وحلم بأنه يقرأ أفكاره التي هي أفكار أَلِس أيضًا، إذا دلّه قط الشيشاير على دودةِ القَزّ التي تدخن النارجيلة وسألته؛ من أنت؟ بماذا سيرد. أعرفُ من كنتهُ قبل ذلك الكتاب؛ كنت حارسًا لسطح العالم، ثم سقطت في حفرة. ربما ستخبره دودة القز بأنها ستتحول إلى يرقة، ثم إلى فراشة، ثم ستعطيه قطعة من الفطر تجعله يكبر؛ من حارس السطح إلى حارس المكتبة. من موظف حكومي إلى خائن. من مواطن صالح إلى سرطان. سوف يُقبَضُ عليه يومًا، لأن النِّظام يَنتصرُ دائمًا. سيأخذون ابنته إلى مركز إعادة التأهيل، ويحاكمونه بتُهمة خيانة النظام. لقد هُزِم الخير منذ زمنٍ طويل على ما يبدو، وهو يعرفُ هذه اللعبة إلى درجة أنه لا يريد أن يلعب.

مرّة أخرى، كان يفكّرُ في الجحيم. الكلمة التي أزيلت من الكتب المقدسة، والشروحات والتفاسير وكتب الصلوات، عندما قرّرت الحكومة أنَّ على المؤسسة الدينية أن تكون واقعية؛ لا جنة ولا جحيم بعد اليوم. لقد فككوا الرُّموز تمامًا، الجنَّة هي السَّعادة والجحيم هو التَّعاسة. بعد الثّورة، شكَّل الحزبُ لجنةً من رجالِ الدّين المجدِّدين وأوكلوا لهم مُهمة الإصلاح الديني؛ ابتداءً من تقليم المتون المقدّسة وانتهاءً بكتابة التفاسير. كان الهدف من اللَّجنة هو تخليصُ النُّصوص من معناها الباطني، حتى يصير بوسعك أن تقرأ الكتاب المقدّس كما تقرأ دليل الهاتف.

أغمض عينيه. لقد حسمَ أمرهُ. سوف يذهبُ في الصَّباح لرؤية السِّكرتير ويخبره بأنَّه لن يَصير حارسَ المكتبة، وأنّه إذا ما

فاتحه، مرَّة ثانيةً، بالأمر، فسيجد نفسهُ مُضطرًا لإبلاغ السُّلطات. سيُعيد إليه نسخة ألِس، ولن يطالب حتى بنسخته من زوربا. سوف يطلبُ منه أن يبقى بعيدًا عن حياته، وألا يبادله الكلام، أو النَّظر، وسيعودُ بكلِّ بساطةٍ إلى مكانه المريح على سطحِ العالم، يقرأ كتبًا لا تقول شيئًا. يجيزها ويملأ بها المكتبات. وبعد سنوات، عندما يحصلُ على الترقية اللازمة، ويكتسب الخبرة الضرورية، ويسمحوا له، رسميًا، بفحصِ الرِّوايات، سيكونُ قد فات الأوان كثيرًا على أن يؤثّر به كتاب، حتى لو كان زوربا. سيكون قد غلّف نفسَه بتلك الصَّدَفَةِ القاسِية التي تبقيهِ مُحصّنًا ضدَّ المعنى.

حياةٌ عادية، لإنسان عادي، لن يتساءل، ولا حتى للحظة واحدة في حياته؛ من أنا.

8

.. لكنه لم ينم.

أشعلَ الأضواء، وطلب من زوجتهِ أن تغادر. نامي مع الصَّغيرة. ولكن! أحتاج أن أعمل. تعمل؟ أعمل. في الثالثة فجرًا؟ أرجوكِ.. لم تبدُ مسرورة عندما غادرت، لكنّه أدار المفتاح في ثقبِ الباب مرّتين، وأخذ يرصُّ الكتب في كلّ ما لديهِ من أكياسٍ، وعلبٍ ورقية. كتابًا بعد كتابٍ بعد كتاب. لقد قرَّر أن يتخلّص منها جميعًا. كان يعرفُ، على نحوٍ ما، بأن الأمرَ سينتهي بهذه الطريقة؛ الكتبُ أو هو. حتى الكتب لن تلومَه على إنقاذ نفسه، وهو بالتأكيد غير قادر على إنقاذها. سوف يعيدها إلى المخازن ببساطة، كأنها لم تغادِر قط.

أخذ يحملُ الأكياسَ والعُلب الورقيةِ الثقيلة إلى سيارته. زوجته في غرفة الجلوس، تحدّقُ فيه بعينين جاحظتين، تتساءل عما اعتراه، ولماذا الآن. أين تذهب بكل هذه الـ.. إلى الهيئة؟ الآن؟ كيف يمكنك الدخول خارج ساعات العمل. سأتدبر الأمر.

لماذا الآن؟ يجب أن أعيد كلَّ شيء، إنها ملكُ الحكومة، كل شيءٍ هو ملكُ الحكومة.. وفي تلك اللحظة تذكّر طفلته، بعينيها الصغيرتين وهزالها الحزين، لكنه طردَ صورتها من رأسِهِ وهو يضع آخر علبةٍ في المقعد الخلفي من السَّيارة. أنا آسف. همس. كان يعرفُ ما يعنيه ذلك؛ أن تُحبس في المستودع لسنة كاملة، ثمّ..

أغلق البابَ بقوّة. ليس مُضطرًا لأن يكون بطلًا. عندما وضعَ يدهُ على مِقبض البابِ، ولثوانٍ، خُيّل له أنه رأى ظلًا على الرَّصيف. عندما رفع عينيهِ، رأى رجلًا تائهًا بين البيوت المتراصّة في الحيّ. نظر إليه الرَّجل فأشاحَ عنه بعينيه. ابتسم الرَّجل لرؤيته. هيه! كان على وشك أن يسأله، لكنّه ألقى بِجسدِهِ داخل السَّيارة بسرعة، شغَّل المحرِّك وغادر المكان، كل شبرٍ من جسده ينتفض. إنها الثالثة فجرًا، لا أحد يتمشى على الأرصفة في هذه الساعة. لا أحد سوى الجداجد، والخفافيش. لكن ليس رجلًا كهذا، ليس ذلك الرّجل. إنه يهذي، وهذا مفهوم، فهو لم ينم منذ أيام، ويمكن أن تختلط الأمور ويظنُّ نفسه فجأة داخل كتاب، أم تراه الكتاب صار في داخِله؟

قاد السّيارة بسرعةٍ حتى وصلَ إلى الهيئة. ركنَ في مكانٍ قريب، رأى مصباحًا مُضاءً في غُرفة الأمن عند المدخل. طرق النافذة بطرف أصبعه، كان الحارس نائمًا على المقعد. فزَّ مذعورًا. لقد نسيتُ أوراقًا مهمة في مكتبي. نظر إليه الرَّجل غير مصدّق. إنها الثالثة فجرًا. سيكون الأمر سريعًا. قال وهو يعرض شارته للرجل. شارةُ رَقيب الكتب. إنه رجلٌ يعرف من هو ولن يرتبك

بهذا الصَّدد بعد الآن.

هزَّ الحارسُ رأسه؛ «البابُ مفتوح». ولكن من الذي فتح الباب، وفي هذه الساعة؟ سأل الرقيب الحارس؛ هل يوجد أحدٌ في الداخل؟ أومأ الحارسُ وتثاءب؛ إنه يجردُ المخازن. من؟ لا أدري. تمطّط مليًا؛ إنه ذلك الكهل.

لسببٍ ما، لم يُساوره خوف. كأنه كان يعرف ما سيعثرُ عليه في الجهة المقابلة. قرّر أن يبحث عن عربةِ نقلٍ. لكنه عندما سار في الممرات الرخامية، في تلك الساعة، أحسَّ نفسه في مكانٍ مختلف. إنه المكان نفسه، ولكن في نسخته الليلية، لأن الأرانب أكثر، ورائحة الملفوف أكثر حدّة، وثمة موسيقى غريبة تنبعث من مكانٍ ما. كان عليَّ أن أعرف! هذا العجوز! سار بخطواتٍ ثابتة، إلى ذلك المكتب. لقد كان الرَّجل في انتظاره منذ البداية! كان ينتظره هنا، كلَّ ليلة، ينتظر أن يفقد صوابه ويعود إلى هذا المكان ليفتّش عن الكتب؟ ما الذي يجولُ في رأس هذا المجنون؟ ولماذا تتقافز الأرانب هكذا؟

قطع الممرَّ حتى آخره، انعطفَ يمينًا. كان العجوز يجلسُ على مكتبه، مادًّا ساقيهِ على سطحِ المكتب، يقرأ في كتاب. كان في الغرفة سبعة أرانبَ بيضاء، بعضها يغط في النوم، البعض الآخر يأكل من سطلٍ مليء بأوراق الملفوف. تهلّلت ملامح العجوز لرؤيته. ابتسم. هل أتيتَ أخيرًا؟

وأحسَّ الرقيب الجديد بأنه غير متفاجئ حتى. من السؤال، من وجوده في الهيئة في هذه الساعة، من الأرانب وكل شيء آخر. لقد تجاوز كل هذا الجنون، وقد جاء خصيصًا كي يضع حدًا لبلاد العجائب. نعم. قال، وكأنه يعرف ما يفعل.

- أتيت لأعيد إليك ألِس.

رفع العجوز حاجبيه. ثم زمّ فمه. زفر، وخلع نظارتيهِ ليدعك جفنيه. لقد فهم ما يعنيه ذلك. سأله؛ وأين هي؟ في السيارة، مع الكتب الأخرى. الكتب الأخرى.. هل نشلتها؟ كنت سأعيدها. متى؟ عندما أقرأها. وهل قرأتها؟ ليس كلها. ولماذا تعيدها إذن؟ لا أريد أن أقرأ أكثر. ابتسم العجوز؛ انظر إليك، إنك سرطانٌ بالفطرة! أنا لستُ سرطانًا. نخر الكهل؛ أي هدرٍ للموهبة! أريد أن تدعني وشأني. لقد تبعتَ الأرانب! هي التي تتبعني. أنت تعرف ما سيحلّ بتلك الكتب، أليس كذلك؟ لا أريد أن أعرِف. لا يمكنك ألا تعرف ما تعرفه. لديَّ ابنة، إذا حصل لي شيء.. لن يكون هذا أسوأ شيء. ماذا تقصد؟ ماذا لو لم يحصل شيء، ماذا لو استمرَّ كل شيء كما هو؟

تذكر طفلته؛ زي الأميرات وغبار الجنيات والحذاء الأحمر والجدة في البطن والذئب في الدولاب، هل ستعيش؟ هل ستصمُد في جلساتِ الكهرباء، أمام شاشاتِ غَسيلِ الأدمغة، مع كلِّ تلك العقاقير. وإذا صمدت، هل ستعود طفلةً بأيِّ شكل؟

تمدَّد العجوز في مقعده ثانية، رفع قدميهِ على المكتب. مطّط ساعديْه يتثاءب.

- لقد أمضيتُ الليلة بطولها في المخازن لأجلِك..

- لأجلي؟

- كنت أبحثُ عن زوربا.

أحسَّ الرقيب بقلبهِ يئن. صرَّ على أسنانه وقبض أصابعه إلى راحتيه. كان عليه ألا يسأل.

- هل وجدته؟

- وماذا تظن؟ إننا نحتفلُ بهذه المناسبة..

وأشار برأسه إلى الأرانب المنهمكة في أكل الملفوف.. ثم فتح درج المكتب وأخرج منه الرواية، غلاف أبيض على سطحه ظل رجلٍ يرقص. الظل نفسه.

- كنّا سعداء من أجله.

- من أجل زوربا؟

- ظننّا أنك أنقذته.

- أنا..

- من المحرقة. ظننا أننا لن نضطرَّ للقلقِ بشأنِه.

مسحَ على الكِتاب برفقٍ، كمن يربّت على رأس جَرو. يا للخسارة. تمتم. وكان رقيبُ الكتب في تلك اللحظة قد ترك زوربا، والعجوز. والأرانب، والموسيقى وراءه. وسار باتجاه المخزن، ليعثر على عربة، يضع عليها كل الكتب، ويحوّل نفسه، بشيء من التصميم والإرادة؛ من قارئ إلى رقيب كتب، من عاشق إلى حجر، من فراشة إلى يرقة. يمكن تحقيق ذلك. يمكن للمرء أن يتصرَّف وكأنه لم يولد مرة أخرى، وأن يعيد الذاكرة إلى تلك اللحظة؛ قبل أن يلتقي الرَّجل الذي يرقص في جزيرة. ولكن ماذا لو لم يحصُل شيء؟ ماذا لو استمرَّ كل شيءٍ كما هو؟ كان يتساءل وهو يدفع العربة باتجاه السَّيارة، ليضع عليها العُلَب والأكياس. كانت الكتب تصرخُ في أذنيه؛ اختلطت أصوات الشخصيات، وشعر بأنه شاهدٌ على مجزرة؛ السيقان، الأذرع، الأطفال، العجائز، كلهم رماد. أجهش. هذه الكتب ملك الحكومة. كل شيء هو ملك الحكومة. حتى الطفلة، بمجرد أن تنتبه السُّلطات إلى أعراضها سيأخذونها ولن يراها بعد ذلك أبدًا. ماذا لو استمرَّ كل شيءٍ كما هو، في عالمٍ هُزِم فيه الخير منذ زمن طويل؟ كان ينشجُ،

يمسح دموعه وأنفه بطرف كمّه وهو يرصُّ العلب بجانبِ بعضها البعض.

نظر إلى كُعوب الكتب المرصوصة في العلب. مسحها بيدِه. **أفصِحوا لي عمن أكون**، أراد أن يصرخ، ولكنه يعرفُ بأن كتبًا من هذا النوع لن تمنحه إجابات؛ المزيد من الأسئلة وحسب. سمع قرع نعلٍ خلفه. كان العجوز..

- هذا أنت؟

- ومن غيري؟

- ظننتُ أنك زوربا.

ابتسم العجوز، غمغمَ:

- لن يروقه المكان هنا.

- وماذا سنفعل؟

- بشأن زوربا؟

- لا..

بلعَ ريقه، وأحسَّ بصوتِهِ يرتَجِف.

- كيف أصبح حارسًا للمكتبة؟

الفصل الثالث

جمهورية الأخ الكبير

1

«.. لا بأس، فقد انتهى النِّضال، وها قد انتصرتُ على نفسي، وصرتُ أحبُّ الأخ الكبير».

عندما قرأ آخرَ سَطرٍ في الكتاب أطبق دفّتيه بقوّة، وأخفاهُ في دُرجه السُّفلي، تحت كتبٍ أخرى وقُصاصاتٍ وعلبِ أدوية وكل ما يصلحُ للدَّفن، في منضدةِ غرفةِ نومه، ثم دسَّ نفسهُ تحت الأغطية، يرتجف. لم يساورهُ الشكُّ لحظتها بأنه قد قرأ كتابًا ملعونًا، لن يعود أيُّ شيءٍ بعده كما كان.

كانت الكلمات تهتزُّ في أعماقه، مثل فَسائل تجرحُ جفافَ الأرض، وفكّر بأنه لو نسيَ الكتاب مفتوحًا في صفحةٍ ما، فقد يتسلّل منه الأخ الكبير ليحوّل حياتهُ إلى جحيم. ثمَّ ابتسم لفكرته؛ لا بدَّ وأن أمرًا كهذا قد حدث منذ سنواتٍ طويلة، وإلا، أيُّ مدينةٍ هذه؟ لقد أخبره السّكرتير بأنّهُ لا يستطيع أن يصبحَ حارسًا للمكتبة قبل أن يقرأ ذلك الكتاب. كتابٌ واحدٌ فقط، قال، ولكنه لا يشبه أي شيءٍ قرأته. وإذا كنتَ قد قرأتَ كتبًا ممنوعةً من قبل، فإن هذا الكتاب هو

أبُ الممنوعات جميعها. اسمعني جيّدًا، يمكنُ أن يقبضوا عليك وأنت تقرأ كتابًا ممنوعًا، ثمَّ يوقّعونك على تعهّدٍ بعدمِ معاودة الفعل، ولكن ليس هذا الكتاب، هذا الكتاب، إذا قبضوا عليك برفقته، سوف تختفي من الوجود كأنك لم تكن.

حتى تلك اللحظة لم يكن قد قرأ منه سطرًا.

- ولكن لماذا؟

زمّ العجوز شفتيهِ:

- لأنّه يَحكي قصّتنا.

ارتجفت أطرافُ أصابع العجوز، وهو يمدُّ يدهُ على مهلٍ ليلتقطَ الرِّواية. كان قد نزعَ عنها الغِلاف، وغطّاها بغلافٍ كاذبٍ، لكتابٍ أصدرتهُ الهيئة، عن آخر ما حققته مختبرات الدولة في حقل التطوّر الوراثي. لاحظ رقيبُ الكتب أصابعَ العجوز ترتجفُ. كانت تلك أوَّل مرة يراهُ فيها خائفًا. دسَّ الكتابَ تحت إبطه وهمّ بالمغادرة. استوقفه السكرتير: هل جُننت؟ وهمسَ؛ لا تمشِ والكتاب في يدك، ضعه في كيس! ولم يفهم الرّقيب جدوى الغلاف الكاذب إذا ما كان سيخفيه، ولكن العجوز لم يمهله: «بعد أن تقرأه عُد إليّ لنتكلم. لا تأتِ في النهار، يجب أن نكون أكثر حذرًا الآن، تعال في الليل، سأكونُ هنا». رفعَ رقيب الكتب حاجبيه يرمق العجوز بطرفِ عينه.

- ألا تنام؟

- وهل تنام أنت؟

وبدا له أنَّ الأمورَ قد بلغت حدًا من الغرابة، حتى أنه ما عاد يستغربُ شيئًا. إن لبلاد العجائب منطقها الخاص، أو لامنطقها الخاص. ولكنّه لم يدرِ بأنه كان على وشكِ أن يغادر بلاد العجائبِ، فعلًا، ويدخل جمهورية الأخ الكبير. «**شعر رقيب الكتب بأنه تائه في غابات قاتمة في أعماقِ البِحار، وأنه تائهٌ في عالمٍ وحشي، حيث هو نفسُهُ ذلك الوحش. كانت شِعارات العالم الجديد تبدو له مرئية بوضوحٍ غير مسبوق؛ الحرب هي السلام. العبودية هي الحرية. الجهلُ هو القوّة**». عندما وصل إلى تلك المرحلة من أفكارِه، أفكار الأخ الكبير، صارَ يحنُّ إلى الأيام التي كانت فيها ألِس هي الصَّوت الوَحيد داخل رأسِه. حتى ألِس لن تصمدَ في جمهورية الأخ الكبير، والأرجح أنها سوف تُغرق العالم بدموعِها، فالشيء ليس هو، ولا نقيضه، إنه ما تريدهُ الحكومة، و2+2 لا يمكن أبدًا أن يساوي أربعة.

عندما أنهى قراءة الكتاب كانت السّاعة قد تجاوزت الثالثة عشرة ظهرًا. لكنّه قرَّر أن ينتظر اثنتي عشرة ساعة أخرى، حتى يلتقي بالسكرتير. انتظر حتّى خيّم الظلام، ثمَّ وجد نفسهُ واقفًا أمام المبنى الهائل لهيئة الرَّقابة، وعرفَ بأنه يقفُ، في الحقيقةِ، أمام وزارة الحقيقة. كان ثمّة خطٌ وهمي يفصلُ بين المخيّلة والواقع،

شيءٌ يشبهُ خطّ الاستواء، ولكنه اختفى تمامًا بعد ذلك الكتاب. «**ثمَّة دوّامة من الرّيح محمَّلة بذرّاتٍ من الغبار، تدلفُ معه من المدخلِ الزُّجاجي. كان الممر الذي يجتازه عابقًا برائحة الملفوف**»، وتساءل إن كانت هذه رائحة ذاكرته، أو الكتاب في رأسه، أم أنها رائحة تنبعث من مكتب السكرتير، معقل الأرانب. لقد عرفَ في تلك اللحظة أنّه مواطنٌ في تلك الجمهورية، وموظفٌ في وزارة الحقيقة، وأن الحقيقة هي ملكٌ للحكومة، ولها وحدها حقُّ التأويل. **أنتَ مجرِمُ فِكر!** سمع صوتًا ينبعث من داخله، كان صوتَ طفل، لكنه لا يشبهُ صوت أَلِس. وفكّر لحظتها بأن هذا هو ما يفعله الأطفال، إذا لم يموتوا في مراكز إعادة التأهيل، إنهم يحرسون سطح العالم.

عندما وصل إلى مكتب السكرتير، فوجئ بأنه لم يكن يقرأ. كان يعبثُ بقطعةٍ من لحاء الشجر، لا يدري من أين جاء بها.

- ما هذه؟

ابتسم العجوز وهو يخلع نظارتيه. أجابه:

- قبل أن آتي إلى هنا، كنتُ نجارًا.

- لا يمكنك صناعة شيءٍ من هذا اللحاء..

- أعرف.

زفرَ العجوزُ بضيق.

- إنني أشتاقُ إلى الرائحة، إنها رائحة طفولية جدًا. ألا تظن؟

وفكّر رقيبُ الكتب بأن السكرتير مكتئبٌ جدًا. وأنَّ النِّظام قد نجح أخيرًا في اختراقه من الداخل، والأرجح أن هذا هو ما تفعله الأنظمة، إنها دودة تبتلعها في صغرك لتشرعَ بالتهامِك طوال حياتك. ومرة أخرى فكّر في ابنته، هل يحاولُ إطعامها دودة الحكومة يا تُرى؟

أخذ العجوز يتفحصه في صمتٍ، كأنه يبحث في وجهه عن آثار ذلك الكتاب، كدماتِ معرفة الحقيقة التي لا تخطئها العين، رضوضٌ أحدثتها جملٌ وكلمات. لأن خطّ الاستواء مجازٌ آخر، والحدُّ الفاصلُ بين الواقع والمخيّلة متخيّلٌ بدورِه. لقد أصبح يفكّر مثل سرطان.

سأله السكرتير:

- أنت خائف؟

- نعم.

- جيّد.

نهض العجوز من مكانِه وقال للرّجل:

- اتبعني.

2

«الوجود الإنساني شقاء.

أصلُ الشقاء هو الرّغبة.

أصل الرغبة هو المخيّلة».

هذه المرة، كان الصَّوت المنبثق من رأسِهِ هو صوتُ النّظام، وهو صوتٌ إذاعيٌ رنّان، يقلّبُ الحروفَ في لسانِه مثل نواةِ فاكهة، يتمضمضُ بها أحيانًا، ويبصقها في أحيانٍ أخرى. صوتٌ يتكئ على الكلمات حتى يكادُ يكسرها، وكانت الكلمات تتهشّم مثل أغصانٍ هشةٍ تحت حذاءٍ عسكري. كان صوتًا بشارب، وكان صوتًا كاكيَّ اللون.

لقد أصبح حارسُ المكتبة يفهم العالم من خلال الاستعارات وحدها.

وفيما كان يمشي وراء العجوزِ الهزيل في الممرات الرخامية

المعتمة، تساءلَ؛ ماذا لو كانت هناك شاشات رصدٍ في الهيئة أيضًا؟ ولكنَّ العجوز لا يبدو قلقًا، ولو كانوا يراقبونه فعلًا، لكان زُجَّ بهِ في السِّجن منذ سنوات. وهو الأمر الذي لا يستطيع فهمه. أيّ نوعٍ من الانفلات الأمنيّ هذا؟ أمّ أننا قد بلغنا فعلًا هذا الحد، حيث كلّ مواطنٍ في البلاد هو مجرد نسخة أخرى من الأخ الكبير؟

لا زال يشعرُ أحيانًا بأنه مواطن نموذجي، منزعج من عدم اكتراث الحكومة لقضايا الأمن القومي، وينسى أنه جزءٌ من خلية سرطانية صغيرة تحاول اختراق النظام. وتذكّر ما قرأه في كتابِ الأمس عن «التفكير الازدواجي»، ولكنه هشَّ على الفكرة من فورِه، لأن التفكير الازدواجي يتطلب إنكارك له بقدر ما يتطلب إدراكك له.

هل قرأ هذه الأشياء في كتابِ الأمس أم أنه عاشها فعلًا؟ كانت فكرة العالم الجديد قائمة على إنسانٍ قادر، بشكلٍ أو بآخر، على الإفلاتِ من قدرهِ في العود الأبديّ إلى الماضي. هل نجحوا في ذلك يا تُرى؟ لقد تمّت تنشئته، في البيتِ والمدرسة، على أن هناك ثلاث رغباتٍ أساسية ومشروعة؛ **الرغبة في الانتماء، الرغبة في الإنجاب، والرغبة في العمَل.** كلُّ ما عدا ذلك، كان فوائضَ سامّة، وكانت جهود المؤسسين الأوائل تصبُّ في التخلّص من الخياراتِ غير الضرورية. لقد توصل المؤسسون الأوائل إلى نتيجة منطقية في غايةِ البساطة (والعبقرية حقيقة!) وهي أنَّ شقاء الإنسان، وأسوأ غرائزه قاطبة، ترتبطُ بشكلٍ وثيق بقدرته على تخيّل الممكن. في زمنٍ ما، كان البشر يسعون لصناعة إنسان آليٍ

شبيه بالإنسان. اليوم، صاروا يسعون إلى صناعة إنسانٍ شبيه بالإنسانِ الآلي.

منذ اليوم الأول وحتى هذه اللحظة، عملت الحكومة بدأبٍ على سدّ منافذ المخيّلة؛ تحريم فائض المعرفة، الانقلاب ضد ثورة الاتصالات، وما كان يعرف باسم الانترنت. تقنين الطاقة، وإباحة شكلٍ واحدٍ للعلاقات الجنسية؛ رجل وامرأة وعقد زواج. حتى المتاجر والمطاعم تخلّصت من 80% من بضائعها واكتفت بتوفير الضَّروري وفق المراسيم الجديدة التي أصدرتها «وزارة الوفرة». لم يكن هذا هو اسمها في الواقع، بل وزارة التجارة، ولكن يصعبُ عليهِ ألا يتّفق مع السِكرتير بشأن الكتابِ الأخير؛ إنه يحكي قصّتنا. ولم يستطع كبح تخيلاته؛ ماذا سيحدث، في نهاية الأمر، عندما يكتشف الجميع بأن الشَّخص الوحيد الذي كان قادرًا على فهمِ الأمر، كما هو، هو طفلة عمرها خمس سنوات، ملطخة ببودرة الأطفال؟

سار بصمتٍ خلف العجوز، وهو يمعنُ النظر في نتوء عظام ظهره، والتقوُّس الحزين لكتفيهِ، والاكتئاب الذي تشيعه الهزيمة في الرّوح، دودة الحكومة التي تنخرك من الداخل. لقد ملَّ من هذه اللعبة، ولهذا السبب اعتزم تجنيده. توجّه الاثنان إلى المخزن المؤقت، المكان ذاته الذي تحدّثا فيه لأول مرة، مع كثيرٍ من الكتبِ المصوَّرة، وطفلةٍ، ودمية ذئبٍ محشوة وجدةٍ افتراضية.

تربّع العجوز على الأرض، وجلس الرَّجل قبالتهُ. كان وقتها

قد اتخذ قراره بشأن الجحيم؛ إنَّ الجحيم هو المكان الذي يتلاشى فيه الفارق بين المخيّلة والواقع. بادر العجوز بسؤاله: قُل لي.. وأطلق حشرجةً غريبة من صدرهِ، ثم أضاف:

- هل تعرف أين توجد أعظم مكتبةٍ في العالم؟

هزَّ الرجل رأسهُ نافيًا. من أينَ له أن يعرف؟ إنه لم يرَ مكتبةً في حياتِه، ومتاجرُ الكتبِ ما عادت تبيع كتبًا؛ إنها تبيع السَّجائر، وقناني الماء، وشطائر الديك الرومي، والبناطيل الكاكية. إنها أسواق مركزية تتضمن كتبًا، كتبًا عن «البوح» و«الآهات»، تلقن قارئها درسًا في السعادة والنجاح، كتبًا لا تثير اهتمامه.

لقد أحبَّ مكتبة رئيس القِسم كثيرًا، لكن ليس لدرجة الاعتقاد بأنها أعظم مكتبةٍ في العالم، لا بدَّ وأن هناك مكتبة أكبر، أكبر حتى من مبنى النّصر، أو وزارة الحقيقة. مكتبة مدوِّخة، أبدية، يمكنُ له، بشيءٍ من الحظ، أن يفقدَ الوعي في حضرتها، مثلما يحدث لشخصياتِ الرِّوايات التي قرأها، عندما يمسُّهم المُطلق. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يفكّر فيها بأن المكتبة هي أقرب شيءٍ تملكه البشرية لفكرة المطلق.

تذكّر أن لوزارةِ الحقيقة ثلاثة آلاف غرفة فوق الأرض، فضلًا عن أقبية كثيرة تحتها. لم يكن في المدينة كلها أبنية بهذه الضَّخامة، لا مراكز إعادة التأهيل، ولا حتى المختبرات. ولكنّ الفكرة في ذاتها تجعل قلبه يرقص، وقد امتلأ رأسهُ بحجراتٍ

لانهائية من مصفوفةِ الكتب. لقد اختبر هذا الشعور مرة، الدُّخول في النَّفق الدُّودّي، السَّفر عبر الزَّمن، الخُروج من الجسد والحُلول في زوربا. أو أيًا كان.. لقد أصبح يفهم ما حدث له على نحوٍ مختلف، وقد سرّته تأملاته، لأن رؤية أفكارهِ هكذا، من داخل رأسه، تشعرهُ بأنه ناضج. وقد كان، قبل ذلك الكتاب، مجرد رقيب كتبٍ وحيد على سطح العالم، أما الآن، فها هو يفكّر في قوانين الفيزياء، ويرى ولادة مجرّاتٍ داخل رأسه، لقد أصبح متأكدًا من أنَّ الكون يتّسع فعلًا. وإلا، ما عساها تفعل بالعالم.. كل تلك القصص؟

ومع ذلك، فالجوابُ هو لا. لا يعرفُ أين توجد أعظم مكتبةٍ في العالم، فقد بدأ القراءة لتوّه، في مكانٍ يجعل القراءة جريمة. ابتسم العجوز على نحوٍ مريب، ثمّ غمزهُ وقال:

- إنه مُعتقل الكتب.

ارتفع حاجبا الرّجل، ما معنى هذا؟ المعتقل الذي تُحبس فيه الكتب لسنةٍ كاملةٍ حتى **أسبوع الكراهية؟** أقصد.. حتى عيد التطهير؟ كيف يمكنُ أن تكون هذه.. قاطعه العَجوز؛ هل يمكنك أن تتخيّل ما يوجد في ذلك المعتقل؟ كل المصنّفات الممنوعة على وجه الأرض، كل ما أنتجه الإنسانُ من مؤلفات، مئات الآلاف، ربما ملايين العناوين المترامية على امتداد فدادين فسيحة. إن كنوز الأرض كلها مدفونة في أقبيةِ الحكومة.

لم يفكّر بهذا الأمر من قبل، أنَّ هيئة الرَّقابة على الكتب تملك أعظم مكتبة في العالم. وفكّر لحظتها بأنهما جالسان بين علب الكتب التي صدَرَ فيها قرار التَّرحيل إلى أعظم مكتبةٍ في العالم! في تلك اللحظة، تمنّى أن يزورها. أن يقف صغيرًا وعاجزًا أمام ملايين العناوين المحكومة بالإعدام، وأن يشمَّ رائحة الورق والغبار والخَشب، ويسمع حفيفَ الأوراق السَّمر، ويتحسَّس بُروز العناوين على الأغلفة الجلدية، وأن يقلّبها في يده. عندما قرَّر أن يصيرَ حارسًا للمكتبة، لم يخطر بباله أنَّه سيحرس مكتبة الحكومة من الحكومة.

- يسمّونها المتاهة..

- من؟

- آخرون مثلنا.

- وهل هناك آخرون؟

- طبعًا.

- **الإخوة؟**

هذا ما كان عليه اسمهم في ذلك الكتاب. ولكنهم في هذا العالم

سرطانات. وفكّر لحظتها بأن كل حكاية هي عملية استعادة لحكاياتٍ كُتبت، واستدعاءٌ لحكاياتٍ لم تُكتب. إنها الحكاية نفسها منذ الأزل وإلى الأبد، تعيد ولادة نفسها كل يومٍ بتجلياتٍ جديدة. وشعر بأنه لم يقترب في حياته من فهم الرَّب كما فعل لتوِّه.

- يمكنك أن تسمّيهم «الإخوة» إن أحببت.

وجدها فكرةً سارّة، أنه ليس وحيدًا مع هذا العجوز المعتوه الذي لا ينام، ويحتضن لحاء شجرةٍ، ويعمل على تهريبِ الكتب مثل قرصانٍ.

- وما الذي تريدونه منّي؟

حدّق العجوز في عينيه، بدت غُضونه وكأنها تفيض من وجهِهِ. أجابه:

- نريدُ منك أن تتسلّل إلى المتاهة.. أن تنشل الكتب، وتأتي بها إليّ.

لم يفهم.

- أنت تطلب مني أن أذهب إلى مكتبة تضم ملايين العناوين وأختار منها كتبًا بشكلٍ عشوائي.. ما الذي يجعل كتابًا جديرًا بالإنقاذ أكثر من غيره؟

- سيتم تزويدك بقائمة الكتب المطلوبة في كلِّ مرّة.

- على أيَّ أساس؟

خلع العجوز نظارتيه، كان يحدّق في حذائه على نحوٍ حزين.

- نحاولُ إنقاذ الكلاسيكيات، الأساطير، الخرافات والحكايا الشعبية. أغاني الحضارات البائدة، وصفات العطّارين، قصصُ الخلق القديمة، الكتب المقدسة في طبعاتها الأصلية، والشروح الملحقة أيضًا.. إنها تحظى بالأولوية.

- ولماذا؟

- لأنهم يغيّرون الماضي، ونحن نحتاج أن نكون حرّاسًا للذاكرة، وعندما تحين اللحظة لسقوط هذا العالم، وتسميته بالعالم القديم، سيكون لدينا مكانٌ نبدأُ منه. هل تتذكر ما قاله الكتاب؟ «**من يسيطر على الماضي يسيطر على المستقبل، ومن يسيطر على الحاضر يُسيطر على الماضي**». إننا نحاول إنقاذ الماضي لكي يصير المستقبل ممكنًا. وأنت، كما هو واضح، بحاجة لتعلّم بعض التاريخ، إنك مواطن نموذجيٌ في جمهورية الأخ الكبير، مواطنٌ عالقٌ في وطنٍ يقتله ببطء، في بطنِ الحوت، تكويك العصارات الحامضة

لمعدته ولا تملك أي فرصة للخروج.

- وكيف يمكن لأحدٍ أن يخرج من بطن حوت؟

- يُشعلُ نارًا.

فوجئ بجواب العجوز، وكأنَّ لديه دراية في أمور الحيتان! بدا ساهمًا جدًا وهو يواصل..

- وماذا سنفعل بالكتب التي ننقذها؟ أين سنخبئها؟

سرح العجوز بعينيه. دعكَ نظارتيه مرة أخرى. حطت ابتسامةٌ على فمهِ:

اسمع هذه القصة..

كان يا ما كان، هذه قصة عن مرآةٍ سحرية، تملكها أميرة جميلة، مجنونة قليلًا، غاضبة وعازفة عن الزواج، إلا من الفتى الذي يستطيع الاختباء عن مرآتِها. كانت المرآة تستطيع العثور على أيٍ كان، في أيّ مكان. لنقل إنّها تشبهُ أجهزة الاستخبارات، وأجهزة التنصّت، وكاميرات المراقبة، وشاشات الرصد، وإنها ترى كل شيء في كلّ وقت. كُلَّما خطب شابٌ الأميرة، عرضتْ عليهِ التحدّي؛ تختبئ عن مرآتي، وإذا لم أجدك، تعال في اليوم التالي ونتزوج، ولكن إذا وجدتك.. ثمّ رسم العجوز بأصبعه خطًا

أفقيًا أمام رقبته. وأطلق حشرجاتٍ من حنجرته، جعلت الرجل يبتلعُ ريقه. عروسٌ مجنونة! وماذا حدث بعدها؟ تابع العجوز حكايته: قُتل عشرات الفتيان الانتحاريين، حتى جاء خاطبٌ واحد، استطاع أن يختبئ عن المرآة السِّحرية ولم تجده.. أرسلت الأميرة جنودها في جميع أصقاع البلاد للبحث عنه، ولكن الليلة قد انقضت، ولم يكن ثمة أثرٌ للفتى. لقد انتصر أخيرًا، وصار على الأميرة أن تتزوّجَ منه، وأن تتخلص من لعبتها الدموية هذه، وأن يرتاح الناس..

- ولكن أين اختبأ طوال هذه المدة؟

- اختبأ في غرفةِ نوم الأميرة. لقد كان معها طوال الوقت.

ما الذي يحاولُ العجوز قوله؟ سأله:

- ما علاقة هذه القِصَّة بإنقاذ الكتب؟

- سنخبئ الكتب في مكتبة رئيس القسم.

- هل جننت؟ سوف يعرِف!

- لن يعرف بشيء.

- وما أدراك؟

- لأنَّ هذا المعتوه لا يَقرأ، إنه يتظاهر بذلك وحسب.

- وكل تلك العناوين؟

- إنها الكتب التي قرأتُها أنا، وأجزتُها بنفسي، ثم.. بعد أن افتُضِح أمري وتشكّلت لجنة التحقيق، جاء هذا الدّعيّ وأصدر قرارًا بشأنها كلها، واحتفظ بها كتذكارات. إنه يحتفظُ بها لإزعاجي.

- ولم يخطر له أنك تقرأها سرًا؟

- الأرجح أنه يعرف.

- دون أن يبلغ السلطات؟

- إنَّه يحتاجني.

- في أيّ شيء؟

- إنني أكثر شخصٍ يفهمه، معرفتنا قديمة.

- أنا لا أفهم..

- هذا ليس ضروريًا.

أخرج العجوز من جيبه قصاصة ورق، دسّها في جيبِ الرّجل، جيب حارس المكتبة. هذه هي العناوين. ثم أضاف:

- سيكون أحد عناصرنا في انتظارك، حاول ألا تضيع.

3

كانت الشَّوارعُ خالية، إلا من بعضِ الشّاحِنات التي تأتي من الاتجاهِ المعاكس. لم تكن هناك إنارات شوارع، ولم يستطع رؤية المكانِ من حوله، لكنّه يعرفُ بأنَّ التِّلال الصامتة تترامى على جانبيّ الطريق.

كانت المتاهة على بُعدِ ثلاثِ ساعاتٍ من بيتِه. ما زال أمامه نصف ساعةٍ على الوصول، قلبه يدقُّ على نحوٍ غريب. أحسَّ بأنه خائن، يتهيأ للقاء حبيبةٍ قديمة، وأن زوجته لن تغفر له أبدًا.

عندما همَّ بالمغادرة، أطفأ الأضواء وقال لزوجتِه ألّا تقلق، لأن عليهِ أن يُشارك في جَردِ المخازن، وأمعنَ في الكذبِ أكثر عندما قال إنّ العَمل الإضافيَّ يعني راتبًا إضافيًا، وهذا يعني أنه **قد** يستطيع شراء غسّالةِ صُحون. كان حريصًا على استخدام كلمة «قد»، للحدّ من تضخم رغباتها. جزءٌ منه ما زال يصدِّق الحكومة؛ أصلُ الشقاء هو الرّغبة. ربما لم يتطوّر البشر بطريقةٍ مفرّغةٍ من الرّغبات تمامًا، ولكن تغير شكل رغباتهم، وإلا، كيف يفسِّر إلحاح

زوجته على شراء غسّالةِ صحون؟ ولماذا يشتهي كل تلك الروايات؟

يصعبُ على عقلهِ أن يصدّق الوفرة التي كانت عليها الأمور قبل الثورة؛ هاتفٌ لكل مواطن، لكل امرأة، لكل طفل! في كل هاتفٍ كاميرا. محركات بحثٍ عن كلِّ شيء، رجال آليون وجنونٌ آخر. لطالما شعر بأن في الأمر ضربًا من التبذير، وقد وجد الحكومة مُحِقّة عندما أعادت الأمور إلى نِصابها، بتحريم الهواتف الخلوية إلا لموظفي الأمن. والقطع المنهجي للكهرباء، ليس دفاعًا عن البيئة، بل للحدّ من الخيارات المتاحة للشعبِ في وقت الفراغ. أخبرته زوجته مرة، بأن الإحصائيات الأخيرة كشفت ازدياد معدّل الإنجاب في السنوات الخمس الأخيرة بنسبة 50% بسبب قطع الكهرباء، والدَّولة بحاجة إلى المزيد من المواطنين على ما يبدو. إنَّ الإنسان الذي لم يولد أكثر أهمية من الإنسان الكائن، لأنه الإنسان الأقرب إلى النموذج، بعد كل تلك الملايين التي أنفقتها المختبرات في دفع التطوّر الوراثي في اتجاهٍ عقلاني، أصبح القادمون الجدد يأتون للعالم بلا أذيال، وسيأتي يومٌ يولد فيه إنسان بدون عظمة العصعص، وسيكون هذا هو أعظم انتصارات النظام قاطبةً.

يقالُ إنّ البشر، في أيام الهواتف الخلوية، لم يكونوا ينظرون إلى بعضهم البعض. ولكن العجوز يشكّك في تلك الروايات. لا يمكن أن تُقنّن التقنية لأن الحكومة حريصة على سعادتك الزوجية، يا أحمق! لقد تم تجنيدُ مئات الآلاف من الهواتف من أجل المطالبة

بالديموقراطية في القرن الواحد والعشرين. آه، هكذا إذن؟ فلتذهب الديموقراطية إلى الجحيم! لقد أراقت الكثير من الدِّماء. امتلأت المجالس البرلمانية بأسوأ البشر قاطبةً، سكّيرون وفاسدون ولصوص، لأنهم حصلوا على الأصوات. إنه لم يُعجب بالديموقراطية قطّ، وقد وجدها طوال عمره فكرة مضحكة. ولكن، إذا كان هؤلاء البشر يطالبون بالديموقراطية، فكيف سقطت الديموقراطيات وولد العالم الجديد! لم يفهم، ولكن العجوز لحظتها ضحك؛ هذا لأنها لم تقُم قط. وفكّر لحظتها بأنه لن يعرف أبدًا، الشكل الذي كان عليهِ العالم قبل الثورة، وما مِن شيءٍ يستطيع البرهنة على صِحّة قصَّةٍ ما، أو حتى نقضها. **إن أنظمة قائمة على غسيل الأدمغة تستطيع تحويلك من دمية خشبية إلى جحش**. قال السكرتير، ولم يفهم حارس المكتبة تلك الاستعارة، لكنه وجدها مضحكة. إن الحكومة تعمل بدأبٍ على تغيير الماضي، «**والماضي قابلٌ إلى الأبدِ لإعادة النظر، لكن لم يحدث، قط، أن تغيّر أمام عينيه؛ فما هو صحيح اليوم كان صحيحًا منذ الأزل وسيبقى صحيحًا إلى الأبد**». كان الكتاب يتكلم في رأسِ ثانيةً.

لهذا السبب جعلوا منه حارسًا للمكتبة، لكي لا تُهزم الذاكرة في عالمٍ مصنوعٍ من الأدمغة المغسولة بأفضل مساحيق التنظيف. أرخى حارسُ المكتبة ذراعيهِ، أبقى قبضة مرتخية الأصابع على مقود السيارة، «**بينما ينزلق عقله في متاهات التفكير الازدواجي؛ أن تعرف وألا تعرف، أن تعي الحقيقة كاملةً، ومع ذلك لا تفتأ تقصُّ الأكاذيب مُحكمة البناء، أن تؤمنَ برأيين في آنٍ وأنتَ**

تعرف أنهما لا يجتمعان. أن تُجهضَ المنطق بالمنطق، أن تنسى كل ما يتعين عليك نسيانه، ثم تستحضره حينما تمسّ الحاجة إليه، ثم تنساهُ مرة ثانية. أن تفقد الوعي عن عمدٍ ووعي، ثم تصبح ثانية غير واعٍ بعملية التنويم الذاتي التي مارستها على نفسك». الأمر يشبه أن تؤمن بأن الأرض كروية ومسطحة في الوقت نفسه. لقد حفِظ تلك الأسطر عن ظهر قلبٍ، رغم أنه قرأها مرة واحدة فقط. يتحوّل عقله كل يوم إلى مغناطيس كلمات، والكلمات تتجمّع في تلافيف دماغِه مثل بُرادة الحديد، تعاودُ تشكيل نفسها مرةً بعد مرة. لقد امتلأ رأسه بأفكارٍ لا تخصّه، والحقيقة أن الأمر لا يزعجه، حتى عندما تختلف الأصوات وتتشابك، ويبدأ بعضها في الصُّراخ، فهو، على الأقل، لا يشعرُ بالوحدة.

بعد مضيّ نصف ساعةٍ أخرى، وصل، متتبعًا تعليمات السِّكرتير، إلى المكان المنشود. مقبرة السيارات، على مبعدةِ كيلومترٍ واحد من المتاهة. أطفأ محرّك سيارتِه، ومثلما لقّنه السِّكرتير، خرجَ إلى الليل، يمشي بين هياكل السياراتِ القديمة المرميّةِ على البراح الترابيِّ المترامي. سيارات كانت تستخدم الوقود، ثم ما عادت صالحة للاستخدام بعد أن استبدلت بالسيارات الكهربائية. كان هناك ضوءٌ شحيح، يلمع بعيدًا في الليل، على بعد كيلومتر أو أكثر. وعرفَ لحظتها اتجاه المتاهة. لقد عثر على الطريق فعلًا، وكل ما تبقى عليهِ فعله هو أن يضيع.

سمع مواءَ قططٍ، ورفيفًا غريبًا لطائرٍ لم يتبيّن نوعَه، ربما كان وطواطًا. كان يسمع قرعَ حذائهِ على الأرض، عندما سار بين

المركباتِ المتروكة في البراح المترِب. لا أحد يقود تلك المركبات اليوم، إنها تنتمي إلى عالم ما قبل الثورة، وهي تشكّل مُتحفًا مكشوفًا لعيدِ التطهير. إنه يعرفُ هذا المكان؛ المكان الذي يمتلئ كل سنة بالأكشاكِ التي تعرضُ بضاعة الماضي، دون أن يرغب بها أحد. إنه اليوم الذي تبرهنُ فيه الحكومة على انتصارِها، عندما يتحوّل الماضي إلى متحفٍ، ولا يشعر الزائر المتلصّصُ على الأمسِ بأن شيئًا قد فاته.

كل سنة، يمتلئ الميدان بالعُروض المسرحية والبهلوانية وواجهات العرضِ؛ هواتف خلوية وألواح، أجهزة كمبيوتر محمولة، كاميرات، أقراص مضغوطة، وغيرها من النفايات. ربما، في زمنٍ آخر، كان البشر يزورون المتاحف لكي يشعروا بالدهشة من تقدّمِ أجدادهم. لكن اليوم، صارت المتاحف تخرج إلى الشوارع لكي يتعرّف البشر على تخلّف ماضيهم. كل تلك الاختراعات المضللة، لأجل أي شيء؟ وكيف يمكن أن يؤول العالم إلى الدَّمار بوجود كل تلك المعرفة. لقد كان عهد الحماقة، وينبغي تجاوزه إلى عهد الحكمة، وبشكلٍ غير مفهوم، تذكّر ما قرأه في الكتاب الأخير؛ **الجهل هو القوة**. ولكنها قوة ناعمة وغير مؤذية على الأرجح، إنها قوة البراءة، وقد كان في زمنٍ ما، حارسًا لبراءة العالم، ينقذ البشرية من فائض المعرفة، ولكنه اليوم تورط بأكل الثمرة المحرمة، وصار يشتهي الروايات.

ولأن الحكومة، بحسب ما قاله السكرتير، تعرفُ بأنها لا تستطيع التحكم في رغبات البشر تمامًا، فهي تمنحهم يومًا واحدًا

في السَّنة لكي يتخيلوا كل ما لن يحدث. إنه اليوم الذي يُمنح فيه المواطنون إجازة ارتكاب كل الحماقات بشكلٍ قانونيّ؛ السُّكر، العربدة، فقدان كامل للوقار. يمتلئ الميدان كل عامٍ بأناسٍ يرتدون ملابس تنكرية؛ قرود، أميرات وتنانين، رجال آليون، فرسان، قراصنة، أحذية مدببة الأطراف وعمائم أيضًا، سيوف معقوفة وتنانير منفوشة. لطالما تساءل لماذا تسمح الحكومة بذلك. يومٌ واحد في السنة للعودة إلى الماضي، لإعلان الانتصارِ عليه. لكنه كان اليوم المفضل لزوجته، وللطفلة حتى. كل أزيائها الغريبة اشتراها من أكشاكٍ تظهر في ذلك اليوم وتغيب بقية العام. ناهيك عن السكاكر الملونة، أكواز الذرة المشوية، الكستناء المسلوقة، والتفاح المغطى بالكراميل. إنها خياراتٌ كثيرة، أكثر بكثير مما يستطيع عقله استيعابه، ولطالما شعر بالوهنِ لمجرد التفكير في كثرتها.

كانت دُمى الكتب تُرَصُّ على الأرض، كتب مزيفة مصنوعة من الفلّين تستخدم وقودًا لنار التطهير، يسكبون عليها الكيروسين ويتركونها تحترق، ثم يبدؤون في إلقاء دمى خشبية بأزياء بعينِها؛ رجال الدّين بأرديتهم السوداء، الشُّعراء والروائيون، السحرة بقبعاتهم المدببة ولحاهم الطويلة، المشعوذون بكل أوراق اللعب المختبئة في جيوبهم، الفنانون الملطخون بالألوان، الفلاسفة الذين تُرسم ملامحهم بشكلٍ يوحي بالعتهِ، الشاذون جنسيًا، والمعارضون السياسيون أيضًا. لقد كان الشعب يضرمُ نارًا عملاقة من أجل حرقِ أجداده.

لم يفكّر في الأمر من قبل، أنهم لم يحرقوا الكتب الحقيقية أمام الشعب، بل دمى لكتب. لم يكونوا ليخاطروا بإنزال هذا الكمّ الهائل من الكتب الممنوعة إلى الشوارع، قريبة جدًا من قبضة الجماهير. شخصٌ واحدٌ ينتابه الفُضول، يلتقطُ كتابًا، ويقرأ منه بضعة أسطر يمكن أن يُسمّم المُجتمع بأسره. لكنه صار يعرفُ الآن، أنه في الوقت الذي كان يحمل فيه ابنته على كتفهِ، مصفقًا لحرقِ دمية، كانت هناك نارٌ تضطرم على مبعدة ميلٍ تقريبًا، مخصَّصة لحرقِ الكتب الحقيقية. لم يفكر في الأمر من قبل، أن الكتاب معادل موضوعي للإنسان، ولكن لماذا يلتذُّ بغرابةِ الشخصيات وتعدد الأفكار في الكتب، وتزعجه في الواقع؟ إن الحكومة تبدو أكثر اتساقًا مع أفكارها منه؛ فهي ترفض الغرابة في الكتبِ والبشر على حدّ سواء، وفي أول عيدٍ للتطهير، بعد انتصار الثورة، حدثت محرقةٌ حقيقية، ولم تكن محرقة كتب، ولا محرقة دمى. لكنه لن يفكّر في ذلك الآن، إذ يحقُّ لمن مثله أن ينزلق في متاهات «التفكير الازدواجي» عندما يروّعه الواقع.

4

.. ثم التقى بالرّجل الغريب، وكان الرَّجل الغريب في انتظارِه.

كان يرتدي البنطال الكاكي، مثله، ولكنَّ قميصه، على غير العادة، امتلأ بخطوطٍ زرقاء وصفراء، وقد لفَّ قُماشة ذات مربّعاتٍ بيضاء وسوداء على رأسِه، وترك ذقنه مهملة، و.. نظر حارس المكتبة إلى قدميّ الرجل مرّتين، غير مصدّقٍ؛ أنّهُ كان حافيًا. كان يقفُ في انتظارهِ على إسفلت الشَّارع أمام المدخل، في البراح الترابيّ المظلم لمقبرة السّيارات. رجلٌ أسمر البشرة، واسع العينين، وثمة فجوة صغيرة بين سنّيهِ الأماميين. بدا سعيدًا جدًا لرؤيته، حتى أنه حاوط رأسهُ بذراعهِ وهمسَ في أذنه؛ أين كنت طوال هذا الوقت يا أخي! وشمَّ حارس المكتبة في قميص الغريبِ رائحةً مالحة.

- ومن تكون؟

- أنا؟ ألم تعرِفني يا أخي؟ أنا حارسُ المتاهة..

- ولكن كيف أعرف بأنك أنت؟

قهقه الغريب مليًا، ثم قال: «**حسنًا، الآن وقد التقينا، إذا صدّقتَ وجودي، فسأصدّق وجودك، اتفقنا؟**» ولكزه بكوعِه، فعرف حارسُ المكتبة تلك الكلمات، إنها قادمة من كتاب أَلِس. خرج جسده المذعور من تصلّبه، فاسترخت أوصاله، وسارَ مع الغريب غير مصدّقٍ أنه قد التقى قارئًا آخر.

رافقهُ المسير بين هياكل السيارات الصدئة. «إن هذا المكان غريبٌ جدًا يا أخي، غريبٌ جدًا». كان يردّد. «أنا لن أستمر في هذا العمل بقية حياتي، أقولُ لك، سوف أستقيل وليجدوا غيري. أنا لستُ بطلًا، في الحقيقة أنا أكره الأبطال. هل أنتَ بطلٌ يا أخي؟ إيّاك أن تكون بطلًا».

ابتسم حارس المكتبة. ثمّة شخص على هذه الأرض، مثله، لا تغريه فكرة البطولة ولا يفكّر بإصلاح العالم. ولكنه في الوقتِ ذاته، يحبُّ أن يكسر القوانين، وأن يقرأ الكتب المحرّمة. سأله:

- ما الذي تفعله في المتاهةِ إذن؟

- مؤقت، يا أخي.. كل هذا مؤقت، حتى يعثروا على بديل. عليهم اللعنة.

ثم أشار بأصبعه إلى بناءٍ عظيم ينتصبُ وحيدًا في نهاية البراح الرَّملي، على مبعدةِ مئاتِ الأمتار من المكانِ الذي ركنَ فيه سيّارته. «هذه هي المتاهة». قال الرجل، وفكّر حارسُ المكتبة بأن البناء يبدو مألوفًا جدًا، كان بناءً هرميًا عريضًا وعديم النوافذ على نحوٍ مروّع، مؤلفًا من عشرات الأدوار، تحيطُ به الأسوار الحديدية وأبراج المراقبة. وجدَ حارس المكتبة أن في الأمر بعض المبالغة، لا يحتاج المرء إلى هذه الحِراسة المشددة لمستودع كتب، فالكتب لن تهرب إلى أيّ مكان. ليس من دون مساعدته على أيةِ حال، ولكن فكرة أن تكون كل هذه الأدوار، ملأى بالكتب، جعلت رأسه يدور..

- كل هذه..

- ماذا؟

- كل هذا المبنى لتخزين الكتب؟

هزّ الغريب رأسه. لا، هذه مستودعات الماضي؛ أجهزة خلوية، حواسيب، أجهزة لوحية، أقراص مدمجة، كل ما يتعلق بالاتصال. ولديهم أيضًا إدارة للأبحاث، الشيطان وحده يعلم في أيّ شيءٍ يبحثون! المتاهة موجودة في السرداب، وهو بالكادِ يكفي لكل تلك الكتب. تحشرج صوتُ الرجل وهو يتحدّث عن الكتب، كما لو

كانوا مجموعة من الأطفال اليتامى. «الوضع سيء يا أخي، سيء جدًا لهؤلاء المساكين، لا عزاء على الإطلاق، لا شيء يخفِّفُ آلامهم». هل كان الغريب يتحدث عن الكتب؟

سارا بصمتٍ، في الظلام الدامِس، حتى اقتربا من البِناء. ثم انحرف الغريبُ بخطواته وأشار برأسِهِ إلى البوابة الجانبية. استخرجَ بطاقتين من جيبهِ ومرّرهُما على جهازٍ ممغنطٍ ماسح. فُتحت البوابة، ولم يصدّق حارس المكتبة أن دخول البناء كان بهذه السهولة.

- أليست هناك أجهزة مراقبة؟

- يا أخي! هل توجد حكومة على هذه الأرض بلا أجهزة مراقبة؟

- وماذا لو قبضوا علينا؟

نخر الغريبُ..

- نموتُ ونرتاح!

ثم سار إلى جانبِه واضعًا يدهُ على كتفهِ، كما لو أنه كان صديقه المقرّب طوال عمره. ازدرد ريقه، إنه غير راغبٍ بالموت

حتى لو كان مجرم فِكر. لماذا لا يبدو الغريب خائفًا؟ لماذا لا يتظاهر بالخوف ولو لطمأنتِه على الأقل؟ تجاسر وسأل:

- هل قمت بهذا الأمر من قبل؟

- أوه، كثيرًا. لقد جاء قبلك كثيرون، وسيجيء من بعدك آخرون، هكذا هي الدنيا..

- ولم يقبض على أي واحدٍ منهم؟

- كفَّ عن القلق. نحن خلايا سرطانية وعملنا هو اختراق الأنظمة. يعمل أحد عناصرنا الآن على مسحِ وجهك المرعوب هذا من التسجيلات. تبدو وكأنك ستتبوّل على نفسك..

هكذا هو الأمر إذن؟ لهذا السَّبب يُسمونهم سَرَطانات، إِنّهم ينتشرون في كلِّ مكانٍ ويخترقون مفاصل النِّظام. كلٌ في مكانِه دون أن يضطر واحدهم لمعرفةِ الآخر. وجدها فكرة سارّة، أنه ليس وحيدًا على سطح العالم، وليس وحيدًا في قاعِه أيضًا. تساءل إن كانت كاميرات المراقبة في الهيئة مخترقة أيضًا؟ لا بدَّ وأنّها كذلك، وإلا، كيف نجا السكرتير طوال هذا الوقت؟

- ألا تخاف؟

- يا أخي، أنا ما عدتُ أشعر إلا بالقرف.

فتح الغريبُ البابَ المقابلَ للمدخل، ورأى حارس المكتبة ممرًا مظلمًا طويلًا يمتدُّ مثل نفقٍ مؤبد. ازدردَ ريقه. أخرجَ الغريبُ من جيبهِ كشّافَ ضوء وأشعله. ثم سبقهُ إلى الدّاخل. كان الممر يمتدُّ طويلًا والأبوابُ المغلقة تتواتر على الجانبين. قلتَ بأن لديهم مراكز للأبحاثِ هنا؟ نعم. في أيّ شيءٍ يبحثون؟ لا أدري، يخترعون خازوقًا بالكهرباء. هل تمزح؟ اللعنة عليَّ إن كنتُ أفهم شيئًا، إنهم يحاولون استرجاع بعض المعارف القديمة التي ضاعت بعد الثورة؛ كاميرات حرارية، كاشف البصمات، أجهزة تنصّت، يقالُ أيضًا بأنهم يطورون شبكة انترنت خاصة بالقيادات. أترى، يا أخي؟ إن التقنية محرمة كلها، إلا تلك المصمَّمة لخوزقةِ الشَّعب. ونخرَ مرة أخرى. هل لديكَ غسّالة صُحونٍ في بيتك؟ تذكّر حارس المكتبة زوجته، هزَّ رأسَهُ بأسف. لا. لا عليك، لا أحد يستطيع شراء واحدة أصلًا!

ثم توقف أمام الباب الأخير. والتفت إليه، وابتسم.

- يا أخي، هل تعرف قصة الحسناء التي تخرج من ثمرة ليمون؟

هزَّ رأسه نفيًا. ولكنّه وجد نفسه يتلمّظ بشكلٍ غريب. أيّ حسناء؟ ضحك الغريب، وقبّل أطراف أصابعه مليًا؛ جميلة يا

أخي، جميلة!

اسمع هذه القصة.

كان يا ما كان.. في أحد الأيام، حصلَ فارسٌ شجاع على ثلاث حبّات ليمونٍ سحرية، قيل له بأن في قلب كل ثمرة فتاة حسناء، ستخرج من الثمرة لثوانٍ ثم تموت من العطش، وعليك أن تسقيها ماءً إذا أردتَ أن تستبقيها. جلب الفارس سكينًا وقطع الليمونة الأولى، فخرجت منها امرأة لم يرَ في حياته أجمل منها، شلّهُ جمالها فنسيَ أن يناولها كأسَ ماءٍ فتلاشت بعد ثوانٍ. أخذ يشتم ويلعن، لكنه أقسم إلا يكرر الغلطة مع الليمونة الثانية. ولكنه لمّا قطع الليمونة الثانية رأى واحدة أجمل من الأولى، فشُلَّ تمامًا حتى اختفت الحسناء من أمام عينيه.. ومرة أخرى راح يشتم ويلعن ويصفع وجهه كالمجنون.. ولكنه قرر أن يقطع اللّيمونة الثالثة مغمض العينين. أطبق جفنيه، وقبض على السِّكّين، قطع الليمونة إلى نصفين ومعها شقفةٌ من أحد أصابعه، وبمجرد أن أحسَّ بحضور الحسناء ناولها كأس الماء دون أن يراها..

- ثمّ ماذا؟

- ثمّ فتح عينيه..

- وهل كانت جميلة؟

قبّل الغريب أصابعه مرة ثانية.

- أجمل من أية امرأة رآها في حياته.

ثمّ ابتسم وغمز بعينِه.

- احذر المتاهةَ يا أخي، إنها مليئة بالليمون المسحور، وفي كل ليمونة حسناء ستناديك لإنقاذها، ولكن عليك أن تغمض يا أخي، اغمض عينيك كي لا تضيع..

فتح الغريبُ الباب المفضي إلى السلّم الموغل في الظلام..

- يا أخي، أهلًا بك في المتاهة!

5

شهقَ حارسُ المكتبة.

أحسَّ بِخورٍ يباغتُ ركبتيه، كاد أن يسقط.

كانت تلك المرة الأولى التي يرى فيها شيئًا كهذا؛ متوالية أبدية من الأعمِدةِ والأرفُف المعدنية، تمتدُّ من الأرضِ إلى السَّقف، ممتلئة بالكتب التي تقفُ، متراصّة، منذ الرّف الأول وحتى الرّف الأخير، كتِفًا بكتِف، وعلى كُعوبِها الصغيرة كانت تلك الكتاباتُ الممهورة بالحبرِ الأسود، عناوين صغيرة مثل طلاسم، أو أحاجٍ أو أسرار. كانت هناك ممرات لا نهائية، وبدا له أنها تتحرك في جميع الجهات، على نحوٍ غير معقول، ورغم أنه في قاعِ بناءٍ هرمي، إلا أن الدُّوار في رأسِهِ أشعره أنه في مكانٍ دائري، أبديٍ ومُطلق.

كانت مُترامية، ولم يكن قادرًا على رؤية نهايتها، والأكيد أنَّهُ لم يعرف من أين تبدأ، ولكلِّ ممرٍ فيها كانت هناك تفريعاتٌ جانبية لممراتٍ أخرى، وأخرى، وأخرى. جسورٌ ورفوف وسلالم وأفاعٍ،

سارَ كالمجذوب، بين أشجار الليمون المسحور، والحسناوات ينادينه لإنقاذهن، دون أن يغمض عينيه.

كان يشتهي في تلك اللحظة أن يخلع ثيابه، أن يتعرّى وأن يرقُص، مثل زوربا، وقد مسّهُ شيءٌ من المُطلق. أخذ يُمرِّرُ يديه على أضلاع الكتب التي تتواتر على الجانبين، يتحسَّسُها، غير مصدّقٍ، أن كل هذه الثمار المحرّمة موجودة من أجلِه. لم يساورهُ شكٌّ بهذا الصدد، أن كلّ هذه الكتب كلها، كُتبت في الأصل، وخصيصًا، من أجله هو، وأنه القارئ المصطفى، وقد وصل أخيرًا إلى المكان الصحيح. كانت الكتب تطلقُ ذبذباتٍ لاجتذابه، بدت سعيدة بدورها، وبارعة في إغوائه، وقد بلغ حدًا من الإثارة حتى أخذ يقهقهُ ويمسحُ دموعهُ في الوقت ذاته. هل يمكن، بعد كل هذا العناء، أن يكون هذا الجحيمُ هو الجنّة؟

أخذَ يلتقط الكُتبَ عشوائيًا من الأرفف، يفتحها ويغرق. في كل كتابٍ كان يجدُ الحسناء العطشانة، وكان القارئُ هو الماء الوحيد. لقد فهمَ الأمر على هذا النّحو، وكانت لحظة اختفاء الحسناء تعني ظُهور أخرى، ومثلما تجيد السَّرطانات الاختباء في ثقوبِ الأحجار البحرية، ومثلما تفلتُ المعاني من بين يديه دون أن يقبض عليها تمامًا، لم يفلح في الإبقاء على ليمونةٍ سحرية واحدة، لقد جننتهُ المتاهة، كان كمن يبكي من العطشِ غارقًا في النّهر، وكان ذلك هو الجحيم؛ المعنى في انفلاته الأبدي من قبضته. وفي تلك اللحظة تذكّر ألِس، جالسة إلى طاولة الشاي، مع المجانين الذين يعرضون تقديم الخمر إلى العطاشى حين لا يكون هناك خمر،

والمربّى للجائعين في أيّ يوم عدا هذا اليوم! كيف يمكنه أن يكتفي بانتشال عشرة كتب وترك مئات الآلاف منها وراءه؟ ولماذا لا يمتلك إلا يدين صغيرتين؟

كان قد نسيَ أمر الرَّجل الغريب، حارس المتاهة، حتى سمعهُ يصرخ، فالتفت ليجد الرجل وقد تسلّق أحد السلالم يناديه؛ هيه، يا أخي، تعال وانظر إليها من أعلى! كانت الابتسامة تخترقُ وجهه، وكأنه، هو الآخر، يدلفُ المتاهة للمرة الأولى. وبدا له أنها فكرة جيدة، أن يتسلق السُّلَّم وينظر إليها من فوق، ليرى حدودَها وأطرافها. ربما يتمكن من السَّيطرة عليها داخل عقلهِ إذا رأى نهايةً لمصفوفةِ الكتب الأبديةِ هذه.

تبع الرجل وتسلَّق السُّلم بصعوبةٍ. كانت قدماه ضعيفتان على نحوٍ غريب، حتى أن الرَّجل أشار إلى ساقيهِ وقهقه؛ انظر إليك يا أخي، أنت ترتجف! هل وقعتَ في الحُب؟ وعاود الضحك ثانية، وكأنه يفعل ذلك في كل مرة، ومع كل زائر. انتبه، يا أخي. إن عشاقها كثر، وهي قادرة على ابتلاعهم جميعًا. في تلك اللحظة كان قد كفَّ عن التَّسلق، واستدار بظهره لينظر إلى المكتبةِ من أعلى، واحتبست أنفاسه. ليس في الأمر مزحة، إنها متاهةٌ حقيقية، تشبه متاهة أَلِس لولا أن الجدران تتألّف من كتب. لكن.. ما هذا الذي يتحرّك هناك؟ وهنا أيضًا، و.. هناك. هل يعقل؟ أرانب! صاحَ وهو يشير بسبّابتهِ إلى كلّ أرنب أبيض استطاع أن يراه، وقد كان هناك العشرات منها. إنها أرانب! قهقه حارس المتاهة. نعم، نعم، أنا أيضًا أراها يا أخي! وهزَّ رأسه كأن دهشته هي أغرب الأمور

قاطبة.

لننزل، ليس أمامنا وقتٌ طويل. قال الغريب، ونزل الاثنان درجات السُّلَّم، وفي اللحظة التي نزلَ فيها أحسَّ بأنه فهمَ كل شيء، رغم أنه ليس متأكدًا من الشيء الذي فهمه. كان يُفترض به أن يضيع، إن هذا هو المغزى من الأمرِ برمّته. وجد نفسه يبتسم، يمرر يديه على سُطوح الكتب ويسير بمحاذاتها وهو يتلمّس العناوين. يكاد لا يصدّق أن كل هذه الكتب محكومة بالإعدام. ورغم هذه الحقيقة المروعة، بدا المكان مبهجًا على نحوٍ غير مفهوم. إذن؟ قاطعه الغريب:

- ما هي الكتب التي تبحث عنها؟

- ماذا؟

- هل جننك الليمون المسحور يا أخي؟ أعطِني العناوين التي طلبها العجوز، لا وقتَ لدينا..

لقد كاد ينسى الأمر تمامًا، أنه هنا من أجل مهمة محددة، ورغم أنه دخل إلى مغارة الكنز، إلا أن عليه أن يحافظ على تركيزه، فهذا المكان خطِر، خطِر! سوف يبتلعه وسيبدو الأمر كما لو أنه لم يوجد قط. «أنتَ مثل علاء الدين»، قال الغريب؛ «جِد القُمقم أولًا، ثم املأ جيبيك بالقطع النقدية إن استطعت!» وقهقه

على نحوٍ مجنون، فتساءل حارسُ المكتبة بأيّ شيء عساه يهذي؟ إن أيّ شخصٍ يمضي أيامه في متاهةٍ كهذه لا بدَّ وأن يفقد عقله في النهاية. لكنه فهم على الأقل، أنَّ عليهِ أن يغمض أمام الحسناوات، لكي يتمكن من إنقاذهن.

أخرجَ حارس المكتبة قصاصة من جيبه. كانت العناوين مكتوبة بخطّ يدِ العجوز. ولأول مرة منذ عرفهُ، شعرَ بأنه مدينٌ له بالكثير. ورغم أنه يقف في سردابٍ حكومي، بين كتب محكومة بالإعدام، مع رجلٍ شبه معتوه وحافي القدمين.. إلا أنه كان سعيدًا.

استغرقت مُهمة البحث عن الكتب المنشودة ساعات مرهقة، وعرفَ الرّجل لحظتها أنه ما من أحدٍ منيعٍ ضِدَّ الضياع في المتاهة، ولا حتى حارسُ المتاهة. كان يبحث في ملفّات الأرشيف عن العناوين ثم يُحاول العثور على الرَّف الصحيح. وكان يلعنُ ويشتم طوال الوقت. أتدري، يا أخي، كان بإمكانهم أن يستخدموا تصنيف ديوي العشري، مثل أيّة مكتبة محترمة، ولكنهم لا يريدون لهذا المعتقل أن ينسى حقيقة أنه معتقل. لا عليك، ذاكرتي حديدية، أستطيع العثور على الكتب! كان يقول، رغم أنه كان يلفُّ على المكان نفسه مرة بعد مرة. وعندما تعب حارس المكتبة من المشي في المكان، قرَّر أن يجلس على الأرض، وأن يلتقط كتابًا ما، ويشرع في القراءة، ريثما ينجح الغريب في العثور على العناوين. وفكّر بأن الأمر غير عادلٍ للبقية. ما الذي يجعل كتابًا أجدر بالإنقاذِ من غيره؟ من الذي قرر أن يمنحهُ هذه القيمة ولماذا لا يسعه أن يُنقذ الدّيوان الشعري الهزيل بين يديه. لقد أصبح يحبُّ الشعر، ثم

سمع صوت الغريبِ يهمهم؛ آه، نعم، نعم.. لماذا لم تخبرني بذلك منذ البداية؟ كان الرَّجل يتحدث مع أرنب. ثم التقط الكتاب الأخير من الرف وعادَ به إلى إليه، وألقى به في حجره.

- تلك كتبك يا أخي، فلتغادِر بسرعة قبل أن تحدث مصيبة، وأبلغ النجّار العجوز أنَّ أقدامي تكسّرت وأنا أبحث عن كتبه..

النجّار العجوز؟ لماذا يشعر بأن الجميع يعرفُ تاريخ السكرتير، باستثنائه هو؟ قبض على الكتب؛ عشرة كتب سميكة كالطابوق، مصفوفة فوق بعضها البعض، حمل نصفها بيمناه ونصفها الآخر بيسراه. لقد سمح له العجوز بأن ينقذ أي كتابٍ آخر يريده طالما أنه أتمّ مهمته، ولكنه لا يستطيع أن يحمل المزيد. ومثل الفارس في الحكاية، أخذ يلعن ويشتم، لأنه لم يغمض عينيه.

- أريد العودة غدًا، مع عربة، وعلب وأكياس..

قهقه الرجل، ثم ضربه على ظهرهِ برفق.

- أبلِغ العجوز حتى أعرف بشأن قدومك.

ثم سارا خارجيْن.

في اللحظة الأخيرة قرَّر حارسُ المكتبة أنه يستطيع إنقاذ

كتابٍ آخر، كتاب واحد. ديوان شعريٌ هزيل. سوف يقبضُ عليه بأسنانهِ، ويأخذه معه بعيدًا، خارج هذا الجحيم الذي هو، ويا للعجب، جنة محضة.

6

في دولابِ الملابسِ الخشبيّ، الذي تُصرُّ مفاصله كُلما فَتح مصراعيهِ، وخلف صفٍ من البناطيل الكاكية المعلقة، ثبّت حارس المكتبة رفًا سريًا، ووضع عليهِ أول كتابٍ اقتناه لمكتبته الخاصّة؛ زوربا، الكتاب الذي قرأه، ثم تغيّر كل شيء.

مع مرور الأيّام، ومع كل حملةِ إنقاذٍ للكتب، صارت المكتبة في الدّولابِ تتّسع. يحدث ذلك في كل مرة يتسلل فيها إلى المتاهة. يُسلّم الكتب المطلوبة للعجوز، فيرصُّها في مكتبة رئيس القسم، وكأنها كانت هناك طوال الوقت، ولم ينتبه الأخير، قط، إلى أن مكتبته هي الأخرى قد أخذت في الاتساع. وجد شيئًا من الرّاحة في ذلك، في حقيقة أن الحكومة، متمثلة في رئيس القسم ذي الشاربين والتكشيرة المروّعة، ليست بالذكاء الذي تخيّله. وفي تلك الأيام، كفّت السرطانات عن الظهور في أحلامِه، وصار يعرفُ أشياء كان يعرفها طوال عُمره، لكنه قاومها طويلًا، منها، على سبيل المثال، أن العالم كلّه متاهة، وأن الأرانب ستظهر على أيّ حال..

مرّت أيام. ربما أسابيع، أو أشهر حتى. لم يكن متأكدًا، لأن الزمن تحوّل إلى صحراءٍ من الرِّمال الناعمة منذ ذلك الكتاب. وفي تلك الأيام، كان سعيدًا، إذ كان يقرأ الكثير من الروايات، ويحتفظ ببعضها في دولابِه. طلب من زوجته ألا تفتح الدولاب مهما حدث، أن تترك ملابسه المكوية حديثًا معلقة في غرفة الغسيل، وقال إنّه سيقوم بتعليقها في الدولاب بنفسهِ. أخبرها بأنه مؤتمن على ملفّات سرية تخص الهيئة، وأن عليه ألا يخون ثقة مسؤوليه.

في تلك الأيام كان يبرع في عيْشِ حياتين؛ واحدة في السّر، وأخرى في العَلن. ولفرط ما اعتاد الأمر تساءل إن لم يكن لكل مواطنٍ في الجمهوريةِ حياته السِّرية الخاصة به. كم عدد أولئك الذين يقرؤون الكتب السَّماوية في السِّر، بنُسَخِها غير المحرّفة؟ يردّدون التراتيل القديمة، يؤمنون بالحياة الآخرة، ويصدقون وجود الجنة؟ كم عدد أولئك الذين يحتفظون بمشغّل أقراص مضغوطة ويتفرجون على أفلام الخيال العلمي. كم عدد الذين يقرؤون الشعر ويحفظونه ويهمسون به مثل تعويذة. كم عدد الذين يتداولون القصص المحرّمة مثل ذات القبعة الحمراء وبينوكيو والسندباد البحري. كان مرتاحًا في الكذب ، ووجدَ نفسه بارعًا فيه، حتى أنه فكّر، لو أنه ولد في زمنٍ آخر، لكان على الأرجح روائيًا.

فكرة واحدةٌ فقط، كانت تنغِّص عليه سعادته؛ ابنته. كل يومٍ يمر تصبح فيه أقلّ قدرةً على التأقلُم. الأعراضُ التي تظهرها بدأت تتفاقم، إذ صار أمرًا مألوفًا جدًا، أن يراها تعبر ممرات البيت وهي تتحدث مع كائنات افتراضية. في المرة الأخيرة سمِعها تغمغم؛

«أنت تطير طوال الوقت، أنا تعبتُ من الطيران، أريد أن أمشي». في إحدى الأماسي، جرّب أن يشغل لها وثائقيًا من تلك التي امتدحها أحد رقباء القسم، لكنه نام بعد دقائق من تشغيله، والطفلة بدأت تتبرم؛ «بابا! متى ستأخذني لرؤية العجوز الذي يقصُّ الحكايات؟». كانت محقة، فالعجوز يعرفُ الكثير من الحكايات، وليس قصة المرآة السحرية وحدها. وقد بدأ هو، شخصيًا، يدمنُ ذلك الطقس، عندما ينسى العجوز غضبه على الحكومة، ويقص عليهِ قصة قدرٍ سحريةٍ تطبخ مهلبية قادرة على إغراق العالم..

لكن قلقه بدأ يتزايد عندما أبدت زوجته تلك الملاحظة؛ لقد أخذت الطفلة في النُّحول وشحُب لونها على نحوٍ غريب. عندما أخذتها إلى الطبيب، وأجرى جميع الفُحوصات اللازمة، لم يخرجوا بأية نتيجة. كانت التحاليل كلها سليمة، ولكنَّ الصغيرة لسببٍ ما.. صارت تتعب بسرعة، تتمدّد وتغمض عينيها طوال الوقت. في إحدى المرات، عبَّر عن قلقهِ أمامَ السكرتير:

- إنها ليست مريضة، ولكنها بلا عافية، وأنا لا أعرف ماذا أفعل.

خلع العجوز نظارتيه كما يفعل عندما يجد الموضوع جادًا جدًا:

- إن الواقع يُسمِّمُ دمَها، طفلةٌ مسكينة.

كانت كلمات العجوز تثير الرُّعب في نفسه.

- يجب أن تتأقلم مع الواقع، كلُّنا فعلنا.

- عندما يكون الواقع بهذا الانحدار، فإن أسوأ ما يمكن أن يحدث لك هو أن تتأقلم.

وفي تلك اللحظات كان الغضب يملؤه؛ وما الخيار الذي تقترحه إذن، أن تموت الطفلة بين ذراعيَّ؟! هزّ العجوز رأسه.

- انظر إلى ما يفعلونه، في المدارس والمختبرات ومراكز إعادة التأهيل ونوادي الكشافة والهيئة أيضًا. إن كل أبحاثهم تصبُّ في التطوّر الوراثي، وإمكانية توجيه التطوّر إلى طبيعةٍ بعينها، قرّرت قلّةٌ لعينة من العُلماء والعسكر أنها من صالحنا جميعًا. إن كل ما يفعله النِّظام هو أن يمنحنا أدوات للتكيّف مع الواقع، الواقع الذي صنعه هو، فلماذا تريد لابنتك أن تتكيّف؟

- لأن البديل الآخر هو الموت.

- البديل الآخر هو المقاومة، ولكنك مشغول بقراءة الروايات.

قال العجوز، وهو يضربُ رأس حارس المكتبة بحزمة

أوراقٍ مضمومة في يدِه؛ الكثير من نماذج الاستئذان وطلبات الإجازة التي تنتظر توقيع الرئيس. تبرّم مبرطمًا:

- ألا أخاطر بما يكفي بالذهاب إلى المتاهةِ كل ليلة؟

- بلى..

قال العجوز وهو يجلس على طرفِ مكتبهِ، واضعًا حزمة الأوراق إلى جانبه. وفي تلك اللحظة فكَّر حارس المكتبة بأنه يبدو رشيقًا جدًا بالنسبة لرجلٍ في المليون من عمره..

- ولكن النظام لن يسقط إذا بقيت تنقل الكتب من المتاهة إلى مكتبة رئيس القسم..

- النظام لن يسقط بأي شكل.

- بسبب أمثالك..

- أنا لست بطلًا. كل ما أريده هو أن أقرأ.

ابتسم العجوز ثانية. غمغمَ:

- **لن يثوروا حتى يعوا، ولن يعوا حتى يثوروا.**

زفر حارسُ المكتبة. لقد قرأ هذا السطر في تلك الرواية التي ما زال يرتجف من مجرَّد التفكير بها، وقد أتعبه الكلام مع العجوز لأنه ما عاد يفضي إلى مكان. إنه قلق على ابنته، ولا يريد أن يكون بطلًا. سأله:

- وماذا أفعل بشأن الطفلة؟

- اجلِبها لي، سأقرأ لها قصة ممتعة، ستشعرُ بالتحسّن.

- ما هذا الهراء؟

- أنت من بينِ الجميع تعرفُ بأن هذا ليس هراءً..

طأطأ حارسُ المكتبة. أطلق من صدرهِ تنهيدة..

- إنها تسأل عنك طوال الوقت.

- أعرف، أعرف.. اجلِبها لي.

7

في صباحِ اليوم التالي، حدث ما لم يحسب أحدٌ حسابَه.

كان حارسُ المكتبة قد حمَّمَ الصَّغيرة، جفَّفها بالمناشفِ الدافئة البيضاء، ورشّ بودرة الأطفال على ظهرها وبطنها (حتى لا تضطر لرشّها على رأسها)، وكان يردّد؛ هذا هو غبارُ النجوم الذي طلبتِه، هل يعجبك؟ سوف نذهب اليوم لرؤية العجوز، لديه حكاية من أجلك، هل أنتِ سعيدة؟ وكانت جدّ سعيدة، حتى أنها لم تمانع أن ترتدي الزيّ الكاكيّ، بعد أن أقسمَ، كاذبًا، بأن ثوبَ الأميرة في الغسالة. وهو لم يمنعها من ارتداء حذائها الأحمر اللماع، وفكّر بأنها حتى لو جابت ممرات الهيئة بذلك الحذاء، فسيرى الجميع الأمر على أنه تطوّر إيجابي قياسًا بآخر مرة رؤوها فيها. وكأن ذيل القردة المجازيّ قد نقص شبرينِ على الأقل، وهو سيبدو كأبٍ صالح، أو بالأحرى؛ كأبٍ بارع، قادرٍ على تشكيل ابنته على النّحو الصحيح. سألته الصغيرة إن كانت تستطيع أن ترتدي جناحي الفراشة فوق فستانها الكاكي على الأقل؟ فأخذ قلمَ حبر، ورفع كمّها الطويل قليلًا، ورسم فراشةً صغيرة على

باطنِ ذراعها، ثم أسدل الكمّ الطويل ثانيةً. ألم أخبركِ؟ إنهم يصطادون الفراشات في ذلك المكان، وبهذه الطريقة ستكونين فراشة دون أن يعرف أحد. ابتسمت الصغيرة، حتى خطر له لحظتها بأنه، فعلًا لا قولًا، أبٌ بارع! يستطيع مساعدتها على التكيّف مع واقعٍ بلا مخيلة، من خلال المخيلة. لماذا يفكّر بالأمر قبل اللحظة؟

كانا سعيدين في ذلك النهار، الطفلة تحديدًا كانت سعيدة. وكانت تلك المرة الأولى التي يراها فيها تتقافز مثل أرنبةٍ دخلت جنةً من أوراق الملفوف. اتصل بالمدرسة، وأخبرهم بأنَّ الصَّغيرة سوف تتأخر، لأن لديها موعدٌ مع طبيب الأسنان. ولأجل أن تكون الكذبة متقنة، أخذ موعدًا مع طبيبِ الأسنان، وكان يعتزم الذّهاب فعلًا، بعد أن ترى العجوز، ويقصُّ عليها حكاية.

طوال الطريق، كان يتساءل، مع ابنته، عن القصَّةِ التي سيقرؤها العجوز. أعرف ماذا سيقرأ. قالت ساهمة، وهي ترسل عينيها في المجمّعات السَّكنية ذات النوافذ الصغيرة، على جانبيّ الطريق.

- ماذا سيقرأ؟

- سيقرأ بينوكيو.

ولم يسألها؛ كيف تعرفين ذلك؟ لأنها ستردُّ بأن الأرنب

أخبرها بالأمر، أو السنونو، أو الحسّون، أو القطة السائبة، أو الذئب في الدولاب، أو الجدة في بطنِ الذئب في الدولاب..

كان صباحًا يسير على نحوٍ جيد، وقد مرّ زمنٌ طويل على آخر مرة بدأ فيها حارسُ المكتبة صباحه على نحوٍ جيد. صباحٌ بلا دموع، ولا ركلٍ، ولا تظاهرٍ بالمرض، وأفضل ما في الأمر أنها تناولت فطورًا ممتازًا، بيضة مسلوقة وتفاحة خضراء مع رُقاقاتِ الذرة والحليب. كان، وأمّها، يتأمّلانها تأكل، غير مصدّقيْن. وتساءل إن كان الشحوب قد تبدَّد من وجهها فعلًا، أم أنه تخيّل الأمر فحسب؟ قبّلت أمها قبل انصرافها، ولوّحت لها مودعة، وهو الأمر الذي لم يحدث من قبل. فكّر الأب وقتها بأنه لأمرٌ عجيب، ما تفعله الحكايةُ بالإنسان.

عندما وصلا إلى الهيئة، وسارا بين الممرات، لمح نظرات الاستحسانِ على وجوه الجميع؛ موظفة الاستقبال، موظف الأمن، وحتى الرُّقباء السَّبعة. كانوا جميعًا يُثنون على التحسّن الواضح في حالة ابنته؛ ذيل القردةِ نقص قليلًا، ليست حالة ميؤوس منها تمامًا، مبارك! كانوا يغمزون له ويبتسمون مع كل خطوة؛ أبٌ جيد، أبٌ شاطِر! وكان يبتسمُ في داخله وخارجه أيضًا. الطفلة أيضًا تصرّفت على نحوٍ ممتاز، فهي لم تركض وراء الأرنب الذي كان في انتظارها عند باب القسم، لكنها اكتفت بأن تشير إليه وهي تشدّ إصبع أبيها في اتجاه الباب. سأله الرقيب الأول:

- ما خطبُ الصغيرة اليوم؟

- موعدٌ في عيادة الأسنان، لديها تسوسٌ في ضرسها، لقد أتيت لأعبئ نموذج الاستئذان، لن يطول الأمر.

هزَّ الرقباء رؤوسهم متفهّمين. لا مشكلة، قال الرقيب الأول. لا تقلق، خذ اليوم راحة. كانت تلك طريقة الهيئة في مكافأته على قيامهِ بعملٍ ممتاز في تربية قردة. لقد فهمَ الرسالة على نحوٍ جيد.

غادرَ غرفة القِسم إلى غرفة الأرشيف، حيث تحتفظ الهيئة بالنماذج الورقية لكل المعاملات الإدارية. هناك سوف يلتقي العجوز، وسوف يعرفُ أي قصةٍ سيقرأ للصغيرة. جلس وابنته على العلب المليئة بالكتب الممنوعة، الجاهزة للترحيل إلى المعتقل، وانتظرا.

انتظر الأب والطفلة طويلًا.

لكن العجوز لم يأتِ..

بعد مرور نصفِ ساعةٍ على الموعد، عرفَ حارسُ المكتبة بأن أمرًا ما قد حدث. بلع ريقه بصعوبةٍ وشعر بأوصاله ترتعد. يجب أن يغادر هذا المكان قبل أن يُفتضح. قبض على يدِ الصَّغيرة المتململةِ وغادرا المخزن. كانت الطفلة قد بدأت تفقد مزاجها الطيّب، وراحت تتذمّر وتتثاءب وتدعك عينيها مليًا، وحاولت أيضًا أن تضرب الأرض بحذائها لتعلن عن غضبها. لم تكن

مستعدة للانصرافِ بعد، ليس من دون حكاية. ولكنه جذبها من يدها ببساطة، وغادرَ غرفة الأرشيف.

سوفُ يمرُّ لا محالة على مكتبِ السكرتير. لقد لمحه عند قدومِه، وكان متأكدًا أن الآخر قد رآه، وأنه قد ابتسم. ما الذي أخّره؟ في رأسه متوالية احتمالاتٍ مروّعة، وكل ما يمكن أن يحدث، سوف يحدث على الأرجح.

شدَّ على أصابع ابنته وهو يبحث في رأسِهِ عن عذرٍ لوجوده في الهيئة رغم أنه أخذ موافقة الرَّقيبِ الأول منذ نصف ساعة. احتاجت الصَّغيرة أن تذهب إلى الحمام. لقد طاردت أرنبًا لعينًا. لن يعدم الأعذار ولكن.. أين العجوز؟ عندما اقتربَ من مكتبه رأى أن الرقباء السَّبعة، وآخرين، قد تجمعوا حول الباب..

8

كان العجوزُ جاثيًا على ركبتيه، رافعًا يديه إلى رأسِهِ، محاطًا برجالٍ ضخامٍ يرتدون بزّاتٍ سودٍ.

لقد ضُبِط متلبّسًا بالقراءة.

فقدَ السكرتير حذرهُ تمامًا، من فرطِ حماسته للقاء الصغيرة. إذ أن الرَّقيب الأول، في دخولٍ مباغتٍ إلى المكتبِ لتسليم تقارير الرُّقباء لهذا الأسبوع، قد سمع ذلك الصوت الذي لا تخطئه أذن. صوت كتابٍ يُغلقُ، كما رأى احمرارَ وجهِ العجوز، والوهن المباغِت يعتلي ملامحه، وقد أظهرت قسماته كل الأعراض اللازمة لكي يُثبتَ التهمة على نفسه. لقد كانت تلك «**جريمة وجه**» من الدرجة الأولى. ودون أن ينتظر الإذن من رئيسه، تصرّف الرقيب الأول مثل أي مواطنٍ صالح، واتصل بإدارة الأمن القومي، وأبلغ عن الجريمة.

كان الجميع مسرورًا، لأن أحدهم قد قرر أخيرًا أن يضع حدًا لانتهاكات السِّكرتير المستمرة للنظام العام. لأنه نجح في أن يفلتَ

في المرة الماضية من العقاب، وأخذ يسرح ويمرح في ممرات الهيئة بلا حياء. هذه المرة، لن يتمكن رئيسُ القسمِ من إنقاذه، هذا إن لم يتورّط معه هو الآخر، بتهمة التقصير في أحسنِ الأحوال، والتواطؤ في أسوئها.

كان رئيس القسم يقفُ هناك أيضًا، يداه في جيبي بنطاله، وقد اختفت من وجهه تلك التكشيرة التي يخالها ابتسامة. كان يردُّ على جميع أسئلة المحقق، يهزُّ رأسه، ويراقب العسكر ببزاتهم السود وهم يفتّشون الأدراج، وينفضون الأوراق، ويبعثرون الملفات، حتى أنهم قلبوا الوعاء البلاستيكي الذي يحتفظ فيه بأوراق الملفوف لأرانبه. المدهش في الأمر أنهم لم يعثروا على أية رواية، أو كتاب فلسفي، أو ما شابه. بل على كتابٍ مصوّر للأطفال بعنوان «بينوكيو».

كانت تلك جريمة فكرٍ تافهة بالنسبة لسرطانٍ عتيد.

في لحظةٍ ما.. لم يكن حارسُ المكتبة متأكدًا، نظر العجوزُ إليه، وإلى الصغيرة، وابتسم على نحوٍ غريب، من تحت شاربيه الأشيبين وعلى نحوٍ غير مرئي. ابتسم في عينيه وأبقى فمه مغلقًا، بتلك الطريقة التي لا يتبيّنها إلا من يحبّه. ولكنَّ حارس المكتبة، وبدلا من أن يبادله الابتسام على نحوٍ مجازي، ومن خلال عينيه، خشي أن يضبط متلبسًا بجريمة وجهٍ أخرى، وصرفَ عينيه عن العجوز، وراح يراقب الأرانب التي تتراكضُ مذعورةً في المكان، تعلنُ احتجاجها.

وُضعت الأصفادُ على يديه. ثم طُلب منه أن ينتصب واقفًا، وأن يرافقهم إلى الخارج. كان الضّابط يبلغُ رئيس القسم بأن سكرتيره أصبح تحت الاعتقال، وأنّه سيُؤخذ إلى مباحث أمن الجمهورية للتحقيق، ثم ستتم محاكمته، وأن كل من في الإدارة سيتم استدعاؤه في الأيام القادمة للتحقيق.

هزّ رئيس القسم كتفيهِ على نحوٍ غريب. نظرَ إلى العجوز وكأنه يعاتبه. ابتسم العجوز مرّةً ثانية، ابتسامة غير مرئية، تشبه الاستعارات.

ثمّ سار محاطًا بالعساكر. عجوزًا ضئيلًا هزيلًا بنظارتينِ مدوّرتين، وتجاعيد أبدية، وعروق ناتئة على الساعدين واليدين المقيّدتين. يحيط به سبعة عساكِر، يتبعهم سبعة رقباء، وحارس مكتبة، وطفلة مشبوهة، وذئب افتراضي، وقبيلة من الأرانب..

الفصل الرابع

من دُميةٍ خَشبيةٍ إِلى جَحش

1

يعرف المرءُ بأنه غادر المدينة، ووصَلَ إِلى الضَّواحي، عندما تكفُّ البيوت عن كونِها مُربعة. كأن ثمة بقعًا من الأرضِ لم تمسّها يدُ الثورة بعد. وفكّرَ بأنَّ الانتقال إلى الضَّواحي يُشبه السَّفر عبر الزَّمن، من العالم الجديد إلى العالم القديم، قبل صُدور القرار الإداري بشأن التوحيد المعماري، عندما كانت الفوضى ممكنة، وليست مجرّد كلمة في القاموس.

كانت النوافذ مختلفة عمّا اعتاده؛ كبيرة، بإطارات الألومنيوم المطلية بالأسود المتقشّر، تخترق مساحاتٍ شاسعة من الجدران الإسمنتية. نوافذ مخالِفة حتى لعينِه غير الخبيرة، إذ يمكن لواجهةٍ زجاجية بهذا الاتساع أمام براحٍ ترابيٍ مديد أن تثير في الذهن صنوف الأفكار غير المرغوبة. كما انتبه إلى بضعة بيوت قديمة، مهجورة، مبنية من الطوب الأحمر، والحجر الأبيض، والرمادي، والأصفر الرّملي. يتذكّر أنه رأى صورة كهذه مرّة، في كتابٍ مدرسيٍّ، قبل أن تتحوّل مادة التاريخ إلى مادة للتربية الوطنية. ثم اختفت الصُّور من المناهج تمامًا. لأنَّ دراسة التاريخ، مثل قراءة

الأدب، تثير الخيال غير الضروري.

قاد سيّارته بين تلك البيوت متسائلًا إن كانت مأهولة أصلًا، فهي تبدو مثل أطلال، وتساءل إن كانت موجودة لهذا الغرض؛ أن تكون أطلالًا. شواهد قبور الماضي. هل يوجد أحدٌ وراء تلك النوافذ المحدقة؟ وهل يأتي ممثلو البلدية لإصدار المخالفات على أصحاب هذه البيوت التي لم تلتزم بمواصفات البُنيان الحديث؟ يقرأ في الصُّحف أحيانًا خبرًا عن اعتقال وكرٍ سرطاني في إحدى «العشوائيات»، ولم يفهم المقصود بتلك الكلمة؛ العشوائيات. كيف يمكن أن تسمح الحكومة بوجود شيءٍ عشوائي؟

عندما بلغ بأفكاره هذا الحدّ تذكّر أن التفكير ليس بصالحه، وقد صار يتّفق أكثر مع الحكومة، بأنَّ التفكير ليسَ في صالحِ أحد، وأنها، ببساطةٍ، مسألة اختصاصات. أمضى الأشهر الماضية يحاولُ تدريب نفسهِ على هذه المهارة الجديدة؛ مهارة عدم التفكير، ولكي لا يزعجه الأمر كثيرًا قرَّر أن ينظر إلى الأمر على أنه ضربٌ من ضروب التَّفويض. والحقيقة أنه كلما ذهب بعيدًا في أفكاره، كان يتذكّر رجلًا عجوزًا مقيّد اليدين، يسير بين سبعة ضباطٍ وسبعة رقباء وقبيلة أرانب. كانت الأفكار تتجمّد في رأسه، تحتقنُ وتزرقُّ أطرافها، كلما تذكّر شيئًا كهذا، شيئًا لا بدَّ وأن يكون قد حدث فعلًا، وأنه لم يتخيّله، رغم أنه ما عاد متأكدًا من شيء.

لكنه لم يفهم؛ ما الذي يدفع أحدًا لأن يفتحَ متجرًا للكتبِ في مكانٍ كهذا؟ حتى هو، الذي لا يفهم شيئًا في إدارة الأعمال، يعرفُ

بأن الأمر ينطوي على حماقة. متجرٌ للكتبِ في اللامكان. في حين تمتلئ المدينةُ بالأسواقِ التي تعجُّ بالمتسوّقين؛ يدورون في حلقاتٍ إلى الأبد، يحدِّقون في الزجاج، يفغرون أفواههم، يسيل ريقهم، يُحصون النقود القليلة في جيوبهم مرة بعد مرّة بعد مرّة. زبائن حقيقيون، وليسوا مجرد أشباح.

كان يتخيّل نفسه أكثر وسامة بالزيّ الموحّد الأزرق للمفتّشين. زيٌ لطالما أراد أن يرتديه. لكنه اليوم يشعرُ بالغرابةِ فحسب، وحتى عندما أبلغه الرقيب الأول بأن رئيس القسم قد نقله إلى قسم التفتيش، لم يشعر إلا بالخوف.

فتحَ ملفَّ التفتيش الأخضر ليتحقق من العنوان. إنهُ في المكان الصَّحيح على ما يبدو، ولكنّه مكانٌ خارج الزمن، وبعد تجاوز رتلٍ من البيوت المبنية بالطوب والإسمنت ذات النوافذ الضخمة، وصل إلى ما يشبه المجمّع التجاري المهجور، حيث الجُدران مطلية بالأصباغ ومغطاة بأصباغ الرَّش؛ ألوان مجنونة متداخلة، و.. تظاهرَ بأنه لم يرَ ما رأى، إذ يمكن لأي أحدٍ أن يُعتقل لمجرد أنه رأى ذلك الشيء المطبوع في الجدار؛ سرطانٌ يفردُ كلّابتيهِ في الهواء. إنه شعارُ المقاومة، وهو ما لم يفهمه؛ أليست الحكومة هي التي أطلقت عليهم هذه التسمية؟ لماذا يتباهونَ بالأمر إلى هذا الحد! الخلايا القاتلة في الجسدِ السليم، لكن لو رأينا الأمر بالعكس، فهي الخلايا السليمة في الجسد القتيل. أليس كذلك؟ تبدو هذه واحدة من أفكار العجوز، وهو ما عاد متأكدًا، أي من الأفكار المنبعثة من عقلهِ تخصّهُ فعلًا، وأيها للعجوز، أو زوربا، أو ألِس،

أو الأخ الكبير، أو أيٍ من الآخرين. إنها في الحقيقة، وهي في معظمها، خليطٌ مشوش من أصواتِ شخصياتٍ قرأ عنها في الكتب، شخصيات يليق بها أن تفكّر على هذا النحو، ويحقّ لها ذلك، لسببٍ بسيط، هو أنها غير حقيقية. إن الرواياتِ، في جلّها، احتفاءٌ بالغرابة، ولكن عليهِ أن يكون عاديًا، فهذا أسلم، وهذا ما قرَّر أن يفعله منذ اعتقال السكرتير، أن يكون عاديًا، حياة عادية خارج السِّجن، الأمر بهذه البساطة.

لكنه لم يفهم لماذا قرّرت الحكومة أن تغضَّ طرفها عن مكانٍ كهذا، واضحٌ أنه وكرٌ سرطانيٌ مَشبوه. وإذا كان في وسعِ مفتّش مكتباتٍ بسيط، مثله، أن يستنتج أمرًا كهذا، فكيف فاتَ الحكومة أن تنتبه إلى الأمر؟ وكيف فات المقاومة أن تكون بهذا الغباء في التخفي؟ ثمة أشياء لا يفهمها؛ كل تلك الثغرات التي يتسلل عبرها العالم القديم. وكأن العالم ليس سطحًا، بل إسفنجة.

بلعَ ريقه، حمل ملفّ التفتيش، وترجّل من سيارته.

منذ أن أخذوا العجوز، انقطعت صلتهُ بالمتاهةِ تمامًا. كم مرّ عليه من الزَّمن يا ترى؟ لا أحد يعرف، فالزَّمن صحراء رمالٍ ناعمة عندما يتعلق الأمر بالكتب، وهو يعرفُ ذلك جيدًا. لكنه يذكرُ، على الأقل، أنه كان خائفًا، وأن كل طرقةٍ على بابه، كل رنّة جرس، وفي كل مرّة كان أحدهم يناديه، كان قلبهُ يهوي في مكانٍ ما في قاعِ بطنه، مؤمنًا بأن لحظة اعتقالهِ قد حانت، وأن العجوز لا بدَّ وأن يكون قد اعترفَ، تحت «سياسات نزع الحقائق»

المعروفة، بكل من له علاقة بالخلايا المقاوِمة.. ثم مرَّ الزمن كثيرًا، مثل ساعةٍ رملية تحمل في داخلها صحراء، ولم يأتِ أحدٌ من أجله. لقد صمدَ العجوز! من كان يظنُّ أنه قادرٌ على ذلك؟ كان أكثر خوفًا من أن يتحرّى عن أخباره، ولم يستطع التقاط شيء من نميمةِ الرقباء السبعة، وبدا له أن الجميع قد نسيَه، كأنّه لم يكن قط. ثمّ، عندما حلَّت مكانه سكرتيرة شابّة، بنظارتين مؤطرتين بالأبيض وملابس كاكية منشّاة وشعر أسود مشدودٍ إلى الخلف، صارَ يشكُّ بأن العجوز لم يوجد إلا في خيالاتِه..

كان قد حلمَ بهِ قبل يومين؛ منكبًّا على جذعِ شجرة، ينحته ويصنع له وجهًا، وكان على الجدار وراءه عشرات من ساعات الحائط، عجيبة الأشكال؛ خرفان مطلية بالأصباغ، عصافير تزقزقُ في الأعشاش، دمى ترقص، أقزام في غابة، جنيّان يقرعانِ قاعدة حذاء جلدي، وكل أنواع الساعات التي تروي قصصًا. لم أكن أعلم بأنك صانع ساعات! قال في الحلم، فنظرَ إليه العجوز بطرفِ عينه.

- بلى، كنتَ تعرف.

- ومن أين لي أن أعرف؟

- كنتَ تعرف أنك تحتاج إلى الزمن لكي تصبح إنسانًا. لقد كنت تعرفُ ذلك منذ البداية..

وجد كلامه غريبًا، فاختلس نظرة لما في حضنهِ، فإذا بالجذعِ الخشبي يفتح عينيه بغتة ويصرخ في وجهه. أفاقَ من نومِه يتصبّب عرقًا. ترى، ما الذي حل بالنجار صانعُ السّاعات؟ ولماذا اختفى إلى هذه الدرجة، ولم يترك شيئًا يدلُّ على حقيقته.

في صباح اليوم التالي، لذلك الحُلم، حدث أمرٌ غريب، لقد وجد على مكتبهِ ورقة تتضمن قرار نقلهِ من قسم الرقابة إلى قسمِ التفتيش، وأمرًا فوريًا بتفتيش مكتبةٍ بعيدة، خارج حدود العالم الذي يعرفه. ذهب إلى مكتب رئيس القسم ليتحقّق من الأمر. وقف متخشبًا هناك، أمام المكتبة العظيمة التي ساهمَ في بنائها بنفسه، بجولاته الليلية السرية من وإلى المتاهة. نظر إلى رئيس القسم، إلى عينيهِ المروّعتين، وهو يستذكر قصة الأميرة المجنونة التي تملك مرآة سحرية، وتساءل لماذا يحصل المعاتيهُ على السلطة دائمًا؟ ما حكاية هذا القرار يا سيّدي؟ سأل الرئيس. ولكنَّ الآخر نظر إليه وكأنه لم يفهم؛ ألم تكن راغبًا بالعمل في قسم التفتيش في الأصل؟ طأطأ. كان ذلك قبل أن يقرأ كتابًا واحدًا، لكنه الآن لا يعرف، وهو خائف وحسب. هل قصَّرتُ في عملي يا سيّدي؟ ابتسمَ رئيس القسم، عادت إلى وجهه تلك التكشيرة المروّعة. لا، نحن بحاجتك في قسم التفتيش، هذا كلّ شيء.

كان عليهِ أن يذهب بعيدًا للعثور على مكتبة. سارَ بمحاذاةِ الجدار. كُلّما مشى أكثر، صادف رسومًا على الجدران، للفافاتِ سجائر، ينبعث الدُّخان منها ليصنع ورودًا وفراشات وجماجم

ضاحكة، وتساءل من الذي تجاسر بما يكفي لكي يرسم خيالاته هكذا؟ صار جسده يتصبّبُ عرقًا، وقد قبض على الملفّ بقوةٍ، مخافة أن يراه أحد، وقرَّر أن يكون الأمر واضحًا للعالم (أيًا كان المقصود بالعالم)، أنه موظفٌ مُكلفٌ بمهمة رسمية، مؤمن بالتخصَّص، لا يفكر، لا يؤول، لا علاقة له بالسرطانات، والحقيقة أنه يحبُّ سلقها وأكلها، ولكنه في إحدى المرات أحسَّ بالذنب عندما رآها تتشنج في القِدر رافعة كلاباتها في الهواء. وهذه هي أقصى جرائمه التي يذكرُ أنه اقترفها. التعاطف مع سرطان مسلوق. لا شيء أكثر، لكن عندما يتعلق الأمر بالقراءة.. هزّ رأسه. كلنا لدينا عادات سيئة! غمغم لنفسه؛ البعض منا يدخن، البعض يشرب الكحول، والبعض الآخر يقرأ.

سوف يُسرُّ العجوز في تلك الزنزانة، إن كان ما زال حيًا على أية حال، إذا عرفَ بأن رقيب الكتب سابقًا، هو حارس المكتبة سابقًا، مفتّش المكتبات حاليًا، ما زال يقرأ. صحيحٌ أنه يفعل ذلك على نحوٍ أقل، وأنه بات يتصبب عرقًا كلما قبض على كتابٍ ممنوع، وأنه ينتظر كل ليلةٍ أن يتعالى شخير زوجته كي يفتح دولاب ملابسه ويخرج كتابًا ويقرأ منه صفحة، أو اثنتين، ولكنه مؤخرًا، وبسبب وجيب قلبه المتصاعد، صار يكتفي بقراءة فقرة واحدة، وكان يفضّلُ، في الغالب، أن تكون شِعرًا؛ شيئًا يستطيع أن يتحسس مذاقه في لسانهِ بقية اليوم.

تلفت حوله؛ مجمّع تجاري في العراء، بمتاجر مهجورة وشقق سكنية غير مأهولة. كيف، بحق الرّب، سوف يعثر على

متجر كتبٍ هنا؟ لمح على الجدار عن يمينهِ رسمًا غريبًا لأرنبٍ أبيض، بأذنين منتصبتين، يرتدي سُترة ويحمل ساعة جيب، إلى جانب سهمٍ يشير إلى زقاق هزيل، وكان عليه، لهذه المرة أيضًا، أن يفعل الشيء الوحيد الذي يستطيع فعله؛ أن يتبع الأرنب الأبيض.

2

في نهايةِ الزقاق، كان متجر كُتب.

لم يصدّق الرجل عينيهِ، فقد كان فعلًا هناك، في المكان الذي انتهى فيه الجدار، وابتدأ منهُ الأرنب.

ثمة كتبٍ مغبرة، بأغلفة مهترئة، ملقاة على الرصيفِ خارجًا، لم يكترث أحدٌ بشأن التقاطها، ولا صاحبُ المكتبةِ حتى. كانت بلا أغلفة، وكان الفضول يقتله للتعرّف إليها من الداخل، لكنه لم يجرؤ.

هل هذا فخ؟ هل وشى به العجوز، ودبروا له هذه المكيدة، وأرسلوه إلى متجر كتبٍ لعينٍ في آخر الدنيا.. من أجل اختباره؟ ماذا لو أن كل شيءٍ ليس كما هو عليه؟ ماذا لو أنَّ الجدار، والسرطان، والأرنب ذي السترة وساعة الجيب، ومتجر الكتب، كلها مصطنعة. ماذا لو كانت بلاد العجائب هي جمهورية الأخ الكبير؟ ازدرد ريقه، قاومَ رغبته العارمة بنشلِ الكتب الملقاة على الرَّصيف، والركض بعيدًا، ولكنه لن يلتقط الطُّعم بهذه السهولة.

وهذه البوابة الخشبية الموصدة في نهايةِ الزقاق، إنها تجتذبهُ..

على الدوّاسة الملقاةِ على عتبةِ المدخل، قرأ عبارة؛ «لا تدخُل». وقد وجد نفسه يبتسم. بائع الكتب هذا لا يريد أن يبيع كتبه على ما يبدو، وبوجود المتجرِ هنا، فهو يبدو كمن يبيع الصحراء على الأسماك، لولا أنه ليس ثمة أسماك. إنّ كل شيءٍ هنا يبدو فاقدًا لقوة المنطق، ولكنه ساحرٌ على نحوٍ ما، وهو قد أَلِف هذا السِّحر، وصار يستطيع تمييزه. إنه سحرُ الاستعارات، لولا أنها هذه المرة ليست موجودة في الكتب، ولا في رأسه، إنها في تفاصيل المكان ويستطيع لمسها وشمّها.

لمح إلى جانبِ المدخل أصص نباتاتٍ، مليئة بأوراقِ الخسّ، وجاهد نفسه كيلا يبتسم. كل شيءٍ في هذا المكان، وخاصة رائحته، يبدو مقصودًا، ومُصمّمًا من أجله، ولو كانت الاستخبارات خلف الباب فعلًا، ولو كان هذا كله مجرد فخ، فهو أجمل فخٍ في العالم، وهو ليس فخًا أكثر مما هو فَن، وقد كان مستعدًا لأن يَفنى فيهِ، مثل عثةٍ في لهبِ قنديل.

فتحَ البابَ الخشبي العتيق، وسمع صرير مفاصله، ورنين أجراسٍ صغيرة تعلنُ وصوله، وقد أطبق الوجلُ على قلبهِ، فأغمض، لأنه خشي أن يفتح عينيه فجأة، ويجد نفسه محاطًا بالكتبِ، فيتوقّف قلبه من شدة الشوق. لكنه عندما فتح عينيه، شعر بأن المكان قد صفعه.

أين تلك الكتب التي كان يمنّي النفس باكتشافِها؟ كل العناوين المرصوصة على الأرفف كانت من قبيل؛ «دموع أنثى»، و«قلبك لي»، و«لأنني أحبّك»، وكتب أخرى سببت له حموضة في المعدة، ناهيك عن مئات العناوين المتعلقة بجذب المال، والنجاح، والسعادة. كتبٌ صالحة للتداول، موضوعة على الأرفف بقوة القانون، وأحسَّ بأن الأرض تنهارُ من تحت قدميه..

- أهلًا بك يا حضرة المفتّش، لقد كنتُ في انتظارك.

رفع عينيه إلى مصدر الصوت. خلفَ طاولة المحاسبة، رأى امرأة تبتسم. امرأة قرَّر أنها جميلة، رغم أنها على نحوٍ ما، تبدو راغبة في إخفاء ذلك. إطار نظارتيها قبيح، وفي وسعها أن تسدل شعرها على كتفيها قليلًا، وأن تفتح زرّها العلوي، وأن تبتسم في عينيها، وليس في فمِها فقط، حتى لو كان مكتنزًا وجذابًا، ولكنها تبدو مخادعة، أو هكذا شعر على الأقل. بدت مثل شبحٍ هاربٍ من حياة قديمة، كانت فيها بائعة الكتب، هذه الورّاقة، أميرةً من إحدى الممالك البعيدة، مع مرآة سحرية، تعثر على كل من يتجاسر لخطبتها، لكي تقتله. امرأة مجنونة جدًا. هكذا قرر، قبل أن تتفوّه البائعة بكلمةٍ واحدة.

- كنتِ في انتظاري؟

- نعم..

ثم اختفت للحظةٍ خلف الطاولة، وعادت مع ملفٍ أسود متخمٍ بالأوراق، وفتحت الملف في منتصفهِ. انظر، يا حضرة المفتّش، إنها شهادات إجازة تداول الكتب، مختومة من هيئة الرقابة وموقعة من المدير. كل كتابٍ على هذه الأرفف، حائز على شهادة معتمدة بصلاحيته للتداول. يمكنك أن تتحقّقَ من الأمر بنفسِك..

لا داعِي. غمغم، وهو يكزُّ بأسنانه. لقد فحص الكثير من تلك الكتب بنفسهِ، وأجازها بنفسهِ، ويستطيع تمييز تلك الأغلفة، عوضًا عن كونه لن يخطئ، أبدًا، موجة الغثيان السُّفلية التي تجتاحه. غثيان كاكيٌّ اللون، وبرغوةٍ لزجة.

لقد كان كل شيءٍ، ويا للأسف، صحيحًا! وأحسَّ أنه مطعون، وأن الفخَّ الحقيقي ليس شِركًا استخباراتيًا مصنوعًا من الروايات، بل الوصول بخيبةِ أمله إلى هذا الحد. أحسَّ بضعفٍ مفاجئ في ساقيه، وكان يريدُ أن يجلس، وأن يسمح لنفسه بأن يحزنَ لبعض الوقت؛ لأن السكرتير مُعتقل، ولأنه وحيد، ولأنه نُقل من قسم الرقابة، ولأنه لم يزُر المتاهة منذ زمنٍ طويل، ولأن متاجر الكتب ممتلئة بالهراء. ثمَّ قرر أن يتصرف بتهور. اقترب أكثر من طاولة المحاسبة وحدّق في عينيها الباردتين، السوداوين على نحوٍ مروّع.

- هل أجد لديكِ نسخة من «بينوكيو»؟

صعرت المرأة خدّها.

- هل تمزح معي، يا حضرة المفتّش؟ هذه الرواية ممنوعة.

إنها بائعة كتبٍ لعينة، على سطحِ العالم.

- قلتِ بأنك كنتِ في انتظاري..

- هذا صحيح.

- وكيف ذلك؟

ابتسمت المرأة.

- لقد أخبرني الأرنب.

3

بمجرّد أن تفوّهت بائعة الكتب بتلك الكلمات، انفجرت ضاحكة، وهي تشير إليه بسبّابتها؛ «يا إلهي! انظر إلى وجهك!».

أحسَّ الرَّجل بأنه لا يفهمُ شيئًا. هذه المرأة تسخر منه، ظلت تردد جملًا غير مفهومة على شاكلة؛ لقد خدعتك تمامًا، كنتُ أعرفُ بأنني أعبث بعقلك، ولكن الأمر يستحق، صدقني.. كان يفترض أن أجلب معي مرآةً لكي ترى نفسك! أخذ العرق يتصبب من رأسِهِ على نحوٍ غريب، فيما قررت المرأة أن تجلس على طرف طاولة المحاسبة، تضع ساقًا فوق الأخرى، وتشعل سيجارة. أنا أكره المرايا. غمغَم. وقد وجدها ملاحظة فائضة تمامًا، وغير ضرورية بالمرة، فإذا كان فعلًا يكره المرايا، لماذا يخبر بائعة الكتب المجنونة بذلك؟ ولماذا يهيم بالروايات إلى هذا الحد؟ لكنه قرر أن يضع حدًا لأفكارهِ ويسأل السؤال المنطقي الوحيد.

- من أنتِ؟

- أنا الورّاقة.

- لقد قلتِ للتوّ شيئًا.. شيئًا عن الأرانب.

- اهدأ.

قالت المرأة وكأن عقله البطيء لم يعد مسليًا بعد عاصفة الضحك. «لا يحتاج المرء إلى شرحِ أي شيءٍ عندما يتعلق الأمر بالأرانب». أردفت. طأطأ خافضًا بصره، مثل تلميذٍ فاشل.

- كنت أعتقدُ أنه أحسن تدريبك.

- من؟

- النجّار العجوز..

- آه..

نفثت المرأة الدخان من منخريْها. اكتسى وجهها فجأة بلمحةٍ حزينة. قرر ألا يسأل أكثر. ما رأيكَ بمتجري؟ سألته.

- إنه أكبر خيبة أملٍ عشتها في حياتي.

ضحكت ثانيةً، ثم أطفأت سيجارتها سريعًا، نظرت إليه بطرفِ عينها تبتسم.

- هل تبحث عن الكتب؟

- أنا مفتّش مكتبات، هذا تقريبًا هو عملي.

- لديّ شيءٌ من أجلك.

قبضت الوراقةُ على يدِ المفتّش، واقتادتهُ إلى البابِ الجانبي خلف طاولةِ المحاسبة. أحسَّ بوجيبِ قلبهِ يتسارعُ مع لمسة يدِها، وتدفقت الدِّماء حارةً في عروقِه، حتى تمنى أن يدفعها عنه، أن يمسح ظاهر كفّهِ مليًا ليزيل آثارها، لولا أنه لم يشأ أن يبدو كما هو؛ ضعيفًا وفظًا. شدّته الوراقة معها إلى الجانب الخلفي من المتجر، بعد طاولة المحاسبة، التي تركت على سطحها ذلك الملف العملاق المليء بقراراتِ إجازة التداول. إلى أين تذهب هذه المجنونة؟ كانت هناك خيوط مسدلة تتدلى منها أجراسٌ صغيرة، تخللاها عابرين إلى غرفة إسمنتية مربعة، في منتصفِها درجٌ لولبيٌ يمتدُّ إلى الأسفل. أطلَّ المفتّش في الفتحة؛ ما هذا؟ سأل المرأة.

- هذا جحر الأرنب.

كان يعرفُ هذا المكان. إنه النفق الأبدي الذي يسقطُ فيه في أحلامه. لننزِل! قالت الورّاقة، ثم سبقته إلى الأسفل. قفزت تقريبًا، مثل أرنبةٍ لعينة. وتساءل إن كانت جدرانُ هذا الثقب الأسود العجيب، مكسوّة بالكتب كما في أحلامه، وإذا ما كان سيجد، بعد أن تنتهي سقطته البطيئة في العالم السفلي، أشخاصًا تنبت رؤوسهم في أقدامهم، وتساءل كيف يقرأُ هؤلاء، وهل يدوسون أدمغتهم طوال الوقت، وهل تتمتع أحذيتهم بعبقرية ما؟ سمع الفتاة تصرخ؛ أين أنت! انزِل الآن! كان بودّه أن يسأل؛ ولكن ماذا يوجد تحت؟ فـ.. ماذا لو كانت هذه المجنونة تحتفظ بجثث قتلاها في السرداب، أو أنها تنوي اختطافه واغتصابه. إن أكثر خيالاته الجنسية جموحًا لم تبلغ هذا المستوى من الإثارة في حياتِه. شعر بحرارة وجنتيه وتعرّق راحتيه. كفاكَ حماقة! سمعَ صوتًا داخل رأسه، وهذه المرة كان قادرًا على تمييزهِ تمامًا؛ إنه صوت العجوز. هذا جحرُ الأرنب، وأنت تعرف تمامًا ما ينتظرك في الأسفل. إنه درجٌ لولبي، مجرد درجٍ لولبي، سوف ينزل الآن، يدورُ حول النقطة نفسها مرة بعد أخرى، ولكن إلى الأسفل، دائمًا إلى الأسفل. بلاد العجائب أو جمهورية الأخ الكبير، سينزل الآن ويكتشف الأمر بنفسِه.

ومثل الحلم الذي اكتست جدرانه بالكتب، ورغم أنها لم تكن سقطة بالمعنى الدقيق للكلمة، إلا أنَّ بلوغ السرداب قد استغرق مدة طويلة. في منتصفِ الطريق إلى القاع تناهى إلى سمعهِ صوت الورّاقة وهي تغنّي. بدت مثل طفلةٍ تلعبُ بالصَّدى.

عندما وصلَ إلى نهاية الدَّرج في نزوله، متيبّسَ الفخذين وبأطرافٍ ترتجفُ من التعب، وجد ظلامًا دامسًا، وفكّر من فورِه بالجثث المدفونة في هذا القبو، لكل مفتّشي الكتب الذين زاروا المكان من قبلِه. أين أنتِ؟ سأل، وكان صوته يرتعشُ قليلًا، وأمِل ألا تلاحظ الورّاقة الغريبة خوفه. في تلك اللحظة تمامًا سمع صوتَ كبسة زِر، ثم أصبح قادرًا على رؤيةِ كل شيء، ورغم أنه أدرك القاع، إلا أن قلبه ما زال يهوي. وقف يسندُ جسده إلى الجدار من ورائهِ بصعوبة، ليرى امتداد الأرفف الخشبية يملأُ العالم السفلي حتى آخره.

إنها مكتبة!

متجر كتبٍ حقيقي، بالرائحة الصحيحة، والعناوين الصحيحة كذلك. تبدَّد التعب من جسده وراح يسيرُ بين أعمدة الكتب المتطاولة على يمينهِ وشمالِه، يمسح بيدهِ على سطوحِها، كما لو كان يداعبُ حيواناتٍ أليفة. أنتِ تبدين بخير! قال، وافتر ثغره عن ابتسامة. لقد مرَّ زمنٌ طويل على آخر مرة شعر فيها بهذا القرب المادّي من الكتب. رأى فيها هذا القدر من الكتب، وليست أي كتب! بل الكتب الصحيحة؛ الكتب الممنوعة، المزعجة، المسيئة، التي تصنع المشاكل وتقلق النظام العام وتخدش آداب المجتمع وتزعزعُ طمأنينة العالم. إنها الكتب التي كان ينشلها من مستودع الحكومة من أجل إنقاذِها من الحرق. إنها كتبٌ حقيقية، ذات تأثير كارثي، قادرة على الخلق والتدميرِ معًا.

وقف أمام أحدِ الأعمدة، يتحسّس أضلاع الأغلفة. أولى ظهرهُ للوراقة، تحسبًا لأية تعابير غير ملائمة قد تغمر وجهه، فهو من أولئك الذين يعتقدون بأنه لا يليق بالرجل أن يبكي أمام امرأة، وامرأة جميلة تحديدًا، وخاصة من النوع الذي يهربُ من جمالِه. لكنه في تلك اللحظة، أراد أن يدير لها وجهه.. ليشكُرها وحسب. إذن؟ سمع صوتها المتهكّم يهمس قريبًا منه. وأردفت:

- ماذا ستفعل يا حضرة المفتّش؟ هل ستقوم باعتقالي؟

أدار وجهه ناحية المرأة. كانت تبتسم وهي تشعل لنفسها سيجارةً أخرى.

- لديَّ سؤالٌ واحد لكِ.

- ما هو؟

- هل أجد عندك نسخة من «بينوكيو»؟

4

- كفى لعِبًا الآن. أنت هنا لسبب، ألم تفهم ذلك حتى الآن؟

إنه لم يفكّر في الأمر قبل اللحظة، وحتى الآن، وهو مُضطرٌ للتفكير في الأمر، فهو لا يهمه، وليس الأمر أنه قد انزلق مرة ثانية في متاهات التفكير الازدواجي، بقدر ما هو ملتذٌّ بفكرة عدم التفكير في الأمر، لأن كل ما يريده هو أن يكتشف تلك الكتب، أن يتحسَّسها ويشمَّ رائحتها، بقدر ما يريد أن يسمع صوت احتكاك إبهامِه بالورق الخشن، وذلك الحفيف الغريب الذي ينبعث من الكتاب كلما قرر أن يطوي صفحةً أخرى. يريد أن يرى الحسناوات يخرجن من اللَّيمون المسحور، كل واحدة تمدّ إليه ذراعين بضّتين وتقول: اسقِني! ويريد أن يكون الماء، فالكتب تعطشُ أيضًا، تُطالب بحقها في أن تُقرأ، فلماذا، حبًا بالله، تثرثر هذه المرأة عن أمورٍ غير ضرورية؟

- ماذا؟ أليس لديكِ هنا نسخة من «بينوكيو»؟

لا تغيّر الموضوع. قالت بصوتٍ حاسم. وفكر بأنها غير مضطرة لمعاملته بهذه القسوة، أضافت حاسمةً: «أنتَ حارسُ المكتبة». كأنها تريد إيقاظه. قال بصوتٍ مكتوم:

- كان ذلك منذ زمنٍ طويل.

- يجب أن تعود إلى المتاهة..

تشنّجت أصابعه على بعدِ سنتمترين من الكتاب أمامه، عالقة في الفراغ. نظر إلى المرأة بطرفِ عينِه، ثم طأطأ. إنه لم يعد إلى ذلك المكان منذ اعتقال العجوز، ولا يظنُّ نفسه قادرًا على ذلك. لقد أصيبَ بالخوفِ، وأمضى الأشهر الماضية في تدريباتٍ شاقة لكي يتحوّل إلى شخصٍ غير مرئي، حتى لو جاءهم بلاغٌ بشأنه، فلن يعثروا عليهِ. ولكن كيف عثرت عليه هذه المرأة؟

همهمَ..

- لا أستطيع.

هزت كتفيها بتململُ.

- استطِع إذن.

- ليس بهذه السهولة..

ولكن كيف عثرت عليه هذه الورّاقة، وكيف تدبّرت أمر نقله إلى قسم التفتيش، وتكليفه بتفتيش متجر الكتبِ هذا تحديدًا؟ إنهم لا يكفّون عن إدهاشه بقدرتهم على اختراق النظام، هؤلاء السرطانات.

قالت:

- اسمع، عيد التطهير يقترب، وبحسب مصادرنا، سوف يحرقون عشرة آلاف كتابٍ هذه السنة على الأقل. إنها مجزرة حقيقية، ويجب أن تفعل شيئًا.

لكنه كان غاضبًا من أمرٍ آخر، سألها: وأين كنتم طوال الفترة الماضية؟ كنا ننتظر. تنتظرون ماذا؟ الوقت المناسب لنقلك إلى قسم التفتيش. وماذا عن السكرتير، هل توجد أخبار عنه؟ زمّت الوراقة فمها وهزّت رأسها.

زفر:

- لا يمكنني نشلُ عشرة آلاف كتاب.

- لم يطلب منك أحدٌ ذلك.

- إن سياساتكم في اختيار الكتب الجديرة بالإنقاذ لا تعجبني.

- هذا يعني أنك من فلول النظام الديموقراطي البائد.

ابتسمت. لكنه لم يجد الأمر طريفًا، فهو لا يحبُّ الديموقراطية، ولا علاقة للكتبِ بالأمر.

- ثمة نسخ نادِرة، مخطوطات، كتبٌ لا يمكننا الاستمرار من دونها..

بدأت تسترسلُ في القول، وقد ظهر التأثر على صوتِها. وفكّر المفتّش لحظتها بأنها ليست مجرد امرأة حديدية ومحبة للسجائر كما تبدو.

- أنتِ تتحدثين مثله.

- مثل من؟

- مثل العجوز.

- لقد تولّى بنفسهِ عملية تدريبي.

- واضِح.

بدا التأثر واضحًا على ملامح المرأة، وقد لمعت عيناها بذكرياتٍ بعيدة. أردفت:

- كان يقرأ كل ما أكتبُه.

- أنتِ كاتبة إذن؟

- أحيانًا.

- وماذا تكتبين؟

- أشياء لا تعنيك.

- أنتِ لستِ لطيفة.

- كلما أدركتَ ذلك أسرع، كان الأمر أسهل لكلينا.

تأففت المرأة. كلما حاولت وضعه على الطريق حادَ بسؤالٍ هامشيٍ وشاذ. إنه غير مهتم بالحديث عن المتاهة بقدر ما يقتله الفضول لقراءة ما تكتبه. لم يسبق له أن قرأ مخطوطًا في حياتِه. ترى، كيف يبدو الأمر؟ كانت سبابته مشغولة بتتبّع عنوانٍ مدموغٍ بالحبر المذهّب على غلافٍ جلديٍ سميك لأحد القواميس. وكانَ

يتبرّمُ من إلحاحها مغمغمًا:

- لا أستطيع التسلل إلى مكتبة رئيس القسم لإخفاءِ الكتب.

- اجلِب الكتب إليّ، ألم تستنتج ذلك حتى الآن؟

الحقيقة أنه يفضل أن يلتزم بالروتين القديم، وأي تغيير في الخطة سوف يثير قلقه، وقد سبق له أن اعترف أمام حارس المتاهة بأنه ليس بطلًا، ولا يناسبه أبدًا هذا الدَّور. دور الرجل الذي يثبُ من مكانهِ أمام امرأة حديدية ويسألها؛ ماذا تريدينني أن أفعل؟ وهي لم تجعل الأمر أسهل عليهِ.

- وماذا عن غارات التفتيش؟ ماذا لو جاؤوا لتفتيشِ المكان؟

- لهذا السّبب تمَّ نقلك إلى قسمِ التفتيش.

- وماذا لو جاء مفتش آخر؟

- سوف نبقيهِ على سطحِ العالم، فوق، مع كتبٍ صالحة للتداول، كيف خطر لك أننا نجونا طوال تلك السنوات؟

ثم راحت الورّاقة تتذمّر؛ هل أحتاج إلى شرح ما هو واضح؟ ولكنه قرَّرَ لحظتها أن يسدل شيئًا من الغموض على تصرفاته، وأن

يتظاهر بأنه مشغول بالتقاطِ نسخة من كتاب «ألف ليلة وليلة»، وفتحه في المنتصف، وتفحص المجازات العالقة بنسيج اللغة..

- ما قولُك؟

- الحقيقة أنني لم أرغب قط بأن أكون مفتّشًا على المكتبات. عندما كنتُ رقيبَ كتب، على الأقل، كان في وسعي أن أقرأ في العمل، دون أن يكون في الأمر جريمة، لكن الآن..

الآن، صار يقرأ في غرفةِ نومه، والكتب المخفية في خزانة ثيابه قليلة، وقد قرأ كل واحدٍ منها عدة مرات، وهو جائع إلى كتابٍ جديد.

- كما أنني لم أعد سرطانًا.

- لم تعد سرطانًا؟

- لا، إنني أبٌ لطفلة، وأخشى عليها.

- اخرج إذن.

قالت المرأة، بذلك الوجه الجليدي المُصمت، وجه ملكة الثلج. ثم أولته ظهرها وانحنت قليلًا لكي تشعل سيجارة أخرى. هل

قالت؛ اخرج؟ كيف عساهُ يخرج من هذا المكان، وهو بالكاد يصدق أنه وجده!

- أنت تعرفُ طريق العودة.

- أنا لم..

- إذا لم تكن سرطانًا، لا يحق لك التجوّل في هذا الجزء من المتجر. سوف أعيدك إلى الطابق العلوي، وسيكون عليك أن تقوم باعتقالي.

- أنا لن أقوم باعتقالِك.

- هذا يعني أنك سرطان، أو ربما مصاب بالتفكير الازدواجي، مثل أيّ مواطنٍ آخر. وبحسب ما أرى، فأنت أمام مفترق طرقٍ حقيقي، إمّا أن تضع الأصفاد في يدي، أو أن تساعدني.

- وماذا لو رفضت؟

- حينها سأطلب منك الصعود إلى فوق، وسأقترح عليك عناوين كثيرة من كتبِ الخواطر التي تحبّها كثيرًا.

لقد كان محقًا في حدسه، فهذه الوراقة قادرة فعلًا على التعذيب. وللحظة تخيّل نفسه مقيدًا إلى كرسيٍ كهربائي، وثمة كتابٌ مشرّع أمام وجهه، تتصاعدُ الآهات من صفحاتِه مثل أبخرةٍ حامضة، وصوت المرأة المجنونة يُلعلع؛ اقرأ! اقرأ أكثر! وكلما تعفَّف عن قراءة سطرٍ آخر، كانت تصعقه بالكهرباء.

- أنتِ لئيمة.

وبارعة جدًا، أراد أن يضيف، لولا أنه خشيَ أن يزيدها ذلك صعوبة مراس. أحسَّ نفسه مثل دميةٍ خشبية معلقة بخيوطٍ لا مرئية مشدودة إلى يدي تلك المرأة. كانت هي سيدةُ العرض التي لا تُرى، وكان الأمر يشبهُ مثول شخصيةٍ روائية أمام كاتب. وتساءل إن كانت الورّاقة تكتب الروايات، وإن كان سيقرأ لها كتابًا ذات يوم، ربما عندما تخلع عن جلدها ذلك الدرع الحديدي الفظيع، وتصبح قادرة على قول كلماتٍ أليفة، كلمات بلا مخالب ولا أنياب.

- سوف أذهب إلى المتاهة.

- جيّد.

- والآن.. هل يمكنني شراء نسخة من بينوكيو؟

5

عادَ الرّقيب السابق، المفتّش الحالي، حارسًا للمكتبةِ، وصار يتسلل إلى المتاهةِ كلَّ ليلة، كما اعتاد أن يفعل في الأيام الخوالي، يلتقي بالرَّجل الغريب، يضيع، يقرأ، يضيعُ أكثر، يتذكَّرُ النَّجار العجوز، ينشلُ الكتب، ثم يأتي بها إلى الورّاقة، لتخبئها في قبوِ الممنوعات.

يومًا بعد يوم، شُفيَ حارسُ المكتبةِ من الخوفِ، وصار يستمتعُ بكسرِ القانون، والتسلل من ثغراتِه. ولكنه لمّا كان وحيدًا على نحوٍ يكسرُ القلب، يقرأُ مِئات الصَّفحاتِ يوميًا ولا يجدُ شخصًا يحدثه، لا سيما بعد اعتقال السكرتير، وجد عزاءً في زيارةِ متجر الكتبِ، كي يلتقي بالورّاقة الحَديديّةِ، التي تبذل جهدًا كبيرًا كيلا تتحول إلى امرأة جميلة.

أحيانًا، عندما كان يدلفُ من المدخل، رغم أنها كتبت عبارة «لا تدخل» على دوّاسة العتبة، ويسمعُ رنين الأجراسِ الصَّغيرة المعلّقة عند الباب، كان يراها تضع القلمَ من يدها، وتُخفي أوراقها

في الدُّرج، وخلال ثوانٍ يقطعها بالسَّير إلى طاولةِ المحاسبة، تكونُ الورّاقة قد نظَّفت سَطح الطاولة من آثار الجريمة. إنها لا يمكن أن تكتب في حضوره، ولن تسمح له بقراءة ما تكتبه، حتى خطرَ له أحيانًا أنها قد وقعت في غرامه، وأنها مشغولة به ليلًا ونهارًا، تكتبُ عنه قصائد لاهبة، مليئة بالشتائم واللعنات على الأرجح، فهذا طبعٌ أصيلٌ فيها ولا يمكن علاجه، ولكنَّ طريقتها الباردة في تحيته، كانت تفنّد هذا الاحتمال سريعًا. الأرجح أنها تنساهُ في اللحظة التي يغادر فيها، وتتذكّره عندما يأتي. وقد تجاسر وسألها مرّة: متى سأقرأ ما تكتبين؟ فهشّت عليهِ بيدها، وكأنه ذبابة مزعجة.

- أنت لا تريد قراءة ما أكتبه.

- لماذا؟

- لن يعجبك ما أكتب. الأمر بهذه البساطة.

وفكّر وقتها بأنها تُعاني من مرضِ الأدباء المعروف؛ قلة الثقة بالنفس، ولا يدري لماذا وجدَ في الأمر إشارة على أنها تكتبُ عملًا جيدًا.

- لم يسبق لي أن قرأتُ مخطوطًا، أرجوكِ.

- ما حكايتك اليوم؟

- أريد أن أقرأ مخطوطًا..

- لماذا؟

- أريد أن أتدخّل في العمل، أريد أن أشارك في كتابةِ شيء.

لقد كان الفضول يقتلهُ فعلًا، للدخول إلى مطبخ الكتابة، والتشمير عن كمّيه، وغمس ساعديهِ في الحبر حتى كوعيْه. أراد أن يشعر بأنه حِرَفيٌ، يتمدد على ظهره تحت آلة الأدب العظيمة، يتفحص المتاريس والصواميل، ويفكك شفرة السّحر. كل الكتب التي قرأها في حياته كانت منجزة، ومُكتملة، وغنية عن تدخلاته. ماذا لو قرأ مخطوطًا؟ ولكنّ المرأة أشاحت بعينيها، واصطبغ وجهُها بالأحمر، فتساءل مرة أخرى إن كانت مغرمة به.

- أنتَ لا تعرف عمَّ تتكلم.

وهو الأمر الذي تقوله، عادةً، لكي تُغير موضوعًا لا يطيب لها الحديث حوله. عندما بلغ بإلحاحه هذا الحد، قررت الورّاقة، الكاتبة في السّر، بأن الزيارة قد انتهت، وفتحت باب المتجر، فرنّت الأجراس الصغيرة، وقالت عُد إلى زوجتك.

لم يسبق لحارس المكتبة أن صادف زبونًا واحدًا في متجر الكتب، ولم يفهم، قطُّ، كيف كانت بائعة الكتبِ تدفع الإيجار، تساءل إن كان السبب هو وجود عبارة «لا تدخل» على دوّاسة العتبة، لكن المرأة ضحكت من أفكاره، وقالت إنّ هذه العبارة موجودة خصّيصًا لاجتذاب القرّاء، فهم لا يجيدون اتّباع الأوامر. هل هذا يعني أنَّ هناك قرّاء يعرفون بشأن مكتبك؟ سألها غير مصدّق. لماذا لم يسبق لي أن صادفتُ أحدًا منهم؟ رفعت كتفيها؛ إنهم فصيلٌ شبه منقرض، ماذا توقعت؟ أجابت ببساطة.

بتجارةٍ خاسرةٍ إلى هذه الدرجة. كان يشكُّ بأنَّ المرأة لا تملك مسكنًا خاصًّا بها، وأنها بعد نهاية يوم عملٍ طويل، تنزل إلى القبو المظلم المليء بالكتب الممنوعة، مثل ربّةٍ أسطورية من العالم السفلي، تفترشُ الأرض وتنام محتضنة كتابًا ما. وفكّر بأنها بعد أن تخلع نظارتيها، وتتخلص من تسريحة شعرها الفظيعة، وتنام، لن تبدو لئيمة إلى هذه الدرجة. ولكنّ هذا لا يجيب سؤاله. من أين لبائعةِ الكتب أن تدفع الإيجار، وتجد مالًا للعيش، إذا كان هو زبونها الوحيد، الذي يحصل على الكتب مجانًا؟

كانا يجلسان على الأرضية المغبرة في قبو الممنوعات، ليتحدّث كلٌّ منهما عن الصَّفحات التي قرأها في الليلة الماضية، وقد وجدَ الأمر مستفزًا عندما تبيّن له أنها تسبقه بحوالي مليون كتاب. كان يشعرُ بالتضاؤل في كل مرَّةٍ تفتح فيها هذه المرأة فمها للحديث عن كتابٍ آخر قرأتهُ. كان الأمر مقبولًا، عندما كان مُريدًا للعجوز، لأنه كان في المليونِ من عمره، ولكن هذه المرأة.. تمنى

في قرارته لو كانت تدّعي الأمر فحسب.

في زيارته الأولى إلى المتاهة، بعد قطيعةٍ مؤلمة، وجد حارسَ المتاهة في انتظاره، كما لو أن شيئًا لم يحدث. القميص نفسه، عُصابة الرأس، القدمين الحافيتين، والعضلات المتورمة في الزندين، والبشرة التي لوّحتها الشمس. أيها الرئيس! يا أخي! هتفَ الغريب وكأنه كان هنا بالأمس؛ أين كُنت!

صار يعرف بأن المقاومة تخترقُ النظام الأمني في ساعةٍ بعينها، تضع أحد عناصرها عند كاميرا المراقبة وتكلّفه بعملية مسح التسجيلات لاحقًا. لذا، كان عليه أن يأتي دائمًا في الوقت الصَّحيح، عندما يكون النظام مخترقًا. أخبرتهُ الوراقة أن هذا الأمر كان يحدث بسهولةٍ أكبر في الماضي من خلال الحواسيب، ولكن مع تقنين التقنية وكل ما أعقب الثورة من تحوّلات، صار لزامًا على اللُّصوص، القراصنة، ومُهرّبي الممنوعات أمثالهم، أن يفعلوا كل شيء بأنفسهم، وليس عبر شاشةٍ مضيئة. ما عدا ذلك، كان كل شيءٍ كما كان عليه.

أخبرتهُ الوراقة أيضًا بأنها تنتمي إلى سُلالةٍ من الورّاقين، وأن أجدادها كانوا شعراء وروائيين وباعة كتب. وقالت إنّ جدّها الأكبر، في ذلك الزَّمان، كان يستطيع قراءة الكتب من شاشةٍ صغيرة مضيئة، ويستطيع شراءها وبيعها أيضًا، لكنه كان يفضّل الكتب التي يلمسها الإنسان. كتبَ جدّي مرة بأنه يخافُ من فكرة أن تضيع الكتب المخزّنة في «غيمةٍ ما»، أكثر مما يخاف من فكرة أن

يشبَّ حريقٌ في متجره، وكان على حق. بعد الثورة، فُقدت مئات الآلاف من الكتب المنشورة في الانترنت، ولكن البعض ما زالوا يؤكدون وجودها في الغيمة. في ذلك الزمن، لم يكن هناك مفتّشون ولا رقباء.. قالت، وهي تمرر عينيها على سطوح الأغلفةِ بقلق، مثل أمٍ تحاول التحقق من سلامة صغارها. لم يفهم حارسُ المكتبة الكثير مما قالته الوراقة، فالغيومُ لا توجد في الشاشات المضيئة، إلا إذا كان الناس، في ذلك الزمان، يتحدثون بالاستعاراتِ. وقد جعلهُ ذلك يتذكّر الأيام الأولى التي عملَ فيها حارِسًا لسطح العالم.

- أنا لم أصدق قط بأن اللغة سطحٌ صقيل.

قال فجأة، من دون مقدمات، وقد اجتهد لكي يبدو عميقًا، آملًا أن يثير إعجابها. ابتسمت المرأة ورفعت أحد حاجبيها:

- لا؟

- إنهم يقولون طوال الوقت إنّ علينا أن نبقى على سطحِ اللغة، ولكن اللغة ليست سطحًا، النظام مخطئ.

وقد فكّر بأنه شجاع جدًا لكي يرتّب كلماته على هذا النحو؛ النظام مخطئ. لو كان العجوز حاضرًا لربّتَ على رأسه بفخر، إذ لم يسبق له أن قال شيئًا كهذا بصوتٍ مسموع. امتلأ صدره بغبطةٍ غريبة، وكان يأمل أن يرى الورّاقة الحديدية تبتسمُ، مثل أميرةٍ

تتملى فارسًا انتهى لتوّه من نحرِ تنّين. لكنّها اكتفت بأن مالت بجذعها إلى الأمام لإشعال سيجارة، ثم نثّت الدخان من منخريها وهي تتفحصه بعينيها. لقد بدت في تلك اللحظة أقرب إلى التنين منها إلى الأميرة.

- ولكنّهم على حق.

قالت، وأحسَّ بصاعقةٍ تضربُ رأسه.

- ماذا تقصدين؟

- اللغة كلها سطح، والقاعُ سطحٍ ملتوٍ. هذا الشيء الذي يحدث، بقوة الشعر مثلًا..

سكتت برهة ثم أضافت.

- إن أسخف حربٍ يمكن أن تخوضها في حياتك، هي حرب استعارة ضدّ أخرى.

ولم يسبق لحارسِ المكتبة أن أحسَّ بالتضاؤل إلى هذه الدرجة، مثل دونكيشوت وحيد، برمحٍ مكسور، يحرسُ سطح العالم من المعنى. إنها تنتقص منه، من كل شيءٍ جرّبه وخاضَ فيه لأجل أن يصل إلى هذا المكان. وتساءل إن كانت تتعمَّدُ الأمر، أم أنَّها

موجودة فحسب داخل رأسها، مشغولة باختبارِ فكرة والإطاحة بأخرى، والحياة برمّتها، بالنسبة لها، هي هذه اللعبة فحسب.

تكرَّر الأمر كثيرًا في الأيام الأخيرة. كانت تقولُ شيئًا من قبيل «القاع سطحٌ منثنٍ» أو أي هراء آخر، ويشعر هو، إلى جانب الخزي، بأنه يبغض تلك المرأة التي تهربُ من جمالِها، وأنها مجرد دعيّةٍ بغيضة، تمارس السَّفسطة على سبيلِ الهواية، وتجعل من كل امرأةٍ أخرى شيئًا يشبه أكل القرنبيط المسلوق، والأهم أنها لا تستحقُّ أن تكون بائعة كتب، لأنها تشبه ملكة الثلج في القِصَّة القديمة، ولا يمكن لملكة الثلج الوحيدة من فرطِ قسوتها أن تستحقّ كل هذا الحظ.

ولكن الحياة ليست عادلة، وهي، على أية حال، منحته نسخةً مصوّرةً من قصة بينوكيو، ولم تطلب منه أن يدفع.

6

وفي تلك الظهيرة، عندما ذهبَ حارسُ المكتبةِ إلى المدرسةِ لأخذِ ابنته، كانت الطفلةُ قد اختفت.

لم يجدها في انتظاره، كما هي العادة، مع بقية الأطفال الذين ينتظرون في ساحةِ العلم مجيء آبائهم لاصطحابهم. خطر له أنها وقعت في مشكلةٍ أخرى، وما زالت جالسة على كرسيّ المشاغبين في الفصل. حدث ذلك من قبل، مرّتين على الأقل. تمتمَ لنفسه؛ لا داعي للقلق. لكنه سار في الممراتِ المكسوّةِ بمربعات البورسلين، عبر الحديقة الخلفية، مارًّا بحظيرة الأرانب، مشى على العُشب غير مكترثٍ للتعليمات، وقد بدأ قلبه ينقبض. هل حدث ذلك من قبل حقًا، أم أنه يتخيّل ما يحتاج حدوثه؟

عندما بلغَ غرفةَ الفصل، لم تكن الطفلة هناك أيضًا، وبمجرد أن رأته المعلّمة يطلُّ برأسِهِ من الباب نصفِ الموارب، متسائلًا لماذا لم تكن الصَّغيرة مع بقية الأطفال في السّاحة الخارجية، بتلك الرعشة المريبة التي تنتابُ أطراف أصابعهِ، وقطيراتِ العرق

الصَّغيرة ترشحُ من مسامِ أنفه.. والشُّحوب الغريب في فمِه، كما لو أنَّ حدوده قد رُسمت فجأة بقلمٍ أبيض. كان قد أظهر، تقريبًا، جميع أعراض الآباء الذين يختفي أطفالهم في الدقائق الأولى، ولم يصِل، بعدُ، إلى مرحلة الصّراخ، وتحطيم الأشياء.

نهضت المعلمة من مكانِها بهدوء، تسيرِ على نحوٍ شبحيٍّ، وكأن قدميها لا تلامسانِ الأرض. لم يسمع قرع حذائيها أبدًا، وفكّر بأنها فكرةٌ غريبة جدًا لكي تخطر ببالهِ في لحظةٍ مثل هذه. كان التعبُ ينهال بغتةً على أعضائهِ، وكأنه يوشكُ أن ينطفئ، وهو يلاحق المعلمة بعينيه. لماذا لم تكن تنظرُ إليه؟ كانت تثبّت عينيها على الأرضِ وتزمُّ شفتيها بشدة، كما لو أنها قد التقمت حصاةً تخافُ أن تنزلق خارجًا. يعرفُ حارسُ المكتبة متى يبدأ الناس في هذه المدينة بالتصرّف على هذا النحو، أوجعهُ بطنه. أين ابنتي؟ سأل. اذهب إلى مكتبِ الناظرة، إنها في انتظارك. قالت المعلمة. هل كانت هناك مسحة اعتذارية في كلماتها أم تراهُ توهّم الأمر؟ لم تنظر إلى عينيه على أية حال، كانت تحدّق في جبينه. أما هو، فقد كان ينظر إلى كرسيّ الأطفال المشاغبين في زاوية الفصل، دون أن يصدّق أنه فارغ.

هرع إلى مكتبِ الناظرة، يهروِل خببًا، آملًا أن يكون الأمر مجرّد مشاجرةً عادية مع أحد الأطفال، وأنَّ كل ما عليهِ فعلهُ هو أن يطلب من ابنته أن تعتذر. سار في تلك الممرات، عبر الحديقة الخلفية، مرَّ بمحاذاة حظيرة الأرانب وهو يشتم، ثمَّ بلغ المكتب الإداري؛ أبوابٌ كثيرة، جدرانٌ أكثر، في كلّ غرفةٍ كان أحدهم

يأخذه إلى مكانٍ مختلف، وأحسَّ نفسه تائهًا في مبنى المدرسة. ثمَّ عندما وصل إلى مكتب الناظرة، ولم يجد ابنته جالسةً على المقاعد الجانبية، مع أطفال آخرين تصرَّفوا على نحوٍ غير لائق.. عرفَ بأن أسوأ كوابيسه على الإطلاق، أكثر شيءٍ يخشاهُ في هذا العالم، قد تحقَّق فعلًا.

- أين هي؟

- اجلِس أرجوك..

- أين ابنتي؟

أشارت ناظرة المدرسة إلى أحد المقاعد، لكنه رفض الجلوس، وصار يحدق في وجهها دون أن يضطر لإخفاء كراهيته. وقفَ هناك، ينتظر أن تخبره بما يعرفهُ أصلًا. أين هي؟ بلعت الناظرة ريقها، هي الأخرى لم تكن تنظر في عينيه، وتساءل إن كانوا جميعًا قد حصلوا على تعليماتٍ بهذا الشأن.

- كانت هناك جولة تفتيشية على المدرسة اليوم، عدد من الموجهين جاءوا لفحص جاهزية طلبة الصف الثاني للانتقال إلى المرحلة الابتدائية، وطفلتك..

- ما بها طفلتي؟

- أعتقدُ بأنك قادرٌ على تخمين ما حدث..

- هل رسبت في الاختبار؟

- لقد نقلوها مع طفلة أخرى إلى مركز إعادة التأهيل.

ثمّ مدت إليه بقصاصةِ ورق.

- هذا إخطار باستدعائك للمركز لأجل التحقيق.

ارتفع حاجباه:

- التحقيق؟

يأخذون طفلتك، ثم يتصرفون وكأنك اختطفتها. لم يفهم. ما زالت الناظرة تتحاشى النظر إلى عينيه. ثمَّ تلفظت بكلماتٍ بدت مدرّبةً على قولِها:

- إنه إجراءٌ روتيني، كلُّ الأطفال الذين يظهرون أعراضَ المخيلة يتم التحقيق مع آبائهم، للتحقُّق من قيامهم بواجباتهم التربوية، والحقيقة أن الآباء يغادرون تلك المراكز سريعًا، فالأمر مُعقد والكل يعرفُ ذلك، إذ يمكن أن تفعل الأسرة كل شيءٍ بشكلٍ صحيح، ومع ذلك يكبر الطفل مصابًا

بالمخيلة. إن هذا وارِد، فالسبب أحيانًا بيولوجي..

سمع طنينًا غريبًا في داخل رأسه. وتساءل بماذا عساها تهذي هذه الحيزبون؟

- هل أستطيع رؤية ابنتي؟

- الأمر يعودُ للمختصّين في المركز..

بالطبع. فهو يعرفُ هذه المعلومة. يمكن أن يذهب إلى المركز الآن، ويُعتقل، أو يحتجز للتحقيق، أو يُركَل إلى الشارع. الأمر سيان. لن يرى ابنته قبل مرور وقتٍ طويل من العلاج، لن يرى ابنته حتى توافق الحكومة على ذلك، فكل شيءٍ، في نهاية الأمر، هو ملك الحكومة. ورؤية الطفلة غير مضمونة، إذ يمكن أن يقرِّر الأطباء أن رؤيتها لهُ ستسبب نكوصًا في حالها، ولكنَّ الحقيقة التي لا يقولُها أحد، هي أن الأطفال الذين يدخلون مراكز إعادة التأهيل، يفقدون عُقولهم أو حيواتهم، ولكنهم لا يفقدون مخيّلاتهم أبدًا..

7

لم يسبق لحارسِ المكتبة، ولا لزوجتِه، أن زارا مراكز إعادةِ التأهيل من قبل، لكنهما يذكران، بل ويحفظان عن ظهر قلب، الكثير من الصور والمعلومات من حملات التوعية التي تشجّع الأهالي على زيارة أقرب مركز إذا ما اشتبهوا بإصابة أطفالهم بأعراضِ العالم القديم. تمامًا مثل تلك الحملات التي تشجّع على أخذ اللقاحاتِ الطبية في المواعيد المقرّرة، أو مراجعة عيادات التبوّل اللاإرادي. في تلك الإعلانات، كانت تبدو مراكز إعادة التأهيل مثل أماكن لطيفة، مع مُمرضات في غايةِ الجمال، لأن هذا هو ما يحتاجه طفلٌ مُعاق في الحقيقة، أليس كذلك؟ فتاة بابتسامة مثالية، عينين واسعتينِ، وأنف صغير. كان يرى في الإعلان أطفالًا يبتسمون، يُنشدون الأغاني الوطنية ويقومون بالتمارين الرياضية في الصَّباح الباكر، ويحضرون فصولًا دراسية مكثفة، يتم تصميمُها بحسب حالة كل طفل، لتقويم اعوجاج أفكارهم. في مشهدٍ أخير من ذلك الإعلان، المشهد الذي أثارَ قلقه، كان يرى طفلًا يلوّح للكاميرا قبل لحظاتٍ قليلة من وضع خوذةٍ سوداء على رأسه، تنبعثُ من قمّتها أسلاكٌ رمادية وحمراء وزرقاء. إنها آخر

اختراعٍ حكومي في مجال غسيل الأدمغة.

كان يفترضُ بتلك الأجهزة أن تقتلَ مراكز المخيلة في الدِّماغ، وأن تنشّط مراكز المنطق، لأنَّ الطفل لا يمكن أن يحظى بالاثنين معًا، ما لا يقوله أحد أن فعاليتها كانت ضعيفة، وأنَّ لها أعراضًا جانبية غاية في الخطورة، مثل أن يفقدُ الطفل ذاكرته، بصرهُ، أو قدرته على النطق. كانت الحالات الأكثر شيوعًا، هي أن يفقد الطفل القدرة على تسمية الشيء باسمه، فقد سمع قصصًا كثيرة عن طفلٍ يسمي الشجرة قنديلًا، ويسمي البيتَ قوقعة.

حكى له العجوزُ، قبل اعتقالهِ، عن حالاتٍ من هذا النوع، آثرت الحكومة أن تقتل بعدها الطفل في غرفةِ الغاز، لأنّها لا يمكن أن تسمح بأن يخرج طفلٌ كهذا إلى العالم ويسمّي الشيء بغير اسمه، فالشيء هو، هو. وبحسب تعبير العجوز؛ أصبح أولئك الأطفال عاجزين عن الكلام بلا استعارات، فتوجّب التخلص منهم. الأمر الآخر، الواضح بطبيعته، أنَّ الحكومة لا يمكنُ أن تسمحَ بانتشار أقاويل تُشكك في فاعلية سياساتها العِلاجية، ومن الأسهل دائمًا أن تُبلغ الأهل بأن الطفل قد فارق الحياة في منتصف العملية العلاجية، على أن تخبرهم ببساطة بأنها قتلته.

لا أحد يعرفُ بشأن غرفِ الغاز، إلا إذا كان سرطانًا.

في الإعلان كانت هناك حدائق، ومراجيح، وأطفالٌ مثاليون يرتدون الكاكي ويشتركون في أنشطة الكشافة، حتى أنهم كانوا

يهتفون «تحيا الثورة!» كما لو أن الأمر لم يُحسم قبل زمنٍ طويل. إن هذا هو ما تبدو عليهِ جمهورية الأخ الكبير عندما تشيخ. أنتَ لا تجدُ العساكر في الشوارع، وقد لا يكترث أحدٌ لاعتقالك عند قراءة روايةٍ ممنوعة. لقد حصلَ النظام على كلّ شيء، وهو يعرفُ بأنه انتصر، ولكنّه ما زال مُهددًا وضعيفًا أمام مخيّلة طفل.

أوقف حارسُ المكتبة سيارته في مواقِف السيارات القريبةِ من البناء الهرميّ، ذي الواجهات المسطحة، عديمة النوافذ، بلونِه الكاكي الداكِن. كانت زوجته تجلس في المقعد الجانبي، مبتلّة العينين، ولما رأت البناء أخذت ترتعد. «هذا لا يُشبه الإعلان». قالت، وكانت تأمل أن ترى ابنتها، من واجهةٍ زجاجيةٍ ما، تلاحق الحمام في حديقة كبيرة، مع أطفالٍ آخرين. لم يجد حارسُ المكتبة كلمات يقولها، كان الصّمتُ يتكلّسُ في حلقهِ ويجرح حنجرته. لننزِل. قال لزوجتهِ التي شرعت تنتحبُ، وكأن الطفلة قد ماتت اللحظة.

- هذا المكان مُريع، مُريع! لماذا لم يأخذوها إلى مركز آخر، مثل الذي يظهر في الإعلانات؟

- هذا لأن كل المراكز في الواقع لا تشبهُ نفسها في الإعلانات.

نظرت إليه مذعورة، بعينين مشرّعتين على الرّعب.

- كفَّ عن هذا الكَلام!

قالت، وكأنَّ من شأن الصمتِ عن كلماتٍ بعينِها أن يغيّر الواقع.

- هذه غلطتك! كان علينا أن نذهب بها إلى الطبيب عندما لاحظنا الأمر، من شأن ذلك أن يسهّل الموضوع، وأن يسمحوا لنا برؤيتها على الأقل، ولكنك كنت ترفض! دائمًا ترفض!

دفنت وجهها بين يديها وأخذت في النَّحيب.

- ابنتنا ليست مريضة.

- لنرى الآن إن كانت الحكومة توافقك الرأي، أنت وقصصك وكتبك المشبوهة في الدولاب، هل ظننتَ بأنني لم أكتشف الأمر؟ لقد سمَّمتَ رأس ابنتي.. لن أسامحك أبدًا! أبدًا!

لم يكن قادرًا على سماع المزيد، ترجّل الأبُ عن سيارته وترك لزوجته أن تتبعه، زوجته التي لن تسامحه أبدًا. ولكن، ترى، هل ستشي به؟

سلَّم بطاقة هويته عند الأمن في المدخل، وأراهم ورقة الاستدعاء. أنا هنا بخصوص طفلتي، قال. انتظر قليلًا ريثما يأتيك

ضابط التحقيق. كان يظنُّ نفسه في مستشفى، اكتشف أنه أقرب إلى مركز الشرطة. جلس على أحد المقاعد، جلست زوجته على بعدِ مقعدين منه. كانت تلك طريقتها في أن تقول بأنها «لن تسامحه أبدًا». ورغم أنه أراد أن يمدَّ يدهُ إلى يدها، ويضغط أصابعها بقوة، إلا أنه لم يقدر. وكان عليه أن يشعر بالخوفِ وحيدًا جدًا. ماذا لو كانت زوجتهُ على حق؟ ماذا لو أنه تسبَّب بكل ذلك؟ نظر حوله، هناك أسرٌ أخرى في المكان، تنتظر، وعلى سيماهم الرُّعب ذاته. لا بدَّ وأنهم ضحايا حملةِ التفتيش الأخيرة. أطفال آخرون متورطون بمخيّلة حية. قرودٌ من العالم القديم، بأذيالٍ مضحكة.

دقائق وجاء اثنانِ من الضُّباط، أحدهم اصطحب زوجته إلى غرفة التحقيق رقم (3)، والآخر أخذه إلى غرفة التحقيق رقم (4). هذه، بالفعل، جلسة تحقيق. نظر إلى امرأته وهي تتبع الضابط مطأطئة. أرادَ أن تلتف لمرة أخيرة قبل أن يوصَد الباب، لكي يعرفَ من عينيها إذا ما كانت ستشي به. ولكنها لم تلتفت، الأمر الذي أخافهُ أكثر.

جلسَ على المقعدِ المقابلِ لمكتب ضابط التحقيق. في هذه المدينة، يرتدي الجميع، تقريبًا، الزيّ الكاكي إلا العساكِر. كانوا يرتدون السواد. وكان أسوأ ما في الأمر هو القفازات؛ قفازات سوداء تشبه قبضة الموت. لماذا سوداء؟ لكي لا يضطروا إلى غسلها مليًا في حال تلطخت بشيء من.. ابتلعَ ريقه ونظر إلى وجهِ الرجل؛ إلى شاربه الكثيف وعينيه البنّيتين وتكشيرته المروّعة. لقد كان، في حياةٍ أخرى، يعمل تحت إمرة رجلٍ يشبه هذا، يشبهه

بالضبط، وتساءل في قرارته إن كانت بينهما قرابة.

وعوضًا عن أن ينتظر سؤالًا من الضابط، قرر أن يسأله بنفسه:

- ماذا فعلتم بابنتي؟

8

- نحنُ نطرحُ الأسئلة هنا.

قال ضابطُ التَّحقيق، وهو يفتحُ الملفّ أمامه، ويسجّل فيه اسم الأب، وتاريخ اليوم. كان هناك حقلٌ على يسارٍ ورقة التحقيق، يدونُ الضَّابطُ فيه كلماتٍ غامضة، وأحسَّ الأبُ، لأوّلِ مرّةٍ، بأنه كتاب، وأنَّ الضَّابط رقيبُ كتب.

سألَ ضابط التحقيق:

- متى لاحظتَ أعراضَ تخلّف ابنتك لأول مرة؟

ودون أن يشيح بعينيهِ عن الرّجل، ودون أن يطرف بجفنهِ حتى، قبض على مسنديّ الكرسيّ بشدّة وأجاب:

- لم ألاحظ أية أعراضٍ من هذا النوع.

وتساءل في تلك اللحظة إن كان أنفهُ قد استطالَ قليلًا، مثلما حدث لبينوكيو عندما كذب. لكنه لم يشعر بأي اختلافٍ في وجهه.

- سيكونُ الأمرُ أفضل لك وللطفلة أن تتعاون معنا.

- إنني متعاونٌ جدًا معكم.

- سأعيد السؤال؛ متى لاحظت أعراض تخلّف ابنتك لأول مرة؟

- اشرح لي، أولًا، ما هي أعراض التخلّف التي فاتني أن ألاحظها.

يتأفَّف الضّابط، يُخرج ورقةً من الدُّرج، يلوّحُ بها في وجهه: هذا التقرير الطبي، هل أقرأ؟ هزّ كتفيهِ غير مبالٍ. تفضل. زفرَ الضابط بضيق. إنه، على ما يبدو، غير معتادٍ على التحقيقاتِ التي تتعدَّدُ فيها وجهاتُ النّظر. سمّر عينيه على الورقة وأخذ يقرأ:

«هلوسة، تدنّي منسوب الولاء الوطني، أصدقاء افتراضيون، معرفة غير شرعية بقصص خيالية ممنوعة من التداول، حيازة كتاب محرّم، عدم الالتزام بالزيّ الوطني الموحّد، انفصال عن الواقع. طفلة فاقدة الأهلية للانتظام في التعليم الابتدائي وتحتاج إلى إعادة برمجة دماغية بالكامِل، درجة تطوّر الحالة

تسعة من عشرة».

توقّف الضّابط عن القراءة، ونظر إليه بطرف عينه:

- هل تعرف لماذا يكتفون بمقياس تسعة من عشرة؟

- لماذا؟

كان يحدقُ في القفاز الأسودِ لضابط التحقيق.

- لأن الرقم عشرة يعني أن الطفل ميت.

أحسَّ حارس المكتبة بجسده ينتفض. لا، لم يكن خائفًا. كان غاضِبًا فحسب، إلى حدّ الرَّغبة في تحطيم جُمجمة الضابط، وتفجير مبنى ما، وقتل سبعة رقباء. لكنه قرر أن يتمالك نفسه، وأن يردَّ ببرود.

- هذا التقريرُ لا شيء. إنها مُبالغات، كل الأطفال مصابون بالمخيلة، إنها من مخلفات العالم القديم، وأنا تحديدًا أعرفُ أكثر بهذا الخصوص، لأنني في الأصلِ رقيبُ كتب. إن تلك الأعراض تتلاشى من تلقاء ذاتها مع التَّعليم الابتدائي، وكلنا نعرفُ ذلك، فهذا هو الغرض الأساسي من المدارس، أليس كذلك؟

- ليس لحالةٍ متقدمة مثل طفلتك.

- لكلٍ منا فوائض بيولوجية بلا معنى. الزائدة الدودية، عظمة العصعص، رواسب المخيّلة. هذا لا شيء.

كان يردّد كلماتٍ يحفظها، كان يردّدُ كلمات الحكومة. ومرة أخرى، تساءل إن كان أنفه قد استطال. هذه المرة، كان يعرفُ بأنه يكذب. وضع الضابط الورقة على سطحِ المكتب أمامه، ثم خلع قفازيهِ وطقطقَ أصابعه. سأله:

- ماذا عن الكتاب الذي كان بحوزتها؟

- أنا مفتّش مكتبات، إذا عثرتُ على كتابٍ ممنوع أقوم بمصادرته، يبقى الكتاب في سيارتي ليومٍ أو يومين ريثما أقوم بزيارة الهيئة وتسليمه للسلطات. إنها مجرد طفلة والأرجح أنها وجدت الكتاب ملقى في السيارة وأخذته معها إلى المدرسة. بالمناسبة، ما هو الكتاب؟

- لنرَ..

غمغم الضابط وهو يقرأ العنوان بصعوبة:

- بي- .. نو.. كيو.

ولا يدري لماذا، عندما بلغ التحقيق تلك المرحلة، أحسَّ بأنه دمية خشبية لعينة، محض دمية خشبية، وبدلًا من أن يتحول إلى صبيٍ حقيقي، تحوّل إلى جحشٍ وأفسد كل شيء. إنها النسخة التي أعطتها لهُ الورّاقة، النسخة التي ألحَّ كثيرًا للحصولِ عليها. لقد أخذتها الطفلة معها إلى المدرسة وافتضحَ أمرُها. أحسَّ نفسه وحيدًا، وقد كان العَجوز بعيدًا جدًا، أبعد من أن يستطيع مساعدته، حبيس المعدة العملاقة لزنازين أمنِ الدولة. كان وجه العجوز يطارده؛ النجار صانع الساعات. يبيع الزمن لكي نتأنسن ولكننا لا نفعل. نحن نبقى حميرًا حتى النهاية. أرادَ أن يبكي، حتى ضابط التحقيق لاحظ الأمر وسأله:

- هل كل شيء على ما يرام؟

- لا شيء على ما يرام ما دامت طفلتي مُحتجزة هنا..

- لقد أنصتُّ طوال اليوم إلى تبريراتك، ويجب أن تعرف بأنك، وبسبب تبريرات متساهلة من هذا النوع، قد ساهمت في تفاقمِ حالِها كثيرًا.

- أريد أن أعرف لماذا لا تشبه مراكز إعادة التأهيل في الواقع، تلك التي نراها في الإعلانات.

تململَ الضابط.

- لدينا مئات المراكز في البلاد، يتم توزيع الأطفال حسب الشواغِر.

- بلا نوافذ ولا حديقة..

- إنها الرؤية الجديدة، من أجل إعادة تأهيل الأطفال للتعاطي مع الواقع.

- هكذا إذن؟

- نعم.

- ولماذا لا نرى الواقع في تلك الإعلانات، ما الذي تسمحون لنا برؤيته هناك..

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن إعلاناتكم مصنوعة تمامًا من المخيّلة، مثل أي روايةٍ ممنوعة.

- هل تقرأ الكثير من الروايات، يا سعادة الرقيب؟

- هذا عملي.

- ماذا عن ابنتك..

- ماذا عنها؟

- هل تقرأ لها القصص في الليل؟

تشنجت أطرافه، أحس بالعرق يتفصد من جميع مسامِه.

- أنا لا..

- من أين للطفلة أن تعرف شيئًا عن القصص القديمة؟

- أي قصص قديمة..

- لنرى..

قال الضابط ثانية، ثم أدنى الملف من وجهه وشرع يقرأ.

- بيتربان، الأميرة وحبة الفول، ذات القبعة الحمراء، ساحر

أوز العجيب، السندباد البحري.. من أين للطفلة أن تعرف عن هذه الكتب المحرَّمة؟

ابتسم الرجل، لم يشعر باستطالةٍ مفاجئة في أنفهِ وهو يجيب:

- لستُ أنا من قرأ لها تلك القصص.

- لابدَّ وأنه الأرنب الافتراضي الذي تتحدَّث عنه على الدوام.

وأراد في تلك اللحظة أن يبكي، كان يشتاق إلى ابنته، لولا أنه..

- لا.

- من إذن؟ الذئب في الدولاب؟

- إنها تعرفُ تلك القصص من تلقاء ذاتها، لقد كتبتها في رأسها تقريبًا.

- بأي شيءٍ تهذي؟

- إنها ذاكرة جمعية. لقد عاشت تلك القصص في ذاكرة ملايين الأطفال على مدى مئات السنوات، وسيحتاج

محوها أكثر بكثير من حرق الكتب. عندما تسدُّ منافذ الواقع أمام المخيّلة سوف تتضخم المخيلة وتملأ الواقع، مثل إعلانكم بالضبط.

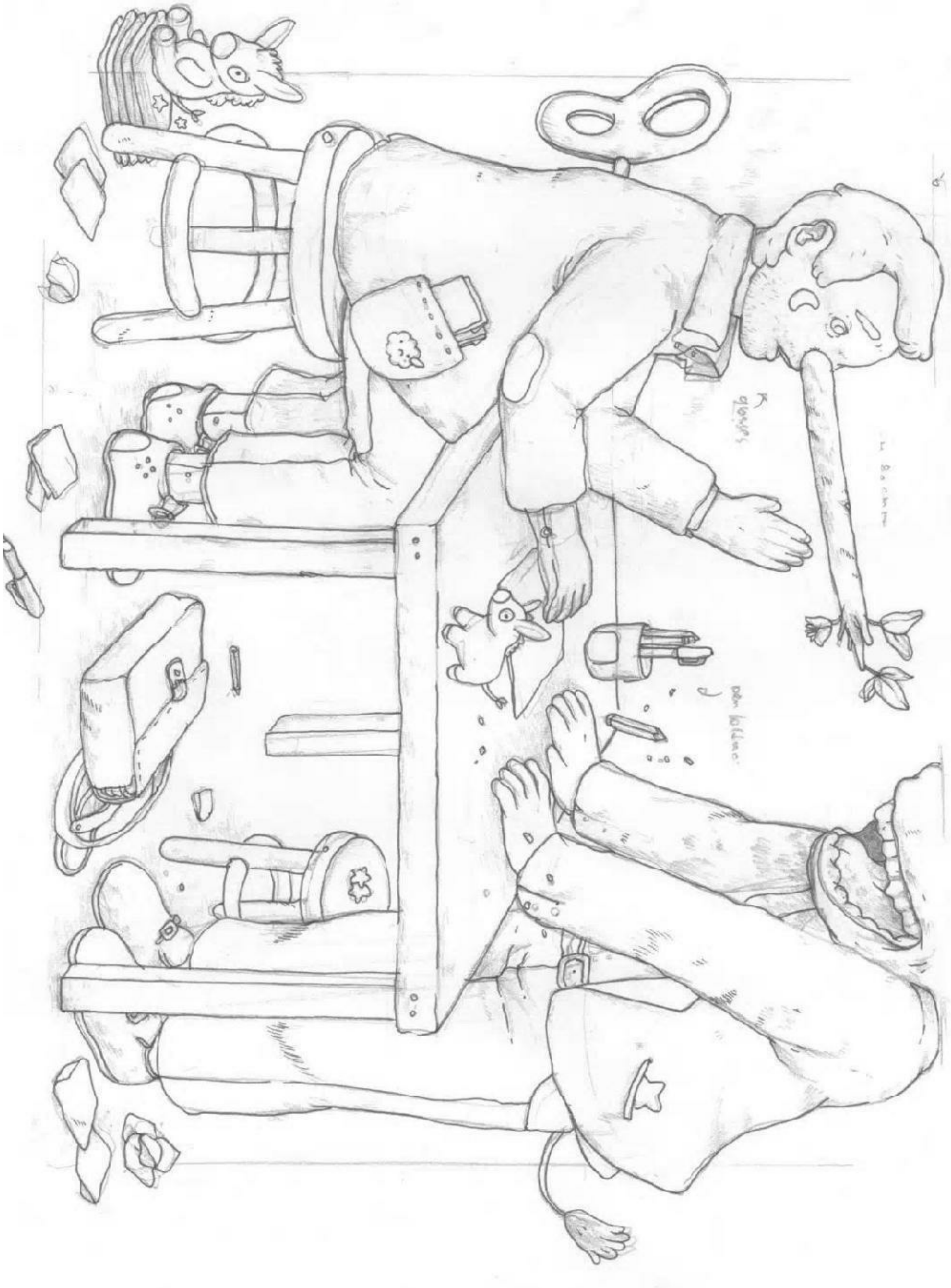

ابتسم الضابط.

- أخشى أنك لا تفهم الأمر بالضبط.

- ليس هناك ما يستدعي الفهم.

- اسمعني جيدًا. أنت متّهم بالإهمال التربوي. لقد تسببتَ في إلحاق الإعاقة الذهنية بطفلة، أو أنك في أحسن الأحوال لم تبلغ عن الحالة مبكرًا. سوف تمثل قريبًا أمام المحكمة الأسرية ليقرر القضاء عقوبة ملائمة، وربما عليك أن تفكّر في تعيين محامٍ، خاصة بعد الهراء الذي قلته عن الذاكرة الجمعية والقصص. سوف أخلي سبيلك الآن، ولكن سيتم استدعاؤك للتحقيق في أية لحظة، منزلك، سيارتك، مقرّ عملك.. كلها في حكم «موقع الجريمة» الآن وسيتم فحصها دوريًا من قبل الخبراء لضمان سلامة البيئة البيتية من السموم الفكرية.

- أريد أن أرى ابنتي.

- إنها لم تعد ابنتك بعد الآن، لقد آلت وصايتها للحكومة، وسيتم تحويلها إلى المختبرات لإجراء المزيد من التحاليل والاختبارات ووضع خطة علاجية لها. مسألة عودتها إلى

وصايتك تعتمد على حكم المحكمة، وأيضًا على استجابتها للعلاج، وهو ما سيتضح خلال الأشهر الستة القادمة..

نظرَ الأب إلى وجهِ ضابط. هذه المرة لم يكن غاضبًا، كان مكسورًا وحسب. «أريد أن أراها، رجاءً، رجاءً!»، كانت هناك دموعٌ في عينيه. وكان يفهم الأمر كما هو عليه. لا أحد، لا أحد يستطيع مجابهة النظام، ولا أحد يخرج من بطن الحوت حيًا. زفر الضَّابط. حتى أنه، للحظةٍ، بدا مُشفقًا عليه.

- املأ نموذج طلب الإذن للّقاء، ضمّنه أسبابًا مقنعة، ستقرِّرُ اللجنة ما بهذا الشأن.

- وماذا لو لم توافق اللجنة؟ ماذا لو لم أرها أبدًا في حياتي؟

زفر الضابط، ضغط بإصبعيه على جفنيه.

- ربما ما زال الوقت مبكّرًا على تقديم هذه النَّصيحة، ولكن الأمر ينتهي دائمًا بنا إلى هذا المكان، حيث ننصحُ الأبوين بالمضيّ في حياتهما وإنجاب أبناء آخرين. وبالنسبة لحالةِ ابنتك.. حسنًا، فكّر في الأمر وحسب.

9

قادَ الأب سيارته آيبًا إلى بيتِه، صامتًا جدًا.

لم يتبادل كلمةً واحدةً مع زوجته. كان الأمر كلّه بلا معنى، ولو كانت قد وشت بِه، لكان على الأرجح خلف القضبان. لكنه طليق، وطفلته حبيسة، وقد لا يتسنى له أن يراها مرة أخرى، ببودرة الأطفال التي ترشها على رأسها، التي هي في الحقيقة غبار جنيّات. لقد أصبح يصدق الآن، أنه غبار جنيات، وأنَّ ثمة ذئب في الدولاب، في بطنه جدة، وهي لذيذةٌ جدًا، لأنها تعرفُ الكثير من القصص. التَّفاصيل الصَّغيرة تجرحه. كانت زوجته تسندُ رأسها على النافذة وتنشج، كما لو أن الطفلة قد ماتت، ولن يكون ذلك أسوأ ما سيحدث. إذ سيكون عليها الآن أن تخضع لبرامج مكثفة من غسلِ الدِّماغ، وإذا خرجت من ذلك المكان حيةً فعلًا، فهي ستكون قد نسيته، ونسيت أمها أيضًا، والأرانب، وغبار الجنيات، والذئب في الدولاب، والجدة في بطنِه. عندما تخرجُ الطفلة، إذا خرجت، لن تكون هي ابنته. وحتى تحين تلك اللحظة، سوف يتسللون إلى أحلامها في الليل، يزرعون الرقاقاتِ في رأسها،

سوف يحاصرونها بالشاشات التي تبثُّ رسائل صوتية وصورًا، سوف يفعلون كل ما يتطلبه الأمر لأجل تحويلها إلى مواطن نموذجي وفق قياسات الحكومة. اللعنة على الحكومة! اللعنة عليها، كانت الدموع تترقرقُ في عينيه وهو يكزُّ بأسنانه ويقبضُ على مقودِ القيادة بقوة، كأنه يريدُ كسره. سوف تبكي الطِّفلة من الوحدة طوال الوقت، لأنهم لن يسمحوا لها بامتلاك ذئبٍ محشو تحتضنه قبل نومِها. كلُّ ما ستراه، في الأيام القادمة، هو المختبرات، وتحاليل الدَّم والبول واللعاب، والأسلاك السود والحمر، والشاشات المضيئة بصور الرئيس، والأطباء، والاختصاصيّون النفسيّون، والعساكر. جنودٌ في خدمة الوطن. اللعنة على الوطن! اللعنة عليهِ.. سوف تنادي الطفلة والديها طويلًا، سوف تصرخُ وتركل كلما عرضت الشاشات أمامها صورة للرئيس، قد يستمر الأمر لأسابيع، حتى تبدأ في استيعابِ الأمر، في أنَّ أحدًا لا يستطيع إنقاذها، وفي تلك اللحظة، ربما، سوف تنسى من كانت، وتبدأ في التحوّل إلى ما يريدون.

سالت دمعة على خدّهِ، دعك وجهه بكتفهِ ونشق. لا يريد أن يبكي أمام زوجته، ولكنه مكسور، مكسور.. وهو لا يريد طفلةً أخرى. لا يريد طفلة من النوع الذي توافق عليهِ الحكومة، لا يريد أطفالًا من النوع الرائج هذه الأيام؛ بلا مخيّلة، بلا قصص، بلا أصدقاء افتراضيين.

غمرهُ شوقٌ تصدّع له قلبه. لقد كان أبًا لأجمل طفلةٍ في العالم؛ طفلةٍ مصنوعةٍ من استعارات، مثل شخصيةٍ هاربةٍ مِن

كتابٍ مصوّر، والآن يريدون إفسادها. وتلك الأشياء التي قالها في التحقيق، لن يصدقها أحد، رغم أنها حقيقية. إن أحدًا لن يصدق الحقيقة هذه الأيام، و 2+2 لا تساوي أربعة، ولن تساوي أربعة، إلا إذا أرادت الحكومة ذلك، ولكنه، على الأقل، يعرفُ حقيقة ما قاله، فهو لم يقرأ لها تلك القصص، لقد كانت تعرفها وحسب، لقد كتبتها تقريبًا، كانت الطفلة هي الراوية، والمروي له، وكانت القصصُ تتدفق منها ببساطة. لم تكن مضطرة لاختراع شيء، لقد كانت تتذكر الماضي الذي لم تعِشه، وهو.. قال ما قاله ليس بصوتِ العجوز، ولا زوربا، ولا أَلِس، ولا حتى بينوكيو. لقد قال كل شيء بصوتِه الخاص، وذابوا جميعًا في كلماته.

ماذا سنفعل؟ تكلمت زوجته أخيرًا بصوتٍ مشروخ ملطخ بالنحيب، ولكنه ظلّ صامتًا. وليس الأمر لأنه لا يملك جوابًا مطمئنًا، بل لأنه لا يريد إخافتها أكثر. لقد اعتزم أمرًا؛ سوف يحصلُ على المساعدة، سوف يذهب إلى الخليّة ويطلبُ المساعدة من المقاومة. يعرفُ الآن بأن النظام مخترق، هو نفسه اخترق النظام عشرات المرات ونشل الكتب ولم يشك بأمره أحد. في وسعهم فعل ذلك مع طفلة.. لا بدَّ وأن يتمكن أحد من مساعدته. ولكن لحين تحقّق الأمر يجب عليه أن يتخلص من الممنوعات التي في حيازته، وأن ينظف مسرح الجريمة.

أوقف السَّيارة أمام البيت وترجّل مسرعًا. دلفَ إلى غرفته، فتح الدُّولاب على مصراعيه وأخذ ينقل الكتب المدفونة خلف القمصان المعلقة إلى العلب والأكياس. سوف ينظف مسرح

الجريمة تمامًا، وليفتشوا بيته كما شاؤوا. وفيما هو يغادرُ المكان، أخذ مفتاح سيارة زوجته، وخرج من الباب الخلفيّ متلفتًا. سمع زوجته تصرخ؛ أين تذهب! لكنه لا يملك دقيقة واحدة لمواساتِها. لقد ابتدأت المعركة فعلًا.. المعركة التي لا ينتصرُ فيها أحد.

كلنا دمى خشبية في جمهورية الأخ الكبير.

تمتمَ لنفسه، ثم شغل محرك السيارة وانطلق سريعًا.

الفصل الخامس

أكثر من 451 فهرنـهايت

1

ساعديني!

قال حارسُ المكتبةِ للورّاقة، وهو يدفعُ الباب بقدمهِ، حاملًا علبتينِ ثقيلتينِ من الكتبِ الممنوعة التي أتى بها من دولابِه. كان العَرَقُ يرشحُ من جبينهِ، وبقع الماء تتسعُ أسفل إبطيه، وقد تحجرت عيناه واحمرّتا من فرط البكاء.

لحظة وصوله إلى متجر الكتب، كانت المرأة، كشأنها، عاكفة على ورقةٍ ما، تكتب شيئًا، ثمَّ رفعت عينيها ناحيتهُ وتغيّر وجهها. هرعت تعاونهُ على حملِ الكتب. ألقت نظرة على الشّارع لتتحقق من أن أحدًا لم يتبعه. ماذا جرى لك؟ لم يجِبها الرَّجل، كأنه ما زال عاجزًا عن الكلام. وضع العُلب على الأرض أمام المدخل ثم عاد إلى سيارته لجلبِ المزيد منها. علبة أخرى، وكيسان ورقيان، فيما راحت المرأة تُجرجرُ العُلب الثقيلة لإخفائها خلفَ طاولة المحاسبة، تمهيدًا لنقلها إلى القبو. عندما عاد الرَّجل بآخر ما لديهِ من كتبٍ، قلبت الورّاقة اللافتة على المدخل؛ المحلّ مغلق، ثم

أقفلت الباب مرّتين. كان رنين الأجراسِ غريبًا في أذنيه، كأنه صوتٌ من عالمٍ آخر، حياة ثانية انتهت قبل ألف عام.

- هل أنتَ تحت المراقبة؟

والحقيقة أن الأمر لم يخطُر بباله. رغم أن ضابط التَّحقيق أخبره أن بيته، وسيارته، وكل شيءٍ يلمسه سوف يتحوّل إلى مسرح جريمة، ويتم تفتيشه سنتيمترًا بعد آخر. أحسَّ بأنه ملعون، مثل الملك في حكاية قديمة قصّتها عليه العجوز، الملك الذي كلما لمس شيئًا تحوّل إلى ذهب، حتى ابنته. هل كان لديهم متسع من الوقت لملاحقته؟ لم ينتبه لوجود أحد. ربما أراد أن يصدق بأنه ما زال يملك ساعة أخرى قبل أن يدخلَ الحلقة الثانية في الجحيم.

جلسَ على علبِ الكتب التي جلبها. ارتجفت شفتاه واختلج صوته:

- لقد أخذوا طفلتي..

قال، ثم أحسَّ بشفتيهِ تنقلبانِ إلى أسفل وعينيه تغرورقان. أشاحت المرأة بوجهها. الوراقة الحديدية لا تحتملُ رؤية الدموع. تماسَك. قالت. ساعديني! قال. حتى الوراقة لم تكن تنظرُ في عينيه. كأنَّ النَّظر إلى التعاسة مُعدٍ. استدارت ناحية طاولة المحاسبة وعادت مع كأسٍ من الماء. عبَّ الماء بسرعة ثم ناولها الكأس فارغةً. «لننزِل». قالت المرأة. سبقته إلى القبو.

لا يستطيع المرء أن يتحدث عن الحكوماتِ واقفًا على سطحِ العالم. ابتلعهما جُحر الأرنب؛ الدَّرَج اللَّولبي الذي يَنتهي في مكانٍ ما، في العالم السُفلي. سار وراء المرأة، متسائلا إن كانت هذه المخلوقة الحديدية قادرة على منحهِ القوة. تربّع الاثنان على الأرض بين الكتب. هدأ حارسُ المكتبةِ قليلًا، وقصَّ على الورّاقة كل ما حدث؛ المدرسة، حملةُ التَّفتيش، الكتاب الممنوع، مَركز إعادة التأهيل. جلسةُ التحقيق. موعدُ المحكمة. تفتيشٌ دوريٌ للمسكن.. «خبئي كتبي عندكِ». قال، ثم نشق بأنفه ومسح وجهه بكمّه. أريد أن أرى ابنتي. أردفَ مُحدِّقًا في عينيها، متوسّلًا. تنهّدت الوراقة، ثم تكلّمت أخيرًا:

- ما الذي جعلك تفكّر بأننا قادرون على فعل شيء؟

- النظام مُخترق، نحن نخترقهُ طوال الوقت، هذه هي فكرة الخلايا السرطانية أصلًا..

- ولكننا لسنا بذاتِ الانتشار.

- لأننا نخصِّصُ جهودنا لنشلِ الكتب، الأولى بنا أن نعمل على إنقاذ الأطفال..

ما زالت الورّاقة تنكّسُ رأسها. لا تريد رؤية ألمه. كأنَّها لا تقدرُ على ذلك. «سامحني». تمتمت، ولم يفهم الرجل عن أي شيءٍ

تراها تعتذر؟ ثم تساءل في قرارته؛ ما الفرق، إذن، بين المعارضة والحكومة؟

- لو كنّا قادرين على إنقاذِ الناس، لكنّا أخرجنا العجوز من السِّجن.

- وماذا عن ابنتي؟

- أنا آسفة جدًا.

- كفّي عن الاعتذار!

طأطأت رأسها أكثر، صامتة. كانت تسمحُ له، بطيب نفسٍ، أن يصرخ في وجهها:

- ولأجل أيّ شيءٍ ننقذُ كل تلك الكتب؟ من الذي سيقرؤها إذا كنا نتخلى عن الأطفال في ذلك الجحيم؟

- نعم، أعرِف..

- ما الذي تعرفينه؟ أنتِ لا تعرفين شيئًا! هل تعرفين شيئًا عن غرف الغاز؟ هل قصَّ عليك العجوز قِصصه الصغيرة؟ هل أحسَن تدريبك؟

نهضت المرأة من مكانِها وأخذت تمسحُ بأصابعها على أضلاع الأغلفة المرصوصَة على الأرفف أمامها؛ مثل عجوزٍ وحيدة تربّت على دزينة من القطط.

- أنا آسفة.

- كفّي عن الاعتذار، قولي شيئًا!

زفرت المرأة. اغرورقت عيناها بالدموع، وهذه المرة نظرت إليه، مُضطرة:

- على مدى عقود كان الأطفال في عائلتي يُختطفون من قبل الحكومة، ويُودعون في تلك المراكز، ثم لا شيء. لم يعلم أحدٌ بمصيرهم أبدًا. لقد حدث الأمر مرارًا حتى أننا اعتدناه؛ أشقائي، أبناء عمومتي، وأبناء أصدقائي أيضًا. إنني ألومهم جميعًا على إنجابِ الأطفال إلى هذا العالم، ما دمنا عاجزين عن حمايتهم إلى هذه الدرجة. إننا نغامرُ كلّ يوم من أجل اختراق أنظمة الهيئة لأجل إنقاذ الكتب والأبحاث والمصنفات الأخرى، لأجل إنقاذ الذاكرة، إنقاذ فكرة ما.. حول ما كنّا عليهِ من قبل، ولكننا لم نكن أبدًا بالبراعة الكافية لإنقاذ طفل، لإنقاذ المستقبل، ولأجل هذا، ولأشياء أخرى كثيرة.. أنا آسفة جدًا.

ارتجفَ صوت الورّاقةِ في نهايةِ كلامها، وقد أغضبته دموعُها، ولو أنها طردتهُ من متجرها مثل شحاذٍ لكان الأمر أهون عليه. إنَّ كل شيءٍ قالته، تقريبًا، يُضمرُ حقيقة واحدة، هي أن الصَّغيرة قد ضاعت منه إلى الأبد.

- أنتم أسوأ من الحكومة.

همهمَ بقولِه، ثم انتصبَ واقفًا، ودون أن ينظر خلفه، صعد السلّم مرة أخرى، عائدًا إلى سطح العالم.

2

لم يعد الرَّجل يعرفُ كم يومًا مرَّ على احتجاز ابنته واستدعائه للتَّحقيق، ليسَ لأن وقتًا طويلًا قد مرَّ بالضَّرورة، بل لأنه صار شخصًا آخر.

اختفى صانعُ الساعاتِ من أحلامه، وهو ما عاد يريد أن يشتري زمنًا، بل أن يكفَّ الزَّمن عن كونه جحيمًا. خاصة وأن زوجتهُ توشك أن تفقد عقلها. إنها تغسل الصحون طوال الوقت، تفرك أصابعها، وتتجوّل في البيتِ كالمجنونة، تبحثُ عن أغراض الطِّفلة التي قامت بنفسها بحرقها؛ ملابسُ الأميرات، الأحذيةُ الحمر، الذِّئبُ المحشو، وحتى عُلبة بودرة الأطفال. كل شيءٍ، كان يتحوّل، بقوّةِ الاستعارات، إلى سلاحِ جريمة.

«يجب أن ننجحَ في اختبار التَّفتيش الأول». قالت زوجته، وهي تحاولُ تعقيم سطحِ العالم من شوائبِ المجاز، وإمكانات التأويل. التأويل من اختصاص السلطة، وفي حال تعدُّدِ إمكانيات المعنى، سيأخذونَ بالتأويل الأقرب إلى تحقيق المصلحة العامة. لن

يُضطرَّ عسس الحكومة إلى بذل جهدٍ خارق لدمغِه بالخيانة. لأنهم يمتلكون كل شيءٍ في النهاية؛ المعنى، الحقيقة، وطفلته.

في تلك اللَّحظة، وجدَ نفسه يتذكّر الكلمات الأولى التي سمعها في أيام تدريبه؛ **إيّاك والتورّط في المعنى!** إنه لم يعد يجد أيّ معنى في الحديث عن المعنى، لقد تم تفريغه من الكلماتِ تمامًا، وكل ما يريده هو أن يرى ابنته.

من المُفترض أن يأتوا في أيّةِ لحظةٍ للتفتيش؛ يفحصونَ البيت، السَّيارة، غرفة الطفلة، ودولاب ملابسه الخالي من الكتب، ولكنه فكّر؛ ماذا لو لم يأتوا؟ ماذا لو لم يكونوا مُضطرّين للمجيء، لأنهم، أصلًا، يعرفون كلَّ شيء؟ مثل الرّب في السماء، لا يحتاج أن ينزل من عليائه ليتحقق من حُسن تصرّفِ مخلوقاته. حكومةٌ كلية القدرة، كلية المعرفة، وهو مجرد خنفساء مقلوبة على ظهرها، في انتظار أن يدهسها حِذاء الرحمة.

جلس متخشبًا على الأريكة في غرفةِ الجلوس، كانت الشّاشة أمامه تعرضُ وثائقيًا عن الثورة. ذلك الصِّنف من الوثائقيات الذي يجعله ينامُ في دقيقة. كان يحدِّقُ فيه شاخِصًا، كما لو أن حياته تعتمد عليه. إذا كانت الحكومة في السَّماء تراقبهُ الآن، فها هو يبرهنُ على توبته وجدارته. ثمَّ سمع صوت جرسِ الباب يدق. أحسَّ بقلبهِ يهوي. هل جاؤوا؟ أطلت الزوجة من وراء السّتارة. لا، إنه المحامي. قالت. جاء صوتها مَشروخًا. كانت ترتجفُ هي الأخرى، وقد تحجّرت عيناها وجحظتا. سوّت هيأتها؛ التنورة

الكاكية، والقميص البيج. ثم ذهبت لتفتح الباب. اكتفى الأب بالبقاء في مكانه، مثل أبي هولٍ حزين، مفرّغٍ من المعنى.

مسح بعينيهِ المكان. يجب أن يبدو بيته مثل بيت أيّ مواطنٍ آخر؛ مواطن يتقشف في الكهرباء، لا يملك غسّالة صحون، يتفرج على برامج الثورة، وقد ثبّت جسده، بألف مسمارٍ، على سطح العالم.

دخل المحامي. كان يعلّق روب المحاماةِ الأسود على ساعده، حاملًا حقيبة جلدية محشوة بالأوراق. صافحه سريعًا، ثم جلس على المقعد المقابِل. مرّر عينيه في المكان يتفحّصه. لم يعلّق على شيء. لقد نظفت زوجته سطح العالم. وقبل أن يفتح المحامي فمه، بادره الأب بالسؤال الذي يلحُّ عليه طوال الوقت:

- كم طفلًا نجحتَ في إخراجهِ من المركز طوال سنوات عملك؟

زفرَ المحامي، حكَّ أرنبة أنفه، ولكنه على أية حالٍ لم يكذب: ليس كثيرًا. كم؟ ثلاثة. ومع ذلك، قيل له بأنه أفضل محامٍ في البلاد. لأن إخراج طفلٍ واحد من براثن تلك المراكز هو في ذاته معجزة.

- ما هي فرصة ابنتي للخروج؟

- الأمور ليست جيدة.

قال المحامي، وهذه المرة أيضًا لم يكن مضطرًا للكذب. أخرج من حقيبته الجلدية ملفًا. وضعه على حِجره وفتح دفتيه:

- النيابة العامة تتعاون مع الاستخبارات وهيئة الرقابة لعمل تحرياتٍ بشأنك. لم يعُد الأمر يتوقَّف على اتهامك بالإهمال التربوي، بل يَرون أنّك تُعاني من تدنٍّ واضحٍ في منسوبِ الوطنية، وميولٍ سَرطانية من الدرجة الثانيةِ. إن لديهم تسجيلات كثيرة من كاميرات المراقبة للقاعاتٍ مطولة مع أحد الخونة الذين اخترقوا إدارة الرقابة في الماضي. رجلٌ عجوز مُعتقل، ولديهم أدلّة على أنك أخذت الطِّفلة للقائهِ مرّة، كما أن أحد عناصر الأمن شاهدك تخرج من الهيئة حاملًا علبًا من الكتب. كتبٌ كثيرة فُقدت من المخازن منذ تعيينك.

لقد كان على حق؛ الحكومة في السماء تعرفُ بأمره. اصفرَّ وجهه وأحسَّ بتقلّباتٍ مروعة في معدته.

- أنا أعمل في مجال منع الكتب، هل يفترض بي ألا أقترب من المواد التي كُلّفتُ بفحصها؟

- ولماذا كنتَ تقرأها في المخازن؟

- إنهم يثرثرون كثيرًا، فحص الكتب يحتاج إلى الهدوء.

- ولكنك كنت تقرأ كتبًا خارج التكليف..

احمرَّ وجهُ الرَّجل وأحسَّ بحرارةٍ تنتشر في وجنتيه، رشحَ العَرق من جبينه. إذا كانت الحُكومة تعلم بشأن قراءاته المحرمة، فهل يعني هذا أنه سيُسجن؟ ومن عساهُ سينقذ ابنته؟ امتدت يدُ زوجته وقبضت على كفّه، شبك أصابعه بأصابعها. كان يعرفُ بأنها تلومه، ولعلها تكرهه، ولكنها مع ذلك تشبك أصابعها بأصابعه. احمرّت عيناه واصفرَّ وجهه، يكاد لا يصدّق أنَّهُ قد سقط في المعنى إلى هذه الدرجة. نكّس رأسه..

تابع المحامي:

- وماذا عن السكرتير الخائن؟

- لقد فوجئتُ بما فعل، مثلي مثل الجميع، كنتُ أظنّه تاب عن القراءة.

- وكنت من السَّذاجة بما يكفي لتترك ابنتك في رعايته؟

تشنّجت يد زوجته. سحبت يدها بعيدًا وأحسَّ بجسدها يتصلّب. طأطأ:

- كان عليّ أن أُنجز تقريرًا في ذلك اليوم، وحده العجوز كان متفرغًا لرعايةِ طفلة.

- ومزاعمك بأنك تركت الطفلة في قسم كتب الأطفال؟

- لم يكن ذلك ممكنًا.

- لماذا؟

تردَّدَ الأب في الإجابة. ذكّرهُ المحامي:

- أحتاج أن أعرف جميع الحقائق.

- بسبب صورة الرئيس، إنها تخافُ من الصورة. كتبُ الأطفال هذه الأيام..

هزَّ المحامي رأسه. لم يكن الأب مضطرًا للشرحِ أكثر.

- أليس من الغريب أنَّ الكتاب الذي اعتُقِل العجوز بسببه، هو الكتاب نفسه الذي وجدوه بحيازة الطِّفلة؟

- إنها صُدفة لعينة.

أحسَّ بأنفه يستطيل، يمتدّ، يتفرّع في أغصان، يورقُ، ينبتُ أعشاشًا، تحطُّ عليه غربان. هذا شيءٌ لم يحسب حسابه.

- ليس هذا فقط. سجلاتك في الهيئة تفيد بأنك لم تمنع إلا كتابًا واحدًا فقط. كتاب اسمه..

- زوربا.

- هذا صحيح.

- لأنهم كلفوني بمراقبة كتبٍ لعينةٍ صالحةٍ للتَّداولِ طوال الوقت!

- وبعد عملك في التفتيش، هل قدمت بلاغًا عن كتبٍ ممنوعة في أيٍ من متاجر الكتب التي قمتَ بزيارتها؟

نكّس الرَّجل رأسه. إنه مهزومٌ من كل صوب. زمَّ المحامي فمه:

- الأمور ليست جيدة.

تدخلت زوجته لإنقاذه:

- ربما يُفترض بالدفاع أن يركِّز على حقيقة أن حالةِ الطّفلة لا تستدعي الاحتجاز، بدلا من التركيز على ملاءمة الأُسرة تربويًا.

- إنها قضية بوجهين. وبصراحة، بوجود التقرير الطبي الذي قدّر تقدم حالتها بنسبة تسعة من عشرة، الأمر لا يبشّرُ بخير.

ترقرقت الدموع في عينيها ثانيًا. خرج صوتها واهنًا؛ مثل كومةِ حروفٍ مفككة، لا غراء يشدّها إلى بعضها، لا معنى لأي شيء.

- ماذا سنفعل؟

وأجهشت بالبكاء، ولما حاول أن يمسَّ كتفها دفعته بعيدًا. إياكَ أن تلمسني! قالت. إنها تكرهه الآن، تكرهه وتشفق عليه. تدخّل المحامي:

- ما يُمكننا فعله، في هذه المرحلة، هو إجراءُ بعضِ التّحسينات على ملفّك الشخصي. فحتى لو تغاضت المحكمة عن الإهمال التربوي، فهي لن تتسامح مع انخفاضِ منسوب الوطنية.

ثم أعاد الأوراق إلى حقيبتهِ الجِلديَّة، يتأهَّبُ للمغادرة.

- ما الذي يفترض بي أن أفعله؟

- برهِن على ولائك.

- وكيف أفعل ذلك؟

قطّب المحامي، رفع كتفيه مادًا كفّيه باتجاه الرجل وزوجته، يكاد لا يصدّق أنه مضطر إلى شرحِ أمرٍ بديهيٍّ كهذا. افعل ما يفعله الجميع! قال، ثم نهض من مكانِه وتوجَّه إلى المخرج، سار الأبوان وراءه مثل طِفلين تائهين. فتح مِصراعَ الباب ونظرَ إلى الرَّجل زامًا فمه، أردف:

- تُعقد الجلسة الأولى خلال أسبوعين، أُفضّل ألا تمثُل أمام المحكمة وأن تدعني أتولى الردّ على أسئلةِ النِّيابة، بالنَّظر لما جرى في جلسةِ التَّحقيق، وكل الهُراء الذي قلتَه عن القصصِ والذَّاكرة.. حسنًا، إن لديك ميولًا انتحاريةً واضحة.

3

- أريدُ أن أبلغ عن مكتبةٍ تبيع كتبًا ممنوعة.

قال المفتّش لرئيس القسم، آملًا أن يحصل على مكافأةٍ من نوعٍ ما؛ طبطبة على الكتف، ابتسامة مكشّرة، تهنئة أو ترقية، لكنَّ رئيس القسمِ بوغتَ بالخبر تمامًا، حتى أنه سأله هامسًا؛ متأكد؟ زمَّ مفتّش الكتب فمه. متأكد. كانت تلك اللحظة التي ساوره فيها الشكّ، لأوّل مرة، بأن رئيس القسم كان منذ البداية عنصرًا في الخلية. وبدا له، لوهلة، أنَّ قطعةً مكسورة من الأحجية قد عادت إلى مكانها. رئيس القسم الذي تدخَّل لإنقاذ السكرتير من السجن، الذي غضَّ بصره عن الكتب التي تتكاثر في مكتبته، الذي تولى نقله إلى قسم التفتيش ليلتقي بالورّاقة، الوراقة التي أخبرته بألا يقلق بشأنِه. هل كان هو الشخص الذي تكفّل بمسحِ وجهه من تسجيلات كاميرات الرَّصد في الهيئة؟ كل ما لديهم ضده هو أقوال الشهود، لكن لا تسجيلات على الإطلاق، ولا تسجيل واحد. إذا كان الأمرُ كذلك، فهو يعرفُ بأنّهُ يريد استعادة ابنته، ولن يتردّد في تسليمِ أيٍ منهم إلى السلطات. أحتاجُ إلى شاحنة نقل. قال، كان يرمقُ رئيس

القسم مرتابًا وهو يرفع سماعة الهاتف ليتّصل بالشرطة. لم يكن أمامه خيار آخر، ولا هو.

خلال دقائق، كانت هناك شاحنة نقلٍ في انتظاره، ودورية شرطة، وضابطين يرتديان السواد. قاد سيارته يقودهم إلى متجر الكتب. أحسَّ بقلبه يخفقُ على نحوٍ مروّع، كما لو أنه يضربُ جُدرانَ صدرهِ مُحتجًا. وأدهشه أنه تخيّل أُذُنَي حمارٍ تنبتانِ على جانبي وجهه. كان يعرفُ بأنه قد انمسخ إلى جحش، أو حشرة عملاقة، لكنه لم يمتلك ترف التأمّل في القرار الذي اتّخذه. إذ قرَّر أن يطفئ مشاعرهُ تمامًا، وأن يقوم بما يتطلّبه الأمر. سوف يبرهنُ على ولائه، وسيفعل ذلك بطيبِ نفس، لقد اختارَ جانب الحكومة، وصار يعرفُ من هو، وإذا ما سألتهُ يرقة تدخّنُ النارجيلة؛ من أنت؟ فهو يعرفُ بماذا يرد؛ إنه رقيب كتب ومفتّش مكتبات، مواطنٌ صالح في جمهورية الأخ الكبير، والأهم أنه أب. كان يطمئن نفسه بأن الاستعارات لن تنبت في رأسهِ بعد أن ينجز مهمته، فهذه الأشياء تحدثُ للقرّاء، وهو لن يقرأ بعد اليوم، لن يكون مُجرم فِكر. وإذا ما نبتت في رأسه استعارة أخرى، فلسوف يقتلعها مثل عشبةٍ ضارة. وفكّر بأن هذه أيضًا استعارة، وأنه ينزلقُ ثانية في مهاوي التفكير الازدواجي. ولكنه، على نحوٍ ما، آمن بأن أعراض المعنى سوف تختفي من تلقاء نفسها، أنه سيُشفى. سوف تلفظه اللغة إلى سطحها الصقيل، اللامع، المعقّم من الجراثيم والمجازات. وإذا ما عاد إلى مكانه الشاغر، مثل ناطور، مثل حارسٍ لسطح العالم، ستكفُّ الأرانب عن الظهور، وسيعود العالم

بسيطًا ونظيفًا كما كان؛ العالم الجديد، حيث الشيء هو هو.

كانت الخُطّة بسيطةً وواضِحة؛ أن يُحسِّن ملفَّهُ في إدارة الاستخبارات. إذا عرفت المحكمة بأنه المفتش الذي يعود له الفضل باعتقال بائعة كتب ممنوعة، ورّاقة لعينة، سرطانة حقيقية، ناهيك عن آلاف العناوين المحرَّمة، المخفية في الأقبية المظلمة، فسوف يتحوّل من فورهِ، من شخصٍ مشكوك في ولائه، إلى مواطن فوق الشبهات. سوف تكتبُ عنه الجرائد؛ مفتّش كتبٍ يضبط شحنة ضخمة من الكتب الفاسدة في قبو إحدى المكتبات!

أوقف سيارته بجانب الجدار الملطخ بالألوان، أمام لوحةِ الأرنب الأبيض ذي السترة وساعة الجيب. «انظر إليّ جيدًا أيها العجوز». غمغمَ وهو يصرُّ بأسنانه؛ «انظر ما أنا فاعِل». التقط ملفّ المخالفات الأخضر، وسار متباهيًا بزيه الأزرق في مقدمتهم جميعًا؛ اثنين من رجال الشرطة وأربعة من عمّال النقل. من هُنا، اتبعوني، بهدوء رجاءً، لا نريد حوادث ولا محاولات هرَب. أحسَّ بصدره ينتفخُ بإحساس البطولة، كانوا يذعنون لكلماتِه، ويتبعون أوامِره. أشار بيدِهِ إلى رسم السَّرطان الذي يرفع كلابتيهِ على الجدار. «إنها خلية مقاومة». قال، وكأن الأمر ليس واضحًا كفاية. «الأمن متراخٍ جدًا عندما يتعلق الأمر بالضواحي، وهذا ما يحدث للأنظمة عندما تشيخ. انتبهوا رجاءً، يجب تفتيش المنطقة بالكامل، ولكن صلاحياتي تبدأ وتنتهي في متجر الكتب ذاك». قال، ثم سار بخطواتٍ واسعة، وقلبٍ مجنون، إلى المدخل، ولأول مرة شعر بأن العبارة المكتوبة على العتبة تخصّه فعلًا؛ لا تدخُل!

رأى أصص نبتات الخسّ، وسبع أرانب بيض تفرُّ من طريقه، كأنها تخشاه. الأرانب التي كانت تلاحقه، تتبعه، تناديه.. إنها تهرب، تختفي في المجازات الهزيلة للزقاق. دفع الباب، سمع رنين الأجراس الصغيرة، وسمعَ صوت الوراقة، تقول: أهلًا بك يا حضرة المفتّش، لقد كنتُ في انتظارك.

كانت تبتسم على نحوٍ غامض. وضعت القلمَ من يدِها، فعرف أنها كانت تكتب. ثم تركت مكانها خلف طاولة المحاسبة، واقتربت منه، ومدّت إليه يديها ليضع عليهما الأصفاد. أشاح بعينيهِ. كانت تعرفُ بأنه آتٍ، ولكنها مع ذلك لم تهرب. هل أخبرها رئيس القسم بقدومه؟ أشار للشرطي بإيماءةٍ من رأسه كي ينجز المهمّة. ها قد فعلها، وكل ما يريده الآن هو أن يتمَّ الأمرُ بسرعة، لأنه يشعر بثقل أذني الحمار على جانبي وجهه، ويحسُّ باستطالة أنفه مثل غصنٍ مورق مليء بالأعشاش المزدحمة بأفراخ الحساسين، وما زال قلبه يضرب أضلاعه محتجًا.

كانت الوراقة تبتسمُ، وقد تنشق عطرَها في لحظاتِ وقوفها بجانبه وهي تمدّ يديها إلى الشرطة. لماذا لم تكن غاضبة عليه؟ لماذا لم تصرخ به أمامهم: يا خائن! لماذا لم تبلغ الشرطة بأنه سرطانٌ منشق. سرطان صغير تافه، ولكنه سرطان على أية حال. لماذا لم تفضحه؟

كانت ترمقه بحنوٍ، بعينين لامعتين، كأنها تبكيه؛ كأنه كان مفهومًا. بل أكثر؛ كان محتومًا، كان أمرًا قدريًا، عرفت على نحوٍ

ما، بأنه واقعٌ لا محالة. وفكّر لحظتها بأنها تعني ما تقول، لقد كانت دائمًا في انتظاره.

تحاشى المفتّش أن ينظر إليها، رغم أنه شعر بألمٍ مروّع في صدره، ثمة يد تعتصرُ قلبه وتخنقه. تخيّل إذن ما ستشعر به إذا فقدتَ طفلتك! قال لنفسه. وجد نفسه يفاضِل بين ألمٍ وآخر؛ خذوا الورّاقة وأعيدوا لي ابنتي.

اقتادها الشرطي إلى السَّيارة خارجًا، فيما قاد هو بقيّةُ الرِّجال إلى البوابة الأرضية المفضية إلى قبو الممنوعات؛ «الكتب الممنوعة موجودة تحت». تحت سطح العالم، فكّر دون أن يضيف. أشار لعمّال النقل. «انقلوها كلها إلى الشاحنة، وخذوها إلى المستودع». إلى معتقل الكتب، إلى المتاهة، إلى الجحيم.. كل تلك الكتب التي أفسدت حياته. فليأخذوا الروايات جميعها ويعيدوا إليه ابنته. كان يهتزُّ من الغضب، ولا زال واقفًا بين العمّال، منتفخ الصدر، مثل بطلٍ قومي.

نزل إلى القبو. أشار إلى أرفف الكتب. سمع صوتَ ضلعٍ ما، يُكسرُ في داخله، عندما أمسكت يدُ أحد العمال بنسخته من زوربا، وألقت به في كيسٍ بلاستيكي أسود. خيّل إليه بأنه يسمع صراخًا جماعيًا ينبعث من الكتب؛ رجال ونساء وأطفال. أخذوا ألِس أيضًا، وبينوكيو، ولم ينتبه أحد إلى ذلك الكتاب الذي هو سيّد الممنوعات جميعها، لأن الغلافَ قد انتزع منه أصلًا، ولكنه يعرفُ جيدًا صورة من كانت على ذلك الغلاف. إنها الصورة نفسها التي تجعل

ابنته تصرخ.

تسمّر واقفًا في مكانِه. مُصمتًا وعالقًا. ها قد أتمَّ الأمر، لماذا إذن، ما زالت الاستعارات تنبثُ في رأسه؟ ولماذا يؤلمه أنه قام بما عليهِ فعله؟ عندما لاحظ أحد العمّال الدُّموعَ في عينيه، قال بأنها حساسية من الغبار. وعندما نظفوا المكان تمامًا، بعد ساعاتٍ مضنية من العمل والعرق، شعرَ الرجل بأنه فارغ، وميّت، وبلا معنى، مثل أي مواطنٍ صالح.

صعدَ مرة أخرى إلى السَّطح. وجد العمّال يصادِرون أوراق المخطوط الذي كانت تكتبه الوراقة. كانت الأوراق مرتبة، مرصوصة فوق بعضها البعض، ومثبتة بكُلابتين من أعلى. كان مخطوطًا مُنجزًا، جاهزًا للنشر، وقد ألصقت على سطحِهِ ورقة تقول: «إلى حضرة المفتّش». لفت العمال انتباهه إلى الورقة، ولكنه هشَّ عليهم غاضبًا، إنه لن يقرأ حرفًا واحدًا مما تكتبه تلك اللعينة، ولن يقرأ شيئًا آخر أيضًا.

- ضَعوه مع بقية الممنوعات..

قال، لأنه لم يكن مُضطرًا لفحصِ هذا الكتاب تحديدًا ليعرف إن كان صالحًا للتداول. فهو يعرفُ كاتبته، ويلعنها.

خرج من المتجر. كانت الحديقة الأمامية فارغة من الأرانب، وقد تخشَّبَ في مكانه، ينظرُ بشرودٍ إلى موظفي الأمن المنهمكين

في إِحكامِ إِغلاقِ البوّابةِ بالسَّلاسل، وتحويط المكان بشريطٍ أصفر بلاستيكي، بصفتهِ مسرحًا للجريمة. تمطّط أحد العمال، وأخذ يضرب بقبضته على كتفهِ برفق. في حين مدَّ الآخر بورقةٍ إلى المفتّش، وقال بتهذيب:

- وقّع هنا، يا حضرة المفتّش.

ها قد تمَّ الأمر.

لقد تحوّل، رسميًا، من شخص مشبوه إلى بطل قومي. سوف تتعاطف معه المحكمة بعد أن صادر آلاف الكتب الممنوعة. لقد أصبح منذ اليوم، مواطنًا صالحًا. فلماذا ترتعش أطرافه هكذا؟ كان على وشك أن يخر على ركبتيه، ولكنه تذكّر طفلته، طفلته حبيسة مركز إعادة التأهيل، وامتلأ بالكراهية الضروريةِ، ووقع على المحضر.

صافحه الرجال، بدو على وشك حمله على الأكتاف، لولا أنه لم يكن في المزاج المناسب للاحتفال.

- لقد حصلنا على الكتب في الوقتِ المناسب.

- ماذا تقصد؟

- هل نسيت يا سيدي؟ إنهُ عيد التطهير!

المحرقة.

لقد نسيَ أمرها تمامًا.

4

أنت فارغ وبلا معنى، وهذا كله لصالحك.

قال لنفسه، وشعر بأن الصَّوتَ المنبثق في داخلِهِ، هذه المرة، يُشبه صوتَ الرقيب الأول. يجب أن تبقى ميتًا، والأفضل ألا تشعرَ بشيء. ألا تفكّر بالطفلة، ولا بالكتب. عُد إلى بيتك ونَم. سيتكفّل المحامي بالباقي، وسيبذل الجميع جهدهم من أجل إعادة الصَّغيرة إلى أبيها، الذي ليس مواطنًا صالحًا فحسب، بل وبطلًا قوميًا. لذا، ابق ميتًا وفارغًا وبلا معنى، الأمر هكذا أسلَم.

لم يكن يعرف أيهما يؤلم أكثر؛ أنه فقد ابنته، أم أنه خانَ نفسه. وطوال الطَّريق إلى البيت، كان يسمعُ أصْواتَ صراخ، تخرجُ مكتومة من كيسٍ بلاستيكي أسود مليء بالروايات. لقد تسبب في القبض على أكثر من عشرة آلاف كتاب، وهذا يعني أن عدد الكتب التي سيتمُّ حرقها هذه الليلة، بمناسبة عيد التطهير، قد تضاعف إلى العشرين ألف. لقد حكم بنفسه بالإعدام على آلاف العناوين، ناهيك عن الورّاقة التي تقبّلت الأمر بصدرٍ رحب، كما

لو كانت تتوقع حدوثه. وتساءل وقتها إن كان الشعور بالذنب هو ما يجعلها تمدُّ ساعديها بهذه السَّكينة نحو الأصفاد، وتذهب إلى مركز الشرطة، ومن هناك إلى الاختفاء التام. لن يعرف أحدٌ بمصيرها، مثلها مثل العجوز، إنهم يختفون في نهاية النفق، ثقبٌ لعين أسود ابتلعهم تمامًا. ربما ما زال بالإمكان السفر عبر الزمن خارج القصص؟ ما عادَ متأكدًا، وإلا، أين يختفي كل المعتقلين؟

وصل إلى منزلِه، تأمل الواجهة المربعة ذات النوافذ الصغيرة وأحسَّ نفسه عاجزًا عن الدُّخول. أن يرى فراغ البيت، وزوجته التي تغسل الصحون حتى يتقشر جلدها، وأن يفتح دولاب الطفلة ولا يرى فساتين الأميرات، ولا ذئبًا افتراضيًا وحيدًا، كان ذلك فوق احتمالِه. ستعودُ قريبًا. طمأنَ نفسه، لا بدَّ أن تعود بعد أن فعل الذي فعل. لا يمكن أن تمرَّ بطولته دون مكافأةٍ من الحكومة، كلية القدرة كلية المعرفة. سوف تعودُ الطفلة إليه قريبًا، نعم. ستعودُ بالتأكيد.

أرخى رأسه إلى الوراء يستند إلى المقعد. أغمض عينيه. ماذا سيفعل الآن وهو عالق؟ وأين عساهُ يذهب؟ وهل يوجدُ مكان غير مؤلم؟ وأين يختفي المرء من عيني زوجته الدامعتين، تبحثان عن وجهه طوال الوقت، مثل مرآة سحرية ملعونة تعثر على العشاق بهدف قتلهم. لو لم يكن العجوز أحمق إلى هذه الدرجة، لو لم يُقبض عليه متلبسًا بقراءة بينوكيو، لو لم يتم تعيينه مفتّشًا على المكتبات، لو لم يلتقِ الورّاقة، لو لم يعرف بشأن المتاهة، والمحرقة، لو لم يقرأ زوربا في الأصل، لو لم يكن بهذا التقلُّب؛

رقيب كتب، قارئ، حارس السطح، حارس المكتبة، مفتّش مكتبات، سرطان، بطل قومي.. لو كان يعرفُ من هو. لو أن الكتب تمنحه شيئًا غير الأسئلة. لو أنّه لم يتورط بالتأويل..

ماذا ستفعل الآن؟

سأل نفسه، ثم وجد نفسه يضغط على دواسة الوقود مرة ثانية، ويلتفُّ بسيارته إلى مكانٍ يعرفهُ جيدًا، مدفوعًا بما لا يدري.

سوف يذهب إلى المتاهة، وهناك، سوف يتوهُ كثيرًا، سوف يفقد نفسه كُليًا حتى لا يعود قادرًا على الإحساس بالألم.

5

في الطَّريق إلى المتاهة، وجد نفسه عالقًا بين شاحنات نقل مُحمّلة بأجهزة إلكترونية، أكشاكٍ للأزياء التنكرية، دُمى خشبية، والكثير من دمى الكتب. كان الناس قد خرجوا من منازلهم، يرتدون التنانير المكشكشة ويطلون وجوههم بالمساحيق. لم يلبس أيّهم الكاكي. كانت ثيابهم برّاقة؛ زرقاء ملكية، حمراء قانية، وصفراء مشعّة. كانوا يحملون الأواني المنزلية لتحويلها إلى طبولٍ، متوجهين، مشاةً وراكبين، إلى مقبرة السَّيارات. إنه يوم التطهير، والجميع يرغب في حضور العروض المسرحية، رؤية البهلوانات والمهرّجين، وزيارة المتحف المفتوح للهواتف النقالة وكاميرات الديجيتال والأقراص المضغوطة، أكثر ما كان يدهشه هو شرائح الذاكرة المتنقلة، لكنه الآن لا يدهشه شيء. رأى، في طريقهِ إلى المتاهة، الناس يرتدون أقنعة أشباحٍ وأحذية مدببة كالجن، بدوا جميعًا مثل شخصيات متخيّلة، وقد تحررت أخيرًا من سلطة النّص. رأى أكشاك المثلجات، والتفاح المكرمَل، والفشار، وأكواز الذرة المشوية، وإعلانات لجوارب ملونة تحمل صور خرافٍ بيضاء على خلفيةٍ سماوية، أزهار حمراء تبتسم، وأشياء

أخرى غير معقولة. كانت هناك موسيقى أيضًا؛ موسيقى غير مفهومة، لا تصبُّ في هدفٍ مُجدٍ، مثل الموت في سبيل الوطن.

كان الجميع، بطبيعة الحال، ينتظرون عرض النّار، عندما يتم إلقاء سبعة دمى في نارٍ عملاقة، وسط تهليل الجماهير. يتذكر كومة من دمى الكتب ذات الصفحات الفارغة، يشمّ رائحة الكيروسين، ويرى النار تتأجج وتضطرمُ، يتوهّج بريقها في آلاف الأعين المحدقة تحوّطُ المشهد، يسمع هتافَ الجموع أثناء العد التصاعدي. مع كل دمية تلقى في النار، كانت الجماهير تهتف بصوتٍ أعلى، وأعلى، حتى إذا آل بهم الأمر إلى الدمية الأخيرة، أحسوا جميعًا بالتطهير، خلعوا ثيابهم المزركشة، ومسحوا المساحيق عن وجوههم، ثم راحوا ينشدون معًا أناشيد الثورة، مبتهجين بولادةٍ جديدةٍ لحضارتهم.

ما زالت الحكومة تعوّل على هذا الطقس، وتنجح، كل سنة، في رفع منسوب إيمان الشعب بمبادئ العالم الجديد. ولكن لم يسبق له، ولا حتى في سنواتِ طفولته، أن رأى حرقًا فعليًا للكتب. لا تُحرق الكتب الحقيقية في أجواء احتفالية، بل تُحرقُ بصمتٍ في البراح الرَّملي المترامي أمام المتاهة. على مبعدة أميالٍ قليلة من النار الأخرى؛ نار الاستعارات. إنه يعود دائمًا إلى قدرة النظام المذهلة على خلق المجازات، والتصرّف باعتبارها واقع. ولما بلغ بأفكاره هذا الحد تساءل إن كانت الحكومة، في حقيقتها، تؤمن بقوى المخيلة أكثر من المعارضة؟

فليحترقوا جميعًا. الحكومة والمعارضة، وليعيدوا إليه ابنته.

وصل إلى الباحة الترابية أمام المتاهة. لكنه لم يجد داعيًا للتخفّي هذه المرة. أوقفَ سيارته أمام المدخل الرئيسي، وترجّل أمام العمّال المشغولين بإيقاد نارٍ عملاقة أمام المدخل. شمَّ رائحة الكيروسين. رأى رجالًا من الهيئة، وعمّال نقلٍ، يرصفونَ هرمًا من الكتب استعدادًا لحرقِها. هذه هي نار التطهير إذن، الحرقُ الفعليُّ يحدث هنا، في الخفاء والصّمت.

نظر العمّال إليه يستفسرون عن هُويته. أخبرهم بأنه مفتّش المكتبات الذي قدم بلاغًا بشأن شحنة الكتب الأخيرة؛ عشرة آلاف عنوان. قال. هزوا رؤوسهم وتابعوا العمل. أريد أن أزورَ المستودَع، وأتحقق من سير الأمور. هز الرجال أكتافهم وعادوا لمباشرة العمل على رصفِ الكتبِ استعدادًا لإشعال نار التطهير. لم يتكبّد أحد عناء شرح طريقة الوصول إلى المتاهة. كأنه كان أمرًا طبيعيًا؛ أن يعرف طريقه إلى هناك. لقد صار منذ اللحظة، مواطنًا صالحًا فوق الشبهات، قادرًا على اختراق النظام بين عينيه ودون أن يمسّه شيء.

دخل من البوابة الأمامية، أمام كاميرات المراقبة. كان يعرفُ، هذه المرة، بأنه لم يأتِ في موعد الاختراق المناسب، وأن أحدًا لن يمسح وجهه من التسجيلات، ولكن لا يهم. فهو ميت وفارغ ومحصَّن من الاعتقال، وكل ما يريده هو أن يصل إلى المتاهة، وأن يضيع، حتى لا يعود قادرًا على الإحساس بالألم.

6

في مجازٍ هزيلٍ بين أعمدةِ الكتبِ المتطاولة، وسط متواليةٍ أبدية من أبراج بابل المؤلفة من الكلمات، تمدّد الرَّجل على ظهرهِ وأغمض عينيه، منتظرًا أن تفعل المتاهة فعلها فيه؛ أن ينسى نفسه.

ماذا لو أن شيئًا مما حدث، لم يحدث؟ إنه لم يسترجع حكايته في رأسه، إلا نادمًا على كلّ فصلٍ من فصولها. لقد أصابته لوثة المعنى، على ما يبدو، وما عاد قادرًا على العيش. ترى، إلى أي حدٍ سيختلف الأمر لو أنه لم يقرأ؟ أيها الرئيس! سمع ذلك الصوت. مبحوحًا، مشروخًا، يأتيه من مكانٍ ما، بين الكتب. فتح عينيه ورفع رأسه ناحية الصوت. لقد نسيَ تمامًا أمر الرَّجل الغريب. كان يقف أمامه مشرعًا عينيه باتساعٍ مروّع، يسأله بصوتٍ مبحوح: ما الذي فعلته؟! كان الغريبُ محتقنَ الوجه، محمرَّ العينين، حافي القدمين بطبيعة الحال. كانت عصابة رأسه قد عُلِّقت على كتفهِ، وقد نسي تزرير قميصه حتى بانت بطنهُ البارزة قليلًا، والعلّاقة البيضاء للباسه الداخلي. لقد كان الرجل غريب أطوارٍ مذ عرفه، ولكنه الآن حزين.

لم يعرف بماذا يجيب. هل يعتذر عن الأمر، أم يصرخ في الغريب أن يغرب عن وجهه. كان يعوّل على قدرة المتاهة على تخدير جرحه، آملًا أن ينفذ خطته في التلاشي، ولكنّ الغريب يظهر من اللا مكان، ومعه الأسئلة:

- ما الذي تفعله هنا؟

- وماذا يبدو لك أنني أفعل؟

أراح رأسه على الأرض ثانية، أغمض، زفرَ..

- إنني أرتاحْ.

زمجر العملاق الغريبُ فجأة، وثب على صدرِ الرجل وقبض على أردانه، يهز كتفيه ويضرب رأسه بالأرض: «أيُّها الخائن! لقد وشيتَ بنا!» قبض الرجل بدوره على قميص الغريب غير المزرّر:

- وإذا لم تصمت، سأشي بكَ أنت الآخر.

- لقد خنتَ الكتب..

- الكتب خانتني.

- خنتَ الورّاقة..

- اللعنة عليها.

- وخنتَ جيبيتو.. لقد خنتَ العجوز!

بهتَ الرجل من سماعِ ذلك الاسم.

- ماذا قلت؟

- قلت بأنك خنتَ الـ...

- هل قلت جيبيتو؟ هل كان هذا اسمه؟

- هل أنتَ غبيٌ يا أخي؟

رفسَ الغريبَ يبعدهُ عنه. فزَّ الرجل من مكانِه، ركضَ بين متتاليةٍ من أبراج الكتبِ المترامية أمامه، مثل مصفوفة أبدية، كلما غادر حُجرة فيها سقط في الحجرة التي تليها، ولا يبدو عليها أنها ستنتهي. انعطف عدة مراتٍ حتى وصل إلى السُّلم المعدنيّ في الزاوية. تسلّقه بسرعة، كان الغريب يركض وراءه ويهتف؛ ماذا حدث؟ لكنه أراد أن يعرف في أي بقعةٍ لعينةٍ وضع العُمّال شحنة

الكتب التي صادرها من متجر الكتب.

- أين وضعوا كتبي؟

- أية كتب؟

- الكتب التي جاءوا بها اليوم، في أيّ ركن؟

اتبعني. قال الغريب. فسار وراءه. قلبه ينتفضُ في أعماقه. وصل إلى العلب والأكياس البلاستيكية السوداء. اكتسى صوت الغريب بنشيجٍ مكتوم: إنهم القادمون الجدد! انكبَّ الرجل على الأكياس يمزقها بأسنانه، يبحثُ عن ذلك الكتاب، عن ذلك الاسم. ها هو. هتف: بينوكيو! قصة مصوّرة.

فتح الصَّفحة الأولى، وأخذ يُحدق في صورة النجّار، النجار العجوز، وعشرات الساعات معلقة على الحائط وراءه، منكبًا على صناعة دمية صبي.

راح يشير بإصبعه إلى صورة النجّار في الكتاب وهو يقهقهُ وينتحب. هل كانت ابنته تعرفُ ذلك منذ البداية؟

كانت الأسئلة تتدافع داخل رأسه. ضحك بشكلٍ هستيري؛ «لقد فهمت! لقد فهمت!»، تدفَّقت الدُّموع من عينيه وأخذ يقهقه حتى أحسَّ بأضلاع صدره تؤلمه، كأنها على وشك أن تنكسر، من

ضغط ضحكاته التي تدفع أحشاءه خارج جلده. انطوى على نفسهِ يقبضُ على بطنهِ وصدره ويصرخ. يضحك. يبكي. يسمع الغريب يهمس؛ يا أخي! ماذا حصل لك؟ رفع رأسه باتجاهِ حارسِ المتاهة، قهقه، ثم وثبَ من مكانه وأخذ يركض بين الأعمدة يخلع ثيابه؛ قميصه، بنطاله، جواربه، حذاءه، سرواله الداخلي، يقذفها في الهواء ويصرخ؛ اللعنة على العجوز! اللعنة على العجوز! لقد جننتَ يا رجُل. همسَ الغريب، ولكنَّ الرجل فردَ ذراعيهِ على جانبيهِ، مثل نورسٍ في جزيرة، وشرع يرقص، عاريًا، بين الكتب الممنوعة، يرقص ويردّد: لقد فهمت! لقد فهمت! يسأله حارس المتاهة؛ ما الذي فهمته يا أخي؟

كيف يشرح ما فهمه؟ الكلماتُ تتعذَّر، والرَّقصُ لا يكفي. أخذ جسده يهتزُّ فاردًا ذراعيهِ مثل طائرٍ ذبيح. إنك لا تستطيع منعَ المخيّلة مهما فعلت، كان يسمع صوت العجوز في داخله؛ لا تستطيع منعها أبدًا، سوف تتضخم، وتبدأ في ضخّهم في العالم واحدًا بعد الآخر. كلهم، وحتى آخرهم، جيبيتو، أَلِس، الأخ الكبير، زوربا.. كل واحدٍ منهم هو ابن خطيئة الخيال، ابن العالم المحرَّم، حتى لو نسوا ذلك، أو تناسوه. أخذ يصفع وجهه، مرة، ثم أخرى، ثم أخرى.. جسده يخرج عن سيطرته، قدماه بالكاد تلامسان الأرض. يضحك، يرفع رأسه إلى أعلى ويضحك؛ سوف يأتون للمطالبة بما يريدون؛ أن تؤمن بهم، المخيلة حقيقية، الحقيقة متخيّلة، وذلك العجوز اللعين، لماذا لم يخبرني من هو؟ كان عليّ أن أعرف!

- هل جننت يا أخي؟

نظر إلى الغريب كأنه يراه للمرة الأولى. تمتم مشدوهًا:

- أنا أعرفك.

ابتسامة مجنونة حطت على شفتيه. قرقرَ ضاحكًا.. أمام وجه البحّار الذي لوَّحتهُ الشَّمس، السِّندباد الرّاقص، ذي الزندين العظيمين. الرّاقص العظيم على الشواطئ. أحسَّ بدوارٍ مفاجئ في رأسه، مادت به الأرض فتشبث بعمود الكتب القريب؛ قل لي، يا زوربا.. أيّنا حقيقيٌ وأيُّنا متخيّل؟ أنا الذي أتيتُ بك إلى هنا، أليس كذلك؟ لقد قرأت الكتاب عشرات المرّات حتى ما عدت قادرًا على تجاهلي. هل أتيت من أجلي، يا زوربا؟

صورٌ مجنونة تتدافع داخل رأسه؛ ماذا عن رئيس القسم؟ ورئيس الحكومة؟ لماذا يشبه الأخ الكبير؟ وماذا عن طفلته؟

اشتد الدُّوار بالرجل، خرَّ على ركبتيهِ وأغمض عينيه، أسند رأسه على سُطوح الكتب المصفوفةِ أمامه. أخذ ينوحُ وهو يضربُ رأسه بالكتب مرارًا؛ أين ابنتي؟ أين هي! اعتدل جالسًا، استند على الأرفف المزدحمة بالرواياتِ من ورائه، ورأى الغريب يمشي مبتعدًا. ناداه: هيه! زوربا! أين تذهب؟ لكنه لم يرد. لقد اختفى في نهايةِ حدود نظره، وما عاد يسمع قرع قدميه بالأرض.

نهض الرجلُ من مكانه، يهرولُ مكسورًا، ربما في وسعه هو أيضًا أن ينتهي إلى ذلك المكان الذي جاء منه العجوز، وزوربا، والأخ الكبير، والأرانب، أن يعبر الخط الوهمي بين الحقيقي والمتخيّل، وألا يعود هذا الألم موجودًا، لكنه تاهَ تمامًا، لقد ابتلعته المتاهة، وصار يركضُ حول النقطة نفسها. زوربا! أخذ يصرخ. ولكنَّ أحدًا لم يرد. سمعَ أصوات رجالٍ تتناهى إليهِ من آخر المتاهة. أين ذهب مونتاغ! كان أحدهم ينادي. إنهم العُمّال الذين تفوح من قمصانهم رائحة الكيروسين. لقد أشعلوا نار التطهير، وجاءوا لأخذ مزيدٍ من الكتب المحكومة بالإعدام، لقد أحرقوا الدفعة الأولى.. ركض باتجاه الصَّوت. رآهم يلتقطون الكتب المعتقلة حديثًا. صاح بهم؛ لا، لا، خطأ! هذه كتب جديدة، دعوها! رأى أحدهم يقبض على نسخةٍ من رواية زوربا. الكتاب الذي ابتدأ منه كل شيء. انتزع الكتاب من يده؛ خذوا كتبًا غيرها! ماذا تفعل يا رجل؟ ولماذا أنت عارٍ؟ إنه مجنون. هذه الكتب لم يحِن دورها بعد، ما زال أمامها سنة كاملة. هزَّ العُمّال رؤوسهم وتمتموا؛ مخبول! تغلغلوا في ممرات المتاهةِ، حاملين علبًا فارغة، كانت الأيدي تمتد بشكلٍ عشوائي وتلتقط كتابًا ثم تقذفُ به في العلبة. ماذا لو لم يكن هذا الألم حقيقيًا؟ أين ذهب زوربا، وهل في وسع رجال الاستخبارات تعذيب شخصية روائية؟

ما الذي حدث، يا ترى؟

وما الذي لم يحدث؟

أحسَّ الرَّجل بوهنٍ في ركبتيه. تهاوى على كومةِ الكتب. تمدد على ظهره فوق الكتب التي اعتقلها بنفسه. أحسَّ بشيءٍ حادٍ ينخس ظهره العاري. تحسس أسفل ظهره بيدِه، وعثر على.. ما هذا؟

كان يعرفُ تلك الأوراق.

إنه المخطوط.

إنها الوراقة اللعينة.

وعلى الصفحة الأولى قرأ العنوان:

حارسُ سطح العالم.

ضحك، كان يعرفُ بأنها تكتب عنه، ولعلها أيضًا أحبته. فلتحترق في عنابر أمنِ الدولة إلى الأبد.

طوى الصفحة الأولى من المخطوطِ وقرأ..

«عندما استيقظ رقيبُ الكُتبِ من نومِه ذات صباح، مُمتلئًا بكلماتِ الآخرين، وجدَ نفسه وقد تحوَّل إلى قارئ».

7

تربّعَ الرجل على كومةِ الكتبِ وقرأ مخطوط الورّاقة.

قرأ كل شيء يعرفه؛ منذ سقوطه في شَرَكِ المعنى، وحتى هذه اللحظة؛ حيث يتربّع عاريًا فوق كومةِ الكتب التي قام باعتقالها، يقرأ قِصّة حياته.

ألهذا السّبب كانت تبتسم؟ وهل يقلّلُ من فداحةِ ألمه ألا يكون حقيقيًا، ألا يكون، هو، حقيقيًا؟

مرَّ أمامه ثلاثة رجالٍ يحملون صندوقًا مليئًا بالكتب.

- يا شباب!

التفتوا ناحيته؛ رجلٌ عارٍ يبتسم كالمخبول.

- أنا شخصية روائية!

هزوا رؤوسهم مُشفقين، يجب أن نطلب الشرطة. غمغم أحدهم، أو الإسعاف! نعم، بعد أن نُنهي عملنا. واصلوا حملَ الصُّندوق إلى المصعد.

في أسفل الصفحة بين يديه قرأ:

«أنا شخصية روائية!».

8

أتمَّ المجنون قراءة كلَّ ما حدث في حياته، منذ أن استيقظ من نومهِ ذات صباح، ليجد نفسه وقد تحوّل إلى قارئ، وحتى اللَّحظة التي اكتشف فيها أنهُ شخصية في رواية.

كل شيءٍ عاشه، كل ضِلعٍ تكسّر في صدره، كل استعارة نبتت في رأسه، وكل صوتٍ انبثقَ من أعماقه، كان في المخطوط. لقد دوّنت الوراقة كلَّ شيء، ومنحته حكايته كما يعرِفها. تساءل للحظة، هل كانت أحداث حياته تقع بالتزامن مع لحظةِ كتابتها، أم أنها كانت تسبقه دائمًا؟ لقد توقَّفت عن الكتابةِ بالضَّبط، في اللَّحظة التي دخل فيها إلى المكتبة ليلقي القبض عليها. كانت تعرفُ ما سيحدث، فهي التي كتبته، وها هي تمنحه الآن، بكرمٍ إلهي، فرصة أن يكتشفَ نهايته.

لكنه لم يفهم، ما الذي يدفع كاتبة لأن تكتبَ نهاية حياتها على يد إحدى شخصياتها؟ لماذا سمحتْ له بأن يسلّمها للسُّلطات؟ وإذا كان كلُّ ما حدث، هو مشيئتها، فأين هي مشيئته؟ وطالما أن

الورّاقة قد كتبته، فمن الذي كتب الورّاقة، ومن الذي كتب كاتبها؟ لا يفهم أيضًا، لماذا نكّلت به إلى هذه الدرجة؟ لماذا صنعت جحيمًا، ثمَّ أفرغته من المعنى، وطلبت منه أن يكابد الوجود فيه؟ وإذا كان المكتوب في المخطوطِ هو قدره، فهل في وسعه أن يخرج عن النّص؟

فلتذهب الوراقة إلى الجحيم، حتى لو كان الجحيم غير موجود. فما يهمه الآن هو أمرٌ واحدٌ فقط، أن يعرف ما لم يحدث.

قلبَ الصَّفحة.

يكاد قلبه ينخلع من صدرهِ.

يقرأ ويلهث.

مسح الصَّفحات اللاحقة بعينيه بسرعة. ابتهج عندما قرأ بأن المحكمة أصدرت حُكما لصالحه بعد قيامه بدورِهِ البطولي في القبضِ على الورّاقة، وضبطية من آلاف الكتبِ الممنوعة. حتى المحامي لم يتوقع أن تميل الكفة لصالحهِ إلى هذه الدَّرجة. بعد مزيدٍ من التحقيقات الجنائية، ألقت السُّلطات القَبض على رئيس القسم الذي اتضح تورّطه في خليةٍ سرطانية تهدف إلى قرصنة ونشل وتهريبِ الكُتب الممنوعةِ من الحَرق. وتمَّت ترقية الرَّقيب الأول إلى منصب رئيس القسم. نقص الرقباء السبعة واحدًا.

ورغم أن حالةُ الطفلة متقدمة جدًا وصعبةُ العلاج، إلا أن

التقرير الطبي أفاد بأن السَّبب بيولوجي، وليس بيئيًا، وليسَ في وسعِ النِّظام أن يُعاقب مواطنًا صالحًا على أخطاء الطبيعة. رأى القضاء أن من مِصلحة الطفلة أن يزورها والدها في المركز، لأن تلك الزيارة ستكون ذات تأثيرٍ إيجابي على حالة الصغيرة، ريثما يتم إعادة تأهيلها بما يتناسب مع قيم المجتمع وتطلعات العالم الجديد.

خفق قلبُ الرجل بقوة، هذا يعني أنه سيرى ابنته مرة ثانية، حتى لو حدث ذلك في صفحات كتاب. تنفَّس بعمقٍ وقرأ أكثر..

9

«عندما زار الأب ابنته في مركز إعادة التأهيل، وجدَها مُقيَّدة إلى السَّرير بأحزمةٍ جِلدية، وقد أُلصِقَ جفناها بشريطٍ لاصقٍ لكيلا تغمض أمام شاشة السَّقف.

كانت صورة الرئيس معلقة في السَّقف، وفي الجدار المقابل للسرير مباشرة، وبين مترٍ وآخر في الممرات. أخبرته الممرضة بأن التَّحديق لساعاتٍ في صورة الرئيس من شأنه أن يعجّل عملية التعافي. أحسَّ بقلبه يُظلم، لأن الطفلة لم تكن ترفسُ وتصرخ. كانت خامدة تمامًا، شاخصة في الصورة دون أن تملك حق الإغماض.

ولأول مرة فكّر الأب بأنها كانت فِكرة جيدة، أنه لم يسمح لزوجته بمرافقته. إنها لن تحتمل للحظةٍ رؤية ابنتها تتعذب هكذا دون أن تملأ ممرات المركز بالنحيب، وإذا ما فعلت، فقد لا يسمحون لهم بزيارة ثانية. وجد نفسه، رغمًا عنه، يتذكّر الحسّون الذي اشتراه في طفولته. سألته الممرضة إن كان يحتاج

إلى شيء آخر. هزَّ رأسه نافيًا، غابت الممرضة في الممر.

أحسَّ بوهنٍ في ساقيه وفي قلبهِ، وهو يقترب من ابنته خطوة أخرى. كانت هناك أسلاكٌ مثبتة إلى جسدها، سمّاعات أذن، وأجهزة ترصُد مؤشراتها الحيوية. «أنا هنا حبيبتي»، قال، ولكن الطفلة لم تتعرّف إليه، ولم تميّز صوته. حرّك يديه أمام عينيها الشاخصتين في الفراغ. هل ما زالت قادرة على الرؤية؟ وضع راحته على عينيها لكي يُريحهما، وفكّر في الحسون؛ يحتاج العصفورُ أن تغطّي قفصه بقماشةٍ سوداء كيلا يرى القضبان. سالت دمعة من عينيه. اقترب من رأسها أكثر، رفع السماعات عن أذنيها، وهمس في أذنها.

- هل أقصُّ عليكِ قصة؟

كان يعرفُ بأنَّ حكايةً جيّدةً واحدة سوف تشعرُها بالتحسّن. وكان يعرفُ حكايةً جيدة..

- كان يا ما كان، كانت هناك جدَّة، تعيش في بطنِ الذئب، ويعيش الذئب في دولاب طفلة، وكان طعم الجدّةِ لذيذًا، لأنها تعرف الكثير من القصص، مثل قصّة المرآة السحرية، والحسناوات في ثمار الليمون، والجنّي في القُمقُم، والحارس في سطح العالم..

اتسعت حدقتاها. حركت شفتيها كأنها على وشكِ قول

شيء، لكنها لم تقل شيئًا. كانت قد نسيت الكلمات.

وضع الأبُ رأسه على طرف السَّرير، يجاهد كيلا يُسمَع صوت بكائه. كيلا تسمع، ابنته، صوت بكائه.

رأى الأحزمة الجلدية التي تشدُّ جسدها الصغير إلى الفراش، رأى الحُزوز على معصميها وساقيها. لماذا يقيدونها مثل مجرمة بالغة الخطورة، وهي مجرد طفلة بمخيّلة؟

امتدّت يدهُ وأرخت قبضة الأحزمة، دلّك بأصابعه الحُزوز المحتقنة على جلدها، قبّل أصابعها واحدًا واحدًا.

ثم جاءت الممرضة ورافقته إلى الخارج.

10

في اليوم التالي، ورده اتصالٌ من مركز إعادة التأهيل. قالوا بأن عليه أن يوافيهم فورًا، وأنها حالة طارئة. هذه المرة أيضًا لم يسمح الأب لزوجته بمرافقته، أحسَّ بقلبه يُعتمُ وينطفئ، وهو يشغل محرّك سيارته ذاهبًا إلى المركز. وللمرة الثانية، تذكّر الحسّون.

بمجرد وصوله إلى المركز، رافقته إحدى الممرضات إلى غرفةِ التحقيق. جلس إلى مكتب ضابط التحقيق، يتساءل عما تحتويه الورقة على سطح المكتب. كان خائفًا من معرفة ما حدث، لكنه مع ذلك استجمع شجاعته وسأل؛ أين هي ابنتي؟ لم ينبس الضابط بكلمة، اكتفى بأن دفع إليه بالورقة.

في تلك الورقة قرأ تقريرًا لما حدث.

حدث الأمر ليلة أمس..

ذكر التقرير بأن الأحزمة الجلدية التي تشدُّ جسد الصغيرة

إلى السَّرير كانت مرتخيَّة، وهو الأمر الذي ما زالوا يبحثون عن أسبابِهِ لمحاسبة المسؤول. كاميرات المراقبة رصدت الأمر برمّته.

حرَّرت الصَّغيرة جسدها من الأحزمة، وتسلَّلت من الفراش.

بسبب قلة الموظفين في المناوبة الليلة، لم ينتبه أحدٌ لما حدث. ولكن الطفلة أخذت، فجأة، تضرب رأسها بالجدار، عند صورة الرئيس بالضبط، مرّة بعد مرّة بعد أخرى..

لقد أصبحَ يعرفُ ما حدث.

مثل حسونٍ يضربُ جَسده بالقضبان حتى يموت.

سقطت الطفلة هامدة، خيطٌ من الدم سال من فمِها، وشخصت عيناها باتجاه صورة الرئيس.

ذكرت إحدى الممرضات، لاحقًا، أن الصغيرة كانت تبتسم.

11

في الفناء الخارجي، كانت نار التطهير قد اضطرمت، وتعالَت.

كانت آلاف الكتاب قد أحرقت، وراحت أغلفتها تصفّق «**كأجنحة حمامات مذبوحة يتبدد رمادها على هبات ريح سودتها النيران**». امتلأ الهواء برائحة الكيروسين، وكانت أنابيب إطفاء الحرائق قد رُصّت على الرَّمل في انتظار تحوّل الكتاب الأخير إلى رماد.

بوغتَ العمال في تلك الظهيرة، بأحد المجانين يخرج عاريًا من بوابةِ المبنى. كانت عيناه زائغتان، وابتسامة بلهاء تلوحُ على شفتيه، كان يُسدِّدُ قبضته إلى السَّماء ويهذي بأنَّ «لا شيء حقيقي، لا شيءَ حدث». حاولَ العمال الاقتراب من الرّجل المخبول الذي، لم يصدق أحد، بأنه مفتّش المكتبات الذي ألقى القبض على آلاف الكتب هذا الصباح، والذي دخل إلى المبنى قبل ساعاتٍ، بالزي الكاكي. من أنت؟ سأله أحدهم، فأخذ الرجل يقهقه، لأنه لم يقدر،

ولا للحظة، أن يحسمَ قراره بهذا الصدد.

- لقد عرفتُ..

قالَ للعُمّال الذين حوطوه، مرتبكين، فيما هرع بعضٌ منهم لجلبِ إزارٍ يغطّي عورته المكشوفة. ولكن أحدًا لم يتوقع ما حدث.

نظر الرجل إلى نارِ التطهير، وابتسامةٌ نورانيةٌ تشعُّ من محيّاه. ثم باغتَ الرجال من حولهِ، ركض مفلتًا من أيديهم، وفي لحظةٍ وثبَ إلى النار المضرمة على بعد أمتارٍ من البوابة.

تصايح الرجال. هرعوا إلى أنابيب الإطفاء المرصوفة على الجانب، ورشُّوا الرغوة البيضاء على النار المستعرة لإخمادِها.

عندما تمكّنوا أخيرًا من إطفاء النار، لم يجدوا آثارًا لعظام الرجل المعتوه الذي انتحر أمامهم.

كأنه لم يوجد قط.

كأنه شخصية في رواية.

تمّت

مارس 2018 - إبريل 2019

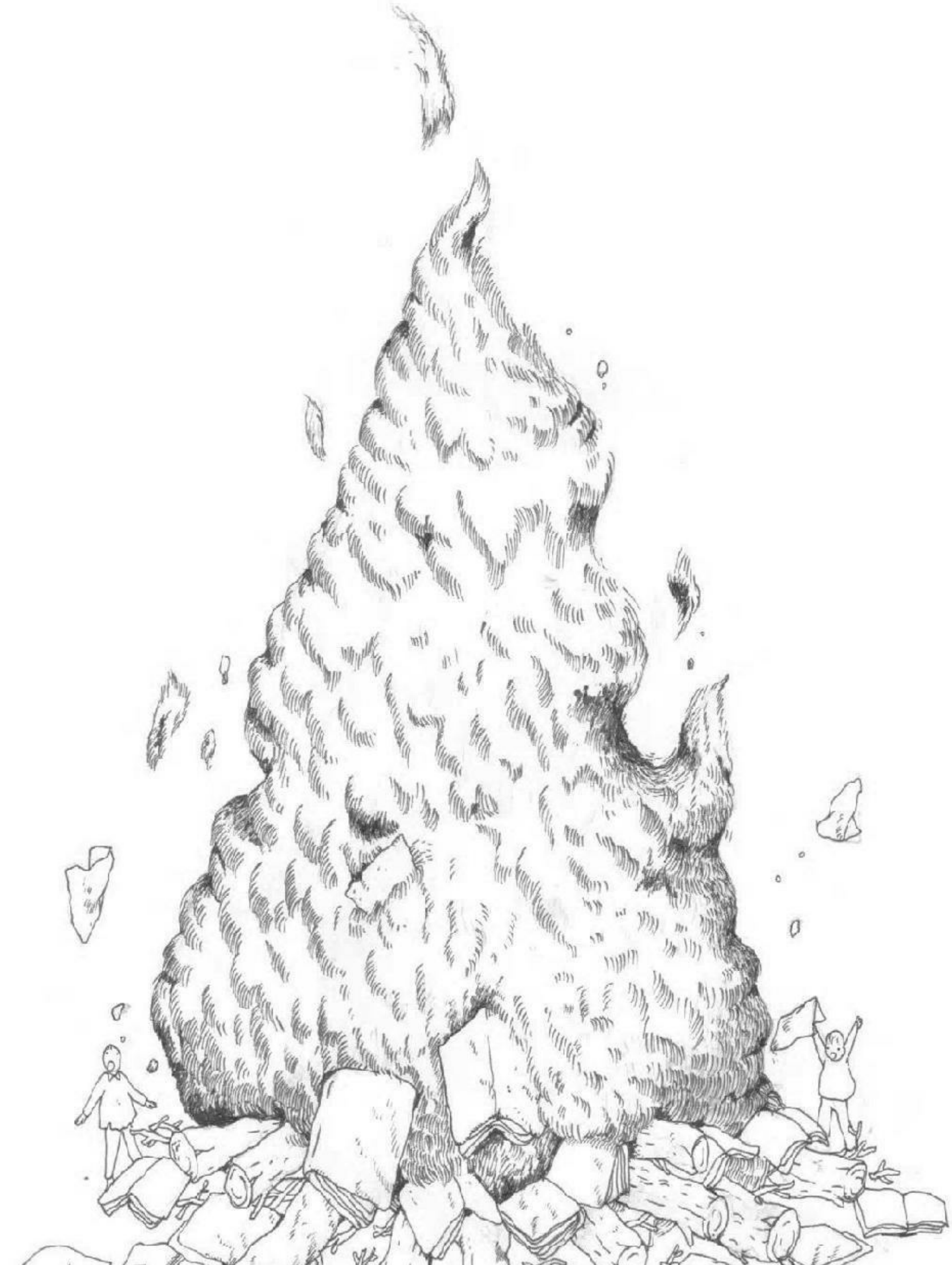

اعتذار وامتنان

هذه الرواية، كما يعرفُ القارئ الآن، هي محاولة لمحاورة أعمال روائية كلاسيكية في سبيل رواية جديدة؛ التحول لكافكا، زوربا اليوناني لنيكوس كازنتزاكيس، ألس في بلاد العجائب للويس كارول، 1984 لجورج أورويل، بينوكيو لكارلو كولودي، و451 فهرنهايت لراي برادبيري. تضمن السَّرد أيضًا إشارات لقصة مدينتين لتشارلز ديكنز، ورباعية مقبرة الكتب المنسية لكارلوس زافون، فرانكشتاين ماري شيلي، وبعض قصص الطفولة التي قرأتُها في سلسلة المكتبة الخضراء، مثل المرآة السحرية والليمون العجيب. أنا متأكدة من وجود نصوص أخرى، تأثر بها العمل وحاورها، دون وعيٍ مني، ومن هؤلاء أعتذر. بقدر ما أعتذر عن جرأتي في اللّعب مع تلك النصوص، واستخدامها لصناعةِ حكايةٍ تخصّني.

قد يشفع لي هذا الاقتباس لألبرتو مانغويل:

«القصص جميعها هي تأويلاتنا للقصص؛ ليس ثمة قراءة

بريئة».

وليس ثمة كتابةٍ بريئة أيضًا.

كما أتقدّم بخالص الشُّكر للأصدقاء والزملاء ممن ساعدوني في مراجعة وتحرير وتنقيح هذا العمل؛ والدتي كوثر المسلم، الأصدقاء والزملاء؛ سعود السنعوسي، مصطفى الحسن، داليا تونسي، حجي جابر، سارة الشمري، محمد العتابي، محمد آيت حنا، منى السليمية، هدى الدخيل وكريم راهي.

لهم الشكر جميعًا..

بثينة العيسى